العدد 163
السنة الخامسة عشرة
ربيع 2018

مجلة سياسية ثقافية فصلية تصدرها مؤسسة الإعلام والفن للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

A political, cultural magazine issued quarterly by Kurdistan Islamic Union

صاحب الامتياز
صلاح الدين بابكر

رئيس التحرير
سالم الحاج
salimalhaj83@yahoo.com
07504499179

هيئة التحرير
سعد الزيباري
saadsuhaib@yahoo.com

د. نبيل فتحي حسين
nabil_fathi72@yahoo.com

سرهد أحمد علي
sarhad_ahmad72@yahoo.com

الإخراج الفني
قوباد ياسين طه
tqubadyasen@yahoo.com

الموقع الألكتروني
http://alhiwarmagazine.blogspot.com

البريد الألكتروني
alhiwar2003@yahoo.com

alhiwarmagazine2002

alhiwarmagazine

العنوان
إقليم كوردستان العراق/ أربيل - محلة طيراوة/ مقابل نقليات الشمال/ قرب المركز الثاني للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

المحتويات

ملف العدد		٤
- مقدمة		٥
- الاتحاد الإسلامي الكوردستاني حزب سياسي إسلامي...	مقابلة مع د.هادي علي	٦ – ١١
- **عبق الكلمات/** وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ	عبد الباقي يوسف	١٢ -١٣
دراسات		١٤
- آراء العلامة (ناصر سبحاني) حول فهم التصورات والقيم الدينية	د.عمر عبد العزيز	١٥ -٢٥
- منهج الوسطية الإسلامية في فهم الواقع	د. دحام الهسنياني	٢٦-٣٥
- تاريخ الصراع على مدينة (القدس)	د.فرست مرعي	٣٦-٤٥
- الإعلام المسيّس واستراتيجية التلاعب بالعقول	سعد الزيباري	٤٦-٦٩
- التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي	سالم الحاج	٧٠-٨٧
رؤية / الوسطية السياسية	**شيروان شميراني**	٨٨-٨٩
مقالات		٩٠
-في ظلال آية	علي سليم	٩١-٩٤
- نظرة مختصرة حول معاني سورة الفاتحة	قاسم نوفيسي	٩٥-١٠٦
- لمحة عن حياة الأستاذ صلاح الدين محمد بهاءالدين	د.عبد اللطيف ياسين	١٠٧-١١٣
- مملكة الله على الأرض	د.سعد الديوجي	١١٤-١١٧
-التكنولوجيا وبصماتها في عالم السياسة	عمار وجيه	١١٨-١١٩
- كنز ربا: الكتاب المقدس للصابئة المندائية	د.أكرم فتاح	١٢٠-١٢٣
- المنصات الإعلامية والالكترونية والمستقبل المظلم	صالحة علام	١٢٤-١٢٦
- ابتلاء المؤمنين	رشاد محمود	١٢٧-١٢٨
-القرعونية العالمية	صالح شيخو الهسنياني	١٢٩-١٤٦
مرافئ/ حلبجة.. جراحات لم تندمل	**د.يحيى ريشاوي**	١٤٧

ثقافة/		١٤٨
- الهاربون دائماً..	أحمد الزاويتي	١٤٩-١٥٣
- إلى أين تأخذنا أيها الشاعر؟	منير خلف	١٥٤-١٥٦
قراءة في كتاب		١٥٧
- حماة الأيوبية: دراسة سياسية حضارية	د.عماد الدين خليل	١٥٨-١٦١
- كتـــاب دار الاعتماد البريطانية وتكوين الحكم الوطني في العراق	عبدالرزاق الحمداني	١٦٢-١٦٨
- قراءة في كتاب التعليم الديني بين التجديد والتجميد	د.مصطفى عطية	١٦٩-١٨٠
بصراحة/ الوعي الانتخابي	**صلاح سعيد أمين**	١٨١
تقارير		**١٨٢**
- الاتحاد الإسلامي: حقوق شعبنا باتت ضحية لمصالح القوى العظمى	تقرير: الحوار	١٨٣-١٨٤
- انفراج في أزمة العلاقة بين أربيل وبغداد	تقرير: المحرر السياسي	١٨٥-١٨٧
- مؤتمر بأربيل: عن النصوص والتراث	تقرير: الحوار	١٨٨-١٨٩
- ديوان أربيل لـ(الشرق الشبابي) ينظم ورشة	تقرير: الحوار	١٩٠-١٩١
آخر الكلام/ منطقة على فوهة بركان	**محمد واني**	١٩٢

ملف العدد

- مقدمة	
- الاتحاد الإسلامي الكوردستاني حزب سياسي إسلامي...	مقابلة مع الأستاذ هادي علي

تنويه

تزامناً مع الذكرى السنوية لإعلان حزب (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) ارتأت مجلة (الحوار) أن تفتح ملفاً حول (الرؤية والفكر السياسي) لدى هذا الحزب..

وقد قمنا بالاتصال ببعض قيادات الحزب، ووجهنا لهم أسئلة حول المحور أعلاه، ولكننا لم نلق الاستجابة المطلوبة..

ونحن إذ نشكر الأستاذ (هادي علي) على إجابته على تساؤلاتنا، نعد بنشر المزيد من المشاركات، في الأعداد القادمة من المجلة، إن وصلت..

الاتحاد الإسلامي الكوردستاني
حزب يمارس العمل الدعوي والسياسي معاً

لقاء مع الدكتور هادي علي
رئيس المجلس السياسي للاتحاد الإسلامي الكوردستاني

ما هو مفهوم السياسة لديكم؟ وكيف تمارسونها، ما هي آلياتها لديكم؟

- السياسة، في المفهوم العام لدينا، هي الاشتغال بالشأن العام، وإدارة المجتمع، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وآلياتها هي العمل السياسي، والمنافسة السياسية، من قبل الأحزاب السياسية، من خلال المعارضة، أو المشاركة في السلطة، و ذلك في إطار العملية الديموقراطية، والمشاركة الفعالة في الانتخابات العامة.

- **هل تحاولون الوصول الى السلطة؟ أم أنكم تؤيدون الحاكم وتعينونه على الإصلاح، ولا تنافسونه في السلطة؟**

- السلطة السياسية، في أي مجتمع، ليست حكراً على فئة معينة، أو حزب بعينه.. بل هي ملك لجميع الشعب، ومن حق أي حزب سياسي أن يعمل من أجل الوصول إليها عن طريق الآليات الديموقراطية، وعلى رأسها خوض الانتخابات العامة..

ونحن في (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) نعتبر الوصول إلى السلطة حقاً طبيعياً وديموقراطياً لنا، لتنفيذ مشروعنا السياسي الإصلاحي، من خلال مؤسسات السلطة.

أما قبل الوصول إلى السلطة الفعلية، فنحن نعمل على الإصلاح التدريجي، والممنهج، سواء في موقف المعارضة، أو المشاركة الجزئية في السلطة.

- **ما هو مفهوم الإصلاح لديكم، وأنتم ترفعون شعار {إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت}؟.. هل يعني الإصلاح عملية ترقيع وترميم مستمرة للحكم والسلطة؟.. هل تعيدون إنتاج مفهوم الخوف من (الفتنة)، المشهور في التراث الإسلامي، أم إنكم تواجهون فساد السلطة الظالمة، ولو باستعمال القوة والأخذ على اليد؟**

- مفهوم الإصلاح لدينا، كحزب إسلامي، مفهوم واسع، يشمل إصلاح الفرد والمجتمع والحكومة، بصورة متوازنة، ومتكاملة، في نفس الوقت، والإصلاح السياسي الحقيقي يعتبر العمود الفقري لعملية الإصلاح الشاملة التي نؤمن بها، ونتبناها، في (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، وذلك من خلال العملية الديموقراطية، ودون اللجوء إلى العنف واستخدام القوة.

و بناءاً على ذلك، فليس هناك أي خوف من إعادة إنتاج مفهوم (الفتنة) المشهور في التراث والتاريخ الإسلامي.

- **ما هو مفهوم المعارضة لديكم؟ هل تؤيدون المفهوم الغربي المعاصر لها؟ أم إن الفكر الإسلامي السياسي، والغاية الإصلاحية للأحزاب الإسلامية، تفرض عليكم مفهوماً مغايراً للمعارضة؟**

- بالنسبة لمفهوم المعارضة، ليس هناك أي إشكال في الاستفادة من المفهوم الغربي والمعاصر لها. خاصة فيما يخص الآليات التي تمارس بها عملية المعارضة، من خلال العمل البرلماني والنيابي وغيرها..

و نحن في الاتحاد الإسلامي، كحزب سياسي ذو مرجعية إسلامية، بإمكاننا التنظير لمفهوم المعارضة، بالاستناد إلى عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي هي من أهم

واجبات المجتمع المسلم، ومؤسساته، فيما يخص الشأن العام والسياسات التي تنتهجها السلطة السياسية.. وليس هناك أي تعارض أو تناقض في هذا المجال..

- **هل تعملون على تطبيق الشريعة؟ كيف ستطبقون الشريعة في إقليم كوردستان؟ هل لكم رؤية واضحة في هذا المجال، أم هو موضوع مؤجل لديكم؟**

- الشريعة الإسلامية ليست كلها أحكاماً وقوانين عقوبات، حتى يكون تنفيذها من اختصاص مؤسسات الدولة والسلطة السياسية..

والشريعة الإسلامية - في مفهومها العام - تمثل الدين الإسلامي كله؛ من عقائد وعبادات وأحكام.. وتطبيقها، والالتزام بها، هي من اختصاص المسلمين عموماً، على مستوى الفرد والمجتمع..

لذلك نرى أنه من الإجحاف بحق الشريعة الإسلامية حصر تطبيقها عن طريق الدولة ومؤسسات الحكم.. ومفهوم تطبيق الشريعة السائد لدى كثير من الإسلاميين، في الوقت الحاضر، يحتاج إلى مراجعة وتصحيح.

مفهوم الإصلاح لدينا، كحزب إسلامي، مفهوم واسع، يشمل إصلاح الفرد والمجتمع والحكومة، بصورة متوازنة، ومتكاملة، في نفس الوقت، والإصلاح السياسي الحقيقي يعتبر العمود الفقري لعملية الإصلاح الشاملة التي نؤمن بها، ونتبناها، في (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، وذلك من خلال العملية الديموقراطية، ودون اللجوء إلى العنف واستخدام القوة

وبناءاً على ذلك، نحن في (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) نرى أن من واجبنا الأساسي العمل على تثبيت المبادئ العامة للشريعة الإسلامية في دستور البلاد، كمبادئ دستورية ملزمة للجميع.. ثم بعد ذلك نعمل على أن تكون القوانين التي تصدر من المؤسسة التشريعية، منسجمة مع تلك المبادئ الدستورية، أو لا يكون هناك تعارض بينها و بين تلك المبادئ، على الاقل. وهذه هي المهمة الأساسية لنا، كحزب سياسي ذو مرجعية إسلامية، فيما يخص مسألة تطبيق الشريعة..

> والشريعة الإسلامية - في مفهومها العام - تمثل الدين الإسلامي كله؛ من عقائد وعبادات وأحكام.. وتطبيقها، والالتزام بها، هي من اختصاص المسلمين عموماً، على مستوى الفرد والمجتمع..
> لذلك نرى أنه من الإجحاف بحق الشريعة الإسلامية حصر تطبيقها عن طريق الدولة ومؤسسات الحكم.. ومفهوم تطبيق الشريعة السائد لدى كثير من الإسلاميين، في الوقت الحاضر، يحتاج إلى مراجعة وتصحيح

- **هل لديكم برنامج جاهز للتطبيق عند وصولكم للسلطة؟ وبعبارة أخرى: ما هو برنامجكم للحكم فيما لو منحكم الشعب أصواته، وثقته؟**

- نعم، لدينا رؤية واضحة، وبرنامج متكامل، ومشروع في مجال الإصلاح السياسي الحقيقي في إقليم كوردستان، وقد قدمناه للحكومة، والبرلمان، في أكثر من مناسبة، في السنوات القليلة الماضية..

وهذا البرنامج يدور، بالأساس، حول إصلاح جذري وحقيقي في النظام السياسي والإداري السائد في الإقليم، والعمل على جعله نظاماً مؤسساتياً محايداً، وإبعاده عن الهيمنة الحزبية المقيتة والمتحكمة في الإقليم منذ أكثر من (٢٥) عاماً.. هذه الحزبية البغيضة، التي

أصبحت بلاء ووبالاً على الشعب والمجتمع.. والتي تعتبر منشأ ومصدراً للفساد المستشـري في مفاصل السلطة، ومؤسساتها، والذي أدى بدوره إلى الأزمة المالية الحاليـة، التـي أنهكـت جسد الحكومة والشعب منذ أكثر من ثلاث سنوات..

وكذلك يهدف مشروعنا السياسي إلى إيجاد سلطة القانون، والشفافية، وتحقيق العدالة في توزيع الثروة العامة، وتنظيم حالة من التوازن بين مؤسسات الحكم، وصلاحيتها، بهـدف الوصول إلى بناء نظام حكم رشـيد، وفـق المعـايير المتبعـة في الـدول المتقدمـة، بمـا يحقـق العدالة والتنمية والرفاهية لكافة المواطنين، وجميع مناطق الإقليم.

- **الأحزاب الإسلامية، وعلى رأسها الاتحاد الإسلامي الكوردستاني، متهمـة مـن قبـل أبنائها ومؤيديها بأنها قـد انحـازت إلى الميـدان السـياسي أكـثر مـن الـلازم، وأنهـا نسـيت الوظيفة الأساسية لها: وظيفة الإصلاح، والدعوة، وهداية الناس؟ ومـن جانـب آخـر: فـإن خصوم الاتحاد الإسلامي يتهمونه بأنـه حـزب يمـارس سياسـة خاصـة، وأنـه أجـدر بـه أن يتحول إلى جمعية إصلاحية، ويمارس عملـه في مجـال مـنظمات المجتمـع المـدني؟ مـا هـو تفسيركم لهذه الرؤية المتناقضة تجاهكم من قبل الداخل والخارج؟**

- الأحزاب الإسلامية التي تنتمي إلى مدرسة الإخوان المسلمين، بصـورة مبـاشرة أو غـير مباشرة، تعمل على إحياء إسلامي شامل، أي إنها تجمع بين العمل الدعوي والتربوي، الـذي يهتم بالفرد والمجتمع، وبين العمل السياسي الذي يهتم بالشأن العام وممارسة السلطة ..

والجمع بين الدعوة والسياسة بصورة متوازنة ومتكاملة، أمـر غـير ممكـن في كثـير مـن الأحيان. وهذه هي إحدى الإشكاليات الأساسية التي تعاني منها الأحزاب الإسلامية، بصـورة عامة.

و(الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) كان - في الأصل - جماعة دعويـة وتربويـة، ثـم تطـور إلى حزب سياسي، يمارس السياسة من أوسع أبوابها.

والعمل السياسي، بطبيعته، خاصة في كثير مـن المجتمعـات الإسـلامية المعـاصرة، والتـي تعاني من أزمات معقدة، فالعمل السـياسي يشـغل بـال الجميـع، و يهـيمن عـلى المجـالات الأخرى بصورة عامة.

وبناءاً على ذلك، فإن تنظيم العلاقة بين الدعوة والسياسـة، أصـبحت إشـكالية أساسـية للأحزاب الإسلامية بدون استثناء، وبضمنها (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني).

و لمعالجة هذه الإشكالية، وإعطاء كل مجال حقه.. نرى أنه من الضـروري العمل عـلى ممارسة العمل الدعوي من خلال مؤسسات شـبه مسـتقلة، أي مؤسسـات غـير حزبيـة، في

إطار مؤسسات المجتمع المدني والأهلي، وتحرير الحزب والعمل السياسي من قيود ومعوقات العمل الدعوي. لأن الحزب السياسي هو الوسيلة الخاصة بالمنافسة السياسية، وممارسة السلطة، والجمع بين الدعوة والسياسة من قبل حزب يمارس السياسة بصورة متوازنة، غير ممكن وغير ناجح.

- **على مدى ما يقارب العقد من الزمان لم تنجح الأحزاب والحركات الإسلامية في الوصول إلى السلطة، إلا بانقلاب عسكري في السودان، ولم تقدم لحد اليوم نموذجاً واضحاً ولا ناجحاً لنوع المجتمع والسلطة التي تسعى إلى تأسيسها وتبنيها.. أين أخفقت الحركة الإسلامية، وأين نجحت؟ وهل يكرر (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) هذه التجربة، ويعيد إنتاجها من جديد؟**

- صحيح أن الأحزاب والحركات الإسلامية لم تنجح لحد الآن في الوصول إلى السلطة من خلال العملية الديمقراطية، ولم تقدم نموذجاً ناجحاً في هذا المجال، خاصة في المنطقة العربية.. غير أنه يمكن اعتبار تجربة الحزب الإسلامي الماليزي، وتجربة حزب العدالة والتنمية التركي، تجربتان ناجحتان، وإسلاميتان، إلى حد ما، لأنهما جاءا من خلفية إسلامية. غير أنهما حزبان سياسيان بامتياز، أي إنهما لا يمارسان الدعوة والعمل الديني، كما هو حال الأحزاب والحركات الإسلامية في المنطقة العربية. باستثناء حزب العدالة والتنمية المغربي، الذي نجح كذلك - إلى حد ما - لأنه يمارس السياسة فقط، من دون الاشتغال بالدعوة والعمل الديني ..

وبناءاً على ذلك، صحيح أن الأحزاب والحركات الإسلامية لم تنجح في تقديم نموذج حكم ناجح، أي إنها أخفقت في مجال السياسية والحكم، غير أن هذه الأحزاب والحركات نجحت في مجال العمل الدعوي والتربوي والخيري، وإعادة الثقة بالإسلام كمنهج للحياة والإصلاح بصورة عامة.

أما فيما يخص (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني)، فعليه الاستفادة من جميع تلك التجارب، وإن لا يعيد التجارب الفاشلة، بل عليه الاستفادة من التجارب الناجحة قدر الإمكان❐

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

عبد الباقي يوسف

abdalbakiuosf@gmail.com

يقول الله عز وجل: [**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**]سورةالأعراف،الآية٥٨.

[**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ**]، الطيّبون الذين يعيشون في بلدٍ، فيتطيَّب البَلَدُ بِطِيبهم، ويصبح طيباً، والإنسان الطيّب حيثما تَواجَد، تطيَّب الناس من طيبه، فإن كان في بيت متواضع، ترك الناس قصورهم كي يزوروه، لأنهم يستشعرون بالراحة والسَكينة والنقاء، فيتطيّبون بالتقرّب إليه، والحديث معه. فالإنسان الطيّب هو خير طبيب نفسي لأولئك الذين فَتَكَت بهم أوبئة الحياة المادّية. فالطيّب هو في الوقت عينه طبيب للنفس، يكون قد طَيَب نفسه أولاً، فأصبح طيباً، ثم إن بعض الناس يشعرون بالراحة والتنفيس عن الكَرب، والتفريج عن الهَم، وهم ينظرون إليه، أو يُجالسونه، أو يتحدّثون إليه.. فتبيّن لك الآية بأن هؤلاء قد خَصّهم الله تعالى برزق طَيَب مُبارَك، وهذا الرزق المُبارَك، ليس بوسع أحد - كائناً مَن كان - أن يمسكه عنهم.

[**وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**]. جاء العطف في [**وَالَّذِي**]، ليبيِّن بأن الطِيبَ إن خَرَجَ عن طِيبه، أصبح خبيثاً، وبالتالي ما يصيب الخبيث، سيصيبه كذلك، فعليك أن تكون متمسّكاً بالطيب، ومداوماً عليه، فكما أنك تريد أن يديم الله في بركته عليك، فعليك أن تلبث مداوماً على الطيب، وتسعى إلى التقدّم فيه.

وجاءت كلمة [**الطَّيِّبُ**] شاملة كل ما هو طيِّب، فإن كنتَ كريماً، أكرمك الله بأكثر مِمّا أكرمتَ به، وإن كنتَ عفوّاً، عفا الله عنك بأكثر مِمَا عفوتَ به.

[**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**]. هكذا جاء الحسم الإلهي في هذه المسألة قولاً

فصلاً واحداً، وهو عهد من الله للإنسان. [**وَ**]في الجانب الآخر: [**الَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**].

النَكَد هو المنزوع البَرَكة، الذي يفتقد إلى مسك الطيب، لا يستمتع الإنسان بـه. ولا يقتصر النَكَد في الطعام، فقد يكون هذا الشخص الخبيث في بلـد طيـب، أو يُـدعى إلى وليمة لتناول الطعام في بيت شخص طيـب، لـبعض عوامـل القرابـة، أو الجـوار، أو مـا شابه، فالعَطَب سيكون في معدته، التي لا يشاء الله تعـالى لهـا أن تهضـم طعامـاً طيبـاً بيسر، أخرَجَه للطيبين، ثم إنه لايتلذّذ بتناول الطعام، بـل يلتهمـه كـما تلـتهم الـدواب العلف، فإذن عاقبة ذاك الطعام لن تكون محمودة بالنسـبة للشـخص الخبيـث الـذي تناوله، بل ينكّد عليه يومه، حيث تتعسّر معدته بهضمه، فيبقى يعاني اضطرابات سوء الهضم، حتى تخرج آثار ذاك الطعام الطيـب مـن بَدَنـه الخبيـث. ونقـيض ذلـك، فـإن الطيّب يسوق الله رزقه الطيّب المُبارَك حتى لو حلّ النَكَـدُ عـلى البلـد كلـه، فيُسـتثنى الطيّبون من ذلك، فهو عهد الله في قول حاسم واحد: [**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ**].. فلا شيء يمكن له أن يحـول بـين إيصـال هـذا الـرزق الطيّـب إلى ذاك الشـخص الطيّب، حتى لو قذفت به الظروف إلى خيمة في بقعة أرض مهجـورة، في حـين إن ذاك الخبيث حتى لو كان في قصر، وكل ألـوان الطعـام والشــراب متاحـة لـه، فإنهـا تكـون [**نَكِداً**]عليه، فلا يستطيع أن يتناول قطعة حَلوى، لأن نسبة السكر المرتفعة في دمـه لا تسمح له بذلك. ولا يستطيع أن يستمتع بتناول الأطعمة الدسمة، لأن نسـبة الشـحوم الثلاثية والدهون لا تسمح له بـذلك. ولا يسـتطيع أن يـنعم بالمكيّفـات، سـواء في حـرّ الصيف، أو برد الشتاء، لأن التهاب قصبات المجاري التنفسـية لا يسـمح لـه بـذلك. ولا يستطيع أن يستمتع بنوم عميق، لأن دورته الدموية المضطربة تفرض عليـه أن يـنهض ويمشي بضع خطوات، وإذا تجاوز تمدّده في الفراش أربع ساعات، فـإن ذلـك يجعلـه في خطر وهو نائم. وهو منصوح من ضمن نصائح الأطباء بـأن يتجنّـب الضـحك بطلاقـة، لأن الانفعالات، السلبية أو الإيجابية، قد تـؤدّي إلى مـا لا يُحمَـد عُقبـاه بسـبب بعـض الاضطرابات في جملته العصبية. وإلى ما شابه بما ينكّد على هذا الخبيث كـل مقوّمـات حياته، رغم كل ما تبدر عليه من مظاهر رَغَد العَيش.

[**كَذَلِكَ نُصَـرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**]. فأمام هذه الحقيقة، يزداد الشاكرون شكراً لله، ويتقدّمون في مراتب الطيب، ويتجنّبون مواضع الخبث ❐

دراسات

- آراء العلامة (ناصر سبحاني) حول فهم التصورات والقيم الدينية	د. عمر عبد العزيز
- منهج الوسطية الإسلامية في فهم الواقع	د. دحام الهسنياني
- تاريخ الصراع على مدينة (القدس)	د. فرست مرعي
- الإعلام المسيّس واستراتيجية التلاعب بالعقول	سعد الزيباري
- التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي	سالم الحاج

آراء العلامة (ناصر سبحاني)
حول فهم التصورات والقيم الدينية

د.عمر عبدالعزيز

تنويه:

كلفتني إدارة مجلة الحوار أن أكتب حول المشروع الفكري للعلامة الأستاذ (ناصر (سبحاني) رحمه الله، الذي وفقني الله لرفقته حوالي تسع سنوات، ولقد اخترت العنوان أعلاه، كونه يمثل المنطلق الفكري للمرحوم، وسوف أعرض ــ بمشيئة الله ــ بعض تصوراته ورؤاه، في حلقات، تتضمن الحديث عن: أسس التصورات الدينية من منظور العلامة (سبحاني)، ورأيه حول المذاهب الفكرية والعقدية، وفي علم الكلام والمتكلمين، والفلسفة والفلاسفة، وكذلك رأيه حول أسس القيم الدينية، ومصادر معرفة الإنسان في نظره.. وبالله التوفيق.

مدخل عام

في بداية عرض التفاصيل تلك، لا بد من ذكر حقيقة سيكون للاطلاع عليها تأثير كبير على معرفة شخصية الأستاذ (سبحاني) وتميّزه، وهي: أنه لم يحدث له أي تغيير فكري مفاجئ في حياته، كما يتبادر إلى ذهن من قرأ ترجمة حياته بسطحيّة، بل من المؤكد أن فكره قد تبلور عقب تأثيرات وتراكمات بيئية وسياسية واجتماعية.. فولادته من أبوين صالحين، وترعرعه وسط عائلة ملتزمة، ونشأته في الريف الكوردي، حيث نزاهة الفطرة، وبراءة الفكرة، ونقاء السريرة، وروعة الخلق، من جانب، وظلم الحكم المحلي، وانعدام العدالة الاجتماعية، وتخلّف المؤسسات العلمية، من جانب آخر، وتبعات التطورات السياسية المتراكمة في حياته، من جانب آخر، كل ذلك قد أثر في صياغة شخصية (سبحاني)، وتركيبة فكره، وتصوراته..

ولقد اتسم فكره بالعمق والأصالة في المنهج، و(الأكاديمية) والمعاصرة في الأسلوب، كما تميّزت أبحاثه ودراساته وتناولاته، بالتجديد والجرأة، نوعاً وكيفاً، والتنوّع والكثرة، كمّاً ومقداراً.. لذا لا أظن مفكراً، في بلد كإيران، ستثير أفكاره جدلاً وسجالات في الأوساط العلمية والثقافية كـ(ناصر سبحاني)، الذي لم يُعرف كما هو لحد الآن، وأرجو أن يُعرف جانب من قدره بعد نشر هذه المقالات، متزامناً مع نشر عدد من نتاجاته الفكرية.

إن أفكاره ونظرياته - بكل تأكيد - ستقوّي وتغذي الجهود النقدية، وستفتح آفاق التجديد الفكري للكثيرين، على الأقل في المحيط العلمي الخاص ببيئته، أو لدى من سيقرأ عنه، ويتعرّف عليه، خاصة في الإطار الفكري الذي رسمته بصماته، والمجالات الثقافية التي تناولتها دروسه ومحاضراته. وأنا على يقين بأن الكتابات والأبحاث حوله- سواء تأييداً ودعماً ومناصرة، أو رداً ونقداً واعتراضاً- ستنهال عليه، وأن الحديث حول نظرياته سيتصدر مجالس أهل العلم والتحقيق، لا سيما إذا لم تتم الإحاطة بفكره، ولم يتم التعرّف عليه كما هو.

وسأتناول - بإذن الله -، في المقالات التي عزمت على تحريرها، نظرياته في ستة أمور مهمة جدّاً، تتعلق بصلب التصورات والقيم الدينية، بدءاً بتوضيح أسّ التصورات عنده، ورأيه حول المذاهب الفكرية، والعَقَديّة، ومروراً برأيه في الفلسفة والفلاسفة في الأمة الإسلامية، وعلم الكلام والمتكلمين، وانتهاء برأيه حول أسس القيم الدينية، ومصادر معرفة الإنسان، كما استقرأها هو من وجهة نظره القرآنية.

أساس التصورات الدينية في فهم العلامة (سبحاني)

أولاً/ منهجيته في تناول موضوع التصورات الدينية:

أستطيع الجزم بالقول بأن الأستاذ (سبحاني) قد انفرد- سواء من حيث الفهم والتصور، أو من حيث التناول والعرض والدراسة، والتأصيل القرآني- في تناوله لتحديد أسّ التصورات الدينية، فهو- رغم دراسته التقليدية في المدارس الشرعية في قرى (كوردستان)- أستاذ في عرض مسائل العقيدة، برؤية قرآنية أصيلة، يزيّنها أسلوب عصري ممتاز.

أما رؤيته فواضحة بعيدة عن الضبابية والغموض، وأما أسلوبه فمبسط بعيد عن التعقيد، على خلاف كثير مما ورد في كتب علم الكلام، وأحاديث المتفلسفين، والمتكلمين.

وكان هاديه وبرهانه- فيما وصل إليه، في ذلك المجال وغيره- كتاب الله سبحانه، بالدرجة الأساسية. لقد كان- رحمه الله- شديد التمسك بالاستشهاد بقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الأعراف/٥٤. ويرى أن هذه الآية- التي تحصر مهمة الخلق والأمر في الكون، في الذات الإلهية- توضح أساس التصورات والقيم الدينية. والأولى أن ندعه يشرح لنا هذه الحقيقة. يقول- رحمه الله- بالنص: "إن مما لا يماري فيه من له بالدين علمٌ، أن أساس التصورات والقيم الدينية، العلمُ بأن ربنا تعالى: (له الخلق والأمر) الأعراف/٥٤، فعلى ذلك تنبني، وإليه ترجع، كل تصورات المؤمن عن الله سبحانه والكون والإنسان والحياة، تلك التصورات التي قد هداه الله إليها، وكل قيمه التي قد جعلها الله له موازين يرجع إليها، فيما يَعرف وينكر، ويحبّ ويبغض، ويأتي ويذر. ومن ذلك- أيضاً- يجب أن ينطلق في البحث عن كل موضوع من المواضيع الدينية، وإليه ينبغي أن ينتهي، وإلا فإنه من الجهل يكون الانطلاق، وإلى الجهل يكون الانتهاء.."(١)

(١) ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، السليمانية (العراق)، مؤسسة برهم، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص: ١٤. وأكد على المفهوم نفسه في: **أسس التصورات والقيم**، ص: ١١، وأماكن كثيرة من رسائله ودروسه.

أما كيف يحصل الإنسان على التصورات عن الله - سبحانه - والكون والإنسان والحياة؟ وما هو الطريق إليها؟ فيقول في توضيح ذلك: "أما التصورات، فالطريق إليها الحياة في ظلال القرآن، حيث لم يترك كتاب الله صغيراً أو كبيراً إلا وجاء فيه ما ينبغي من البيان، فلم يبق للإنسان - من ثمة- إلا أن يلقي السمع إلى الهدى، يبيّن له كل ما لا بد لمن يريد أن يعبد الله حق عبادته أن يعرفه ويؤمن به"([٢]).

هكذا جعل (سبحاني) من كلام الله نبراساً أمامه، رافضاً أساليب المتكلمين- فضلاً عن المتفلسفين- المتأثرين بالمناهج اليونانية القديمة فيما يتعلق بالتصورات حول الكون والحياة والإنسان. وسأتناول، فيما يلي من المقالات، هذه الأمور بشيء من الإيضاح بإذن الله، بنقل تصور الشهيد مباشرة تجاه تلك الأمور، وعرض موقفه الرافض للمناهج الفلسفية والكلامية التي أشرنا إليها.

ثانياً/أساس التصور الديني حول الله سبحانه والإنسان والكون والحياة:

لقد حاول العلامة (ناصر سبحاني) أن يستجمع، عن طريق الاستقراء المباشر، جميع الآيات التي تتعلق بـ(الخَلْق)، ثم جميع الآيات التي تتعلق بما سماه القرآن بـ(التسوية) و(التقدير)، ثم (الهداية)، ومعاني كل منها، ليرسم خطوات ومراحل عملية الخلق، وما يليه في الكون والحياة، كمقدمة لوضع تصور ديني (قرآني) حول الإنسان، ووظيفته الأساسية في هذا الكون. يقول (سبحاني) - باختصار وتركيز- حول هذا الموضوع:

"أراد الله - تعالى- أن تكون سماوات، وأرض، وأشياء بينهما، وهو عالم بتصميم ما أراد. فبدأ بتكوين المادة الأولى، فقال للماء: كُنْ، فكان. ثم جعل من ذلك الماء ما قد سمّاه الدخان. ثم خلق من ذلك الدخان السموات والأرض، وما بينهما، أي عيّن لكل سماء، وكل شيء قدراً، - وعن هذا يعبّر بعبارة (خلق) في أصل الوضع، و(برأ) – أيْ: فصّل، بسنن وضعها- مادة كلٍّ كما قدّر، و(صوّر) كلاً بصورة، و(سوّاه)، أي جعله مستوياً، هو وما كان في علمه من التصميم. و(قدّر) كلاًّ، أي أعطى مادته قدراً من القوة، والخاصية، تصير به إلى ما أراد. وبعد أن أعطى ربنا الذي له الخلق كلّ شيء خلقه، (هدى) كلاًّ، وبيّن له سبيلاً يسلكها، لا يعوقه عن سلوكها غيره، بل لا يكون بالسالكين- وهم من الكثرة بحيث لا يحصيهم إلا الله- إلا التعاون في المصير إلى الله. فإن صيرورة كلّ مخلوق، وحركته، التي يريدها الله- تعالى- منه، ليست إلا أمراً ناشئاً عمّا قد أعطي من الخلق، ولم يُعطَ مخلوق من المخلوقات من الخلق إلا ما يتناسق وسائر المخلوقات، مما لا يتأتى منه غير تعاون

٢ ناصر سبحاني، **الابتداع في الدين**، السليمانية، مؤسسة برهم، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص: ١١.

السالكين الصائرين. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}الحشر-٢٤، وقال: {الذي خلق فسوى. والذي قدّر فهدى} الأعلى/ ٢ – ٣"([٣]).

ولا شك في أن (سبحاني) استند على القرآن الكريم في إثبات هذه القضايا التي أوردها، بدءاً بـ(الخلق)، وانتهاءً بـ(الهداية). فلقد ورد ذكر الخلق في أكثر من مائتي موقعاً في القرآن، معظمها لإثبات خالقية الله، وأن الله سبحانه: (يبدأ الخلق)، الآيات: (٤) و (٢٤) يونس، و(٦٤) النحل، و (١١)و (٢٧) الروم)، وآيات أخرى بصيغ أخر، تؤكد على القضية نفسها، كقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}العنكبوت/ ١٩، وقوله: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}العنكبوت/٢٠، وقوله: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ}السجدة/ ٧ وغيرها.

يقول العلامة (سبحاني)، في سياق قصة خلق آدم عليه السلام: "لما شاء الله- سبحانه- أن يخلق الكون، قدّر بعلمه ما قدّر، تقديراً يناسب عظمته، ويناسب عملية الخلق الذي أراده.. ثم قضى ما قدّر، أي نفّذ العملية، فبدأ بخلق المواد الأولى، ثم خلق ذرات الكون، والسموات والأرض، وما بينهما، كل ذلك في ستة أيام- أي في ست مراحل زمنية خاصة، وليست كأيامنا- يوضح القرآن نفسه هذا في بعض آياته، فيقول مثلاً: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} الحج/ ٤٧، والألف أيضاً للكثرة، لا للتحديد([٤]). ثم خلق الله الإنسان في اليوم الأخير- أي المرحلة الزمنية الأخيرة- وهذا دليل على أن الله هيأ للإنسان، وحضّر له كل المستلزمات التي تتطلبها مهمة الخلافة التي أنيط الإنسان بها([٥]). أما بدء الله ـ سبحانه ـ بتكوين الماء (المادة الأولى)، فمستنده فيه قوله ـ تعالى ـ : {هوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا

---

٣ المصدر السابق: ص: ١٤.

٤ فسر القرطبي اليوم- في الآية- بأنه ".. ليس بيوم يستوعب نهاراً بين ليلتين، لأن ذلك ليست عند الله، والعرب قد تعبّر عن مدة العصر باليوم". وما قاله العلامة (سبحاني) قريب من هذا. انظر: القرطبي، أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ٨٨/١٤.

٥ ناصر سبحاني، **دروس حول قصة آدم عليه السلام**، (صوتيات في ٨ ساعات). سنندج (إيران)، ١٩٨٥م.

يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}الحديد/٤، مرتبطاً بقوله في آية أخرى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}هود/٧، فهذه الآية الثانية تؤكد أن خلق الماء قد سبق خلق السموات والأرض، حيث كان عرشه ـ جلّ وعلا ـ عليه، كينونة لا يعلمها إلا هو، فضلاً عن آيات أخر تؤكد أسبقية الماء، كقوله ـ تعالى ـ : {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} الأنبياء/٣٠، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ} النور/٤٥.

أما دليله على أن السموات خُلقت من الدخان بعد الأرض، فقوله - تعالى-: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}فصلت/٩، إلى قوله بعد ذلك: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}فصلت/١١-١٢([٦]). ودليله على أن الله قد هدى كل ما خلق، وبيّن لكل مخلوق سبيلاً يسلكها، فآيات كثر، منها قوله –تعالى-:

---

٦ حول أصل الكون، وخلق السموات والأرض، ومنشئهما، وحقيقة الماء والدخان، تقترب النظريات العلمية من الإشارات القرآنية إلى حد كبير. فحول منشأ الماء، هناك نظرية علمية تفيد بأن الماء أتى إلى الأرض من خارج الكرة الأرضية، من خلال تفاعلات بين جسيمات ذات طاقة تحتوي على ذرات (هايدروجينية)، مع (ألكترونات) في جو الأرض، حيث يتصور العلماء الطبيعيون بأن المحيطات تشكلت على إثر ذلك. قال الله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} المؤمنون/ ١٨. ونظرية أخرى ترى أن الماء أرضية المنشأ، نشأ إثر انصهارات حدثت بعامل حرارة التفكك الإشعاعي. (ينظر للمزيد: يوسف الحاج أحمد: **موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة**، دمشق، دار ابن حجر، ط٢، ٢٠٠٧م، ص: ٣٠-٤٣١). والنظرية الأولى قريبة مما قاله معظم المفسرين في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ..} هود/٧، نقلا عن ابن عباس من" أن الماء كان على متن الريح". ينظر مثلاً: الطبري، في تفسيره: **جامع البيان**،١٢/٥، والقرطبي، في **الجامع لأحكام القرآن**، ٨/٩، والزمخشري، في **الكشاف**، بيروت، دار المعرفة، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص: ٤٧٧، وابن الجوزي، في تفسيره: **زاد الميسر**، بيروت، وابن حزم، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٦٤٣.

أما حول نظرية الخلق عموماً: فاتضح من خلال دراسة طبقات الأرض والمتحجّرات - في العقود الأخيرة- أن كل الكائنات الحية قد ظهرت في وقت واحد، فلقد ظهرت الكائنات الحية - التي اكتشفت في طبقة العصر الكاميري- فجأة في سجل المتحجرات، أي ليس لها أسلاف سابقون، مما يفنّد نظرية التطور بالكامل. ينظر لذلك: هارون يحيى، **خديعة التطور**، دار آرامشتر، إسطنبول، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٨.

{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}فصلت/١٢، وقوله: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}الفرقان/ ٢، وقوله جل جلاله: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ}الأعلى/١-٣([٧]).

إن حقيقة إثبات خالقية الله للكون، وما فيه من الحياة والمخلوقات، ترد النظرية المادية التي تعد أقدم نظرية تاريخية شغلت أذهان الناس قروناً، هذه النظرية العقيمة التي تدّعي أزلية المادة جزافاً، ودون أيّ سند علمي. وكذلك تردّ وتنقض نظرية التطور - التي روّج لها الملحدون عقوداً وملئوا بها المناهج الدراسية-، أمام الحقيقة القرآنية التي تثبت حداثة المادة، ومخلوقيتها. فالقوانين الفيزيائية والكيميائية الحديثة - قاطبة - تعارض النظرية المادية من الأساس، فلقد عجز العلم الطبيعي - بكل أقسامه، وجميع مختبراته، وأعاظم أنصاره - عن تفسير سرّ الحياة في خلية واحدة، لأيّ كائن حي، وعجز عن شرح كيفية تشكل (بروتون) واحد، فضلاً عن أسرار الإنسان المدهشة، وسعة الكون اللامتناهية، وما فيه من أسرار قد عجزت العلماء عن إحصائها وعدّها.

ولقد "أجريت حفريات وتنقيبات كثيرة جداً، منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن، ولكن لم يعثر على أي من هذه الأشكال الانتقالية التي تتخمنها النظرية الداروينية. وقد أثبتت المتحجرات، التي تم الحصول عليها نتيجة الحفريات، عكس ما كان يتوقعه الداروينيون"([٨]).

ولو طالعنا الحقائق العلمية، التي أكّدتها التجارب المختبرية والمشاهدات العلمية - لا سيما في العقود الأخيرة - كنظرية التمدّد الكوني، وسعة الكون وسرعته، أو كجاذبية الأرض، وقوتها، وما فيها من أسرار الجبال الشاهقة، والبروج السماوية العالية، والمحيطات الهائلة، وتأثيرها على حفظ توازن الكرة الأرضية، وحركة النجوم، والشموس، ومداراتها، ودقة التوازن في المجموعة الشمسية، أو سرّ الحياة في الخلية الحية، وأسرار الحامض النووي (D.N.A)، الذي أدهش العلماء، وكذلك مثل الانسجام المذهل بين (الألكترون) و(البروتون)- لو طالعنا تلك الحقائق المليئة بالدقة والجمال والنظام والكمال، لتيقّننا بأن التصور الديني، الذي لخّصه (سبحاني) فيما نقلناه، هو وحده التصور الصحيح تجاه الكون

[٧] ناصر سبحاني، **دروس حول قصة آدم عليه السلام**، (في٨ ساعة). سنندج (إيران)، ١٩٨٥م.

٨هارون يحيى، **الروعة في كل مكان، أسطنبول**، دار نشر آرامشتر، ٢٠٠٣م، ص: ١٣٤.

الرحب وما فيه، ولرأينا مصداقية قوله سبحانه: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}الملك: ٣ – ٤.

ثالثا/ التصور الديني حول الإنسان ووظيفته في الكون:

أما التصور الديني حول الإنسان - في نظر العلامة (سبحاني)- فهو أنه من نوع المخلوقات التي أعطيت قدرتين عظيمتين، تتمثلان في قوتي (العلم) و(الإرادة)، واللتين بهما يتميز الإنسان عن المخلوقات الأخر التي لم تعط ذلك. يقول في ذلك: ".. بعد أن بيّنا المراد من قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}، مشيرين إلى أن (الخلق) هنا مستعمل في جميع ما ذكر من تعيين (القدر) و(البرء) و(التصوير) و(التسوية) و(التقدير)، وأن (الأمر) عبارة عما عُبّر عنه في بعض الآيات بـ(الهداية)، نقول: إن أمره - تعالى- على قسمين: فإنه - تعالى- جعل المخلوقات في عطاء القدرات فريقين: فريقاً لم يعط أحد منها- فيما أعطاه- قوة يتصور بها أكثر من سبيل واحدة، أو يختار بها واحدة من السبل المتصورات، أيْ لم يعطه علماً ولا إرادة. وفريقاً جعل لهم قوة العلم وقوة الإرادة. فأما ما ليس متحلّياً بالقوتين، فليس أمره إلا أمر تكوين وتسخير، وأما ذوو العلم والإرادة- وهم قليل مما خلق، ومنهم البشر- فمع كونهم مشتركين مع الأولين في كونهم مأمورين- فيما لا يتعلق بالعلم والإرادة- أمر تسخير، يكونون مخاطبين- في دائرة العلم والإرادة- خطاب تشريع، ومأمورين أمر ابتلاء، (وكما يعبّر عن مطلق الأمر بالهداية، يعبّر عن أمر التسخير، بالهداية التسخيرية، وعن أمر الابتلاء بالهداية التشريعية)(٩). أما عن كيفية قوة العلم لدى الإنسان، ومم تتكون؟ وقوة الإرادة لديه، وماهيتها، وأين تقف من قوة العلم؟ فالحديث عنها- لدى (سبحاني)- ذو شجون، وستكون لنا عودة في إلقاء الضوء عليها في مقال خاص، إن شاء الله.

وحول خصوصيات مخلوقات الكون - ومن بينها الإنسان- يقول العلامة (سبحاني): "لما خلق الله الذرات الأولية للكون، أعطى لكل عنصر منها مهمات خاصة به، لكي يتحرك نحو الكلام وفق تلك السمات والخصوصيات. فمثلاً: أعطى خصوصية لعنصر (الأوكسجين) و(الهايدروجين)، بحيث إذا التقى ذرتان من الثاني، مع ذرة عنصر من الأول، في ظروف خاصة، ينتج عنهما عنصر جديد أكمل منهما، وهو (الماء). وهكذا تكوّن من مكونات العناصر الأساسية جميع أنواع المعادن والمخلوقات في الكون، إلى أن استقرت الأرض على ما هي عليه من الحالة القائمة، وبقي للإنسان أن يقوم بدوره لإعمارها. فمثلاً: لم تبق مرحلة

٩ ناصر سبحاني، **أسس التصورات والقيم**، ص: ١٦.

أخرى لمادة مثل (البترول)، النفط الخام الذي في جوف الأرض، كي يتحوّل إليها، بمعنى أنه لو بقي النفط الخام آلاف السنين، فلا تتحول من تلقاء نفسها إلى مادة أخرى أكثر تطوّراً، كأن يصير مادة (بلاستيكية) مثلاً. وكذلك الحال بالنسبة للحديد، وغيره من المعادن.. ثم، لما كان لله الخالق سبحانه الكمال المطلق، فلا بد أن يتحلى مخلوقه، المأمور بخلافته، بالكمال المناسب له. وفي هذا المقطع والسياق من عمر الكون، خلق الله الإنسان موكلاً إليه مهمة الاستمرار في عملية التقدّم نحو الكمال، بما أودع فيه من القوى والاستعدادات، وهيأ له المستلزمات في ذاته، جسماً وروحاً وإرادة"(١٠).

ولقد ذكر الله، في سورة البقرة، ذلك التسلسل الزمني، وتلك المراحل، بوضوح، لما قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[البقرة/٢٩]، وقال سبحانه بعد ذلك مباشرة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ ما لا تعلمون}[البقرة/٣٠] "١٠

واستكمالاً لرؤيته حول خلق الإنسان، وبالتالي تحديد تصوّره المستنبط من القرآن حول أول بشر خلقه الله، وهل كان قبل (آدم) - عليه السلام - جنس آخر من البشر، أو شبيه له، أرى من الضروري نقل جانب مما قاله (سبحاني) في هذا الموضوع، على ضوء بعض الآيات القرآنية. قال رحمه الله: "ظاهر القرآن يوحي بأنه لم يكن هناك جنس آخر من نوع البشر قبل آدم، بالخصوصيات الموجودة الآن في بني آدم. كما أن ظاهر القرآن لا ينفي- في الوقت نفسه- وجود نوع آخر من البشر، ولكن بخصوصيات غير خصوصيات هذا الإنسان من ذرية آدم". أما حول ما يقال بأن قول الملائكة: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة/٣٠]- في سياق ذكر جعل الله خليفة له في الأرض- دليل على أنه كان هناك نوع آخر من جنس البشر قبل آدم، وإلا كيف علموا أن الإنسان سيقوم بالفساد وسفك الدماء.. فيعالجه الشهيد (ناصر) بسهولة بالغة، قائلاً: "لدرك أية حقيقة في القرآن الكريم، لا بد من استجماع كل الآيات التي تتحدث عن تلك الحقيقة المبتغاة. ولقد ذكر الله قصة خلق آدم عليه السلام في سبع سور في القرآن الكريم"([11]).. وذكر في تلك السور أنه سيخلق بشراً من طين، وأنه ينفخ فيه من روحه، مما

١٠ ناصر سبحاني، **دروس حول قصة آدم وخلق الإنسان،** (٨ ساعة).

١١ الصواب أن ذكر آدم عليه السلام، وقصته، قد ورد بصورة مباشرة - أي بذكر كلمة آدم- في تسع سور، هي: البقرة، وآل عمران، والمائدة، والأعراف، ومريم، والإسراء، والكهف، وطه، ويس. عدا ما ورد عنه في سور أخرى من دون ذكر اسم آدم، كسور: الحجر، و ص، والسجدة، وغيرها.

ينبئ بأنه – سبحانه - قد تحدّث مع الملائكة عن طبيعة هذا المخلوق الجديد الذي سيتكون من الجسم والروح. ومن هنا استنبط الملائكة أن طبيعة ذلك المخلوق ليست نورانية مثلهم، بل أنه فيه من الخصائص المادية التي قد تجعله يفسد ويسفك الدماء"([12]).

ولقد استخلص (سبحاني)- بعد عرض استقرائي لحقيقة الخلق- تصوّره عن الكون قائلاً: "هكذا جاءت السموات والأرض، وما بينهما، جهازاً واحداً، متعدد الأجزاء، متكاملاً، لكل جزء من أجزائه المسخّرة حركة تناسبه في خلقه وبرئه وتصويره وتسويته وتقديره، وتتناسق -كذلك- مع حركات سائر الأجزاء (وذلك أنه لم يُعطَ جزء من الأجزاء من القوة إلا ما يناسب ما أعطي غيره، وحركة كل جزء ناشئة من قوته، ولا تكون الحركات الناشئة من القوى إلا متناسقة)، حركة إلى مصير، يتكون منه ومن مصائر سائر الأجزاء، مصير جهاز هذا الكون المتألف المتّوحّد"([13])..

رابعاً/ ركائز التصور الإسلامي في تحديد العلاقة بين الإنسان وغيره:

حول تنسيق العلاقة بين الإنسان وغيره، ونوع العلاقة بين الله الخالق الآمر سبحانه، والإنسان المخلوق المأمور، من جانب، والحكمة من حياته، وعلاقته مع الكون الذي حوله، من جانب آخر- رأى (سبحاني) - من خلال عملية استقرائية قام بها - أن التصور الإسلامي يرتكز على أربع ركائز، هي: "١-علاقة الإنسان مع الله ٢- علاقة الإنسان مع نفسه ٣-علاقته مع الكون ٤- تصوره لمفهوم الحياة".. وتوضيح ذلك كما يلي:

١ـ إن العلاقة بين الله والإنسان ترتكز على قاعدة أن الله هو الخالق الآمر، وأن الإنسان هو المخلوق المأمور، بناء على ما ورد في قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[الأعراف/ ٥٤]، وذلك بالعبودية الخالصة لله سبحانه، وهي- كما عرّفها العلامة (سبحاني)-: "إطاعة أمر الله في استخدام ما قد وهب من القوى والطاقات، واستعمال ما قد آتى من النّعم والأسباب"([14]). ثم بعد العبودية تلك، تأتي الاستعانة، التي هي الشطر المكمل لما على الإنسان تجاه ربّه.

٢- أما علاقة الإنسان مع نفسه: فتنبني على أساس أنه بما أن هناك عنصرين في داخل الإنسان، وهما عنصرا الخير والشر، فلا بد للإنسان- بعد أن اتضحت له كلتا القوتان، ولكي تنمو فيه قوة الخير، وتخبو فيه صفات الشر- أن يسعى لتزكية نفسه، كي تتغلب قوة الخير

١٢ ناصر سبحاني، **دروس حول قصة آدم وخلق الإنسان**، (٨ ساعة).
١٣ ناصر سبحاني، **الولاية والإمامة**، ص: ٢٠.
١٤ المصدر نفسه، ص١١٤.

فيه على قوة الشر، وبذلك تتصف بالصفات الربانية. إذاً علاقة الإنسان مع نفسه ترتكز على (التزكية)، بمعنى تخلية نفسه من آثار قوة الشر، وتحليتها بالصفات الحسنة.

٣- أما علاقة الإنسان بالكون: فترتكز على أساس أن جميع ما في الأرض، وما في السماوات، مسخّر لخدمة الإنسان، لكي يقوم بواجب الخلافة المنوطة به. (من هنا يتبين خطأ بعض المقولات التي وفدت إلى مجتمعاتنا من الغرب، كقولهم: (غضب الطبيعة)، أثناء حدوث بعض الكوارث، أو مقولة (قهر الطبيعة)، أثناء بعض الانتصارات العلمية أو الاكتشافات المهمة، كأنه هناك صراع بين الإنسان والكون، فيغلب الإنسان الكون أحياناً، وأحياناً يغلبه الكون. بينما يؤكد القرآن الانسجام التام بين الكون والإنسان، لكي يستفيد الإنسان مما فيه لأداء مهمته.

٤- أما التصور القرآني لمفهوم الحياة: فيعني أن الإنسان مكلف بواجب الخلافة في حياته. والخلافة تعني: تلقي المنهج الإلهي، والالتزام به- سواء فيما يتعلق بنفسه، أي: فيما يتعلق بتزكيته، أو فيما يتعلق بالأرض، بإعمارها. هذه هي الحياة (في التصور القرآني)، وبهذا يكون للإنسان الجزاء الحسن، إن التزم بذلك، والعقاب، إن لم يلتزم به. وبعبارة أخرى: مفهوم الحياة يساوي الابتلاء الذي يخلف عُقْبَيَيْنِ لا ثالث لهما: إما الثواب، وإما العقاب"([١٥]).

وإلى لقاء آخر، ومقال جديد حول رأي العلامة (سبحاني) في المذاهب الفكرية والعقدية، وحركة ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية، ونشوء الفِرَق في التاريخ الإسلامي، وملابسات نشوئها، وموقف العلامة (سبحاني) من الحكم على الفرق والمذاهب❐

١٥ ناصر سبحاني، **(دروس حول قصة آدم وخلق الإنسان)**، (٨ ساعات).

منهج الوسطية الإسلامية في فقه الواقع

- القسم الثاني -

د. دحام إبراهيم الهسنياني

لقد تميّزت الأمّة الإسلامية بخاصية منفردة لم تكن لأمة من الأمم السابقة، وهي ميزة الوسطية، التي جعلها الله ﷻ خصيصة لأمة محمد ﷺ، في القرآن الكريم، في قوله ﷻ: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

ولفظ (وسط) يعبّر عن معنى جديد في الأديان، وخلق سام في الدين الإسلامي[٢]، لأن من أهم خصائص التجربة الإسلامية في التاريخ هي: (الوسطية)، وهي الحقيقة التي تتجسد فيها الأصالة، التي يتحتم على المجتمعات الإسلامية الاحتماء بها في صراعها ضد أعدائها الساعين إلى القضاء عليها.

وأما الوسطية، فهي خط تجميع لا تفريق، وخط بناء لا هدم، يحاول أن يجمع ما استطاع، ويقف في الوسط، ولا ينحاز لجانب. وصفة الوسطية في هذه الأمّة، هي ميزانها الدقيق، ومعيارها القويم، الذي يستوعب الحياة بمستجداتها، والناس بأفكارهم وأنماطهم الحياتية، وأسلوب تعايشهم، وتباين علاقاتهم، ليجعل منهم أمة واحدة؛ إطارها العام الإسلام، بما يحويه من رأفة ورحمة وعفو وتسامح، مستوحى من قول الله ﷻ: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[٣]، والنبي محمد ﷺ يقول: (إنما أنا رحمة مهداة)[٤].

ولم يرسله ليكون سببًا لشقائهم، وهلاكهم، وبعدهم عن الحق، فأنى لهذه الغاية السامية السامقة أن تؤتي أكلها من خلالنا، كما استوت على سوقها من خلال طليعة هذه الأمّة، ورواد فكرها، وجهابذتها، الذين فهموا الإسلام، وعملوا له على أساس شموليته وعظمته واعتداله، لنصل معًا، وبجهود متكاتفة ومتكاملة، لأداء الأمانة على أتم وجه وأحسنه وأكمله وأعدله، لنكون خير من عمل على أسلمة العصر بوعي وفهم واقتدار، لا عصرنة الإسلام بتفريط وتخلف وانحلال، فلا يمكن بحال أن يشكل الإفراط والغلو ميزانًا عادلاً، ولا التفريط والإخلال معيارًا صادقًا، فالأصل في الميزان أن تستوي كفتاه، ليؤدي وظيفته بأمانة ونزاهة وإتقان.. والإسلام دين الواقع، كما أنه دين الوسطية، وقد بيّن العلماء وأصحاب الشأن منهج الوسطية الإسلامية في فقه الواقع، ويمكن توضيح هذه القضية بما يأتي:

١. مفهوم فقه الواقع:

الفقه: العلم بالشيء، والفهم له. وغلب علم الدين، لسيادته وشرفه وفضله على سائر العلم، كما غلب النجم على الثرّيا. والفقه في الأصل: الفهم. يقال: أوتي فلان فقهاً في الدين،

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ٢٣٤/٩، مادة: وسط.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٤) رواه الحاكم في مستدركه: ٩١/١، رقم: (١٠٠) وقال: حديث صحيح، وأقرّه الذهبي. ورواه البيهقي في شعب الإيمان: ١٤٠/٢، فصل في أسمائه ﷺ، وابن عساكر: ٤٠١/٥.

أي: فهماً فيه. قال الله ﷻ: ﴿**لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**﴾[٥]، أي ليكونوا علماء به. ودعا النبي ﷺ لابن عباس ﷺ فقال: (اللهم فقهه في الدين، وعلّمه التأويل)[٦]، أي: فَهِّمْهُ تأويله ومعناه، فاستجاب الله دعاءه، وكان من أعلم الناس في زمانه بكتاب الله ﷻ[٧]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[٨].

قال الشيخ (يوسف القرضاوي) في شرح هذا الحديث: "والمعنى: أن ينير الله بصيرته، فيتعمّق في فهم حقائق الدين وأسراره ومقاصده، ولا يقف عند ألفاظه وظواهره"[٩]. وكل عالم بشيءٍ فهو فقيه، من ذلك قولهم: فلان ما يفقَهُ، وما ينقه، معناه: لا يعلم، ولا يفهم[١٠].

معنى الواقع: العصر الذي يعيش فيه الإنسان المسلم في فترة عمره، والوقائع هي الأحداث التي تحدث في عصره. قال ﷻ: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ**﴾[١١]. أيام الله هي الأيام التي أمر الله رسله بتذكير أممهم بها. وقال ابن عباس ﷺ: (أيام الله يعني: نعمه)[١٢]. وقال مقاتل: أيام الله: "بوقائع الله في الأمم السالفة، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعهم"[١٣].

وفي هذا يقول (ابن القيم الجوزية): "والصواب: إن أيامه تعمّ النوعين، وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسمّيت هذه النعم والنقم الكبار، المتحدث بها، (أياماً)، لأنها ظرف لها. تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب، وأيام الناس، أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام. فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها، تكون عبرته وعظته"[١٤].

---

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب: وضع الماء عند الخلاء، ورواه أحمد في كتاب مسند بني هاشم، باب: مسند عبد الله بن عباس.

(٧) لسان العرب: ٥٢٢/١٣. مادة (فقه).

(٨) رواه البخاري في كتاب العلم – باب العلم قبل القول والعمل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني: ٢١٣/١، ورواه مسلم في كتاب الزكاة – باب النهي عن المسألة. شرح صحيح مسلم محي الدين يحيى بن شرف النووي: ١٣٣/٧. سنن ابن ماجة: ٨٠/١ في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٩) أولويات الحركة الإسلامية: ٢٩.

(١٠) لسان العرب: ٥٢٢/١٣.

(١١) سورة إبراهيم، الآية: ٥.

(١٢) الدر المنثور في التأويل بالمأثور: ٣٢/٦.

(١٣) الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٢/٩.

(١٤) مدارج السالكين: ٣٨٨/١.

فواقع المسلم المعاصر، في أيامنا، هي الحياة التي يعايشها المسلم في المجتمع الذي تحيط به قوى عالمية، منها على سبيل المثال: اليهودية والصهيونية العالمية، الصليبية العالمية، المشركون من غير أهل الكتاب (البوذية، الشيوعية، الوثنية)، والمسلمون (على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم). فكان لا بد للمسلم المعاصر من دراسة ومعرفة هذه القوى، سواء أكانت قوى ظاهرة أو خفية، ودراسة أفكار هذه القوى وأهدافها.

بعد تحليل ودراسة (فقه الواقع)، لا بد أن نشير إلى معنى فقه الواقع مركباً: قال الإمام (ابن القيم): "ولا يتمكن المفتي، ولا الحاكم، من الفتوى والحكم بالحق، إلا بنوعين من الفهم:

أحدها: فهم الواقع، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع، بالقرائن والأمارات والعلامات، حتى يحيط به علماً.

الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به، في كتابه، أو على لسان رسوله، في هذا الواقع. ثم يطبق أحدهما على الآخر. فمن بذل جهده، واستفرغ وسْعه في ذلك، لم يعدم أجرين أو أجراً. فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع، والتفقه فيه، إلى معرفة حكم الله ورسوله"[١٥].

ويقول الدكتور (يوسف القرضاوي): إن فقه الواقع "مبني على دراسة الواقع المعيش دراسة دقيقة مستوعبة لكل جوانب الموضوع، معتمدة على أصح المعلومات، وأدق البيانات والإحصائيات"[١٦]. ويقول في موضع آخر: "فقه الواقع: أي معرفة الواقع معرفة صحيحة دقيقة، معرفته على ما هو عليه، سواء كان لنا أم علينا، لا معرفته كما نتمنى أن يكون، كما يفعل ذلك كثيرون في تصوره وتصويره، فإن ذلك خداع للنفس، وتضليل للغير. والواقع الذي نريده: كل ما يحيط بنا في هذه الحياة، ويؤثر فينا إيجاباً أو سلباً، سواء واقعاً عالمياً أم إقليمياً أم محلياً أم شخصياً، واقعنا وواقع خصومنا على سواء"[١٧].

ويقول الأستاذ (عمر عبيد حسنة): "فالنزول إلى الميدان، وإبصار الواقع الذي عليه الناس، ومعرفة مشكلاتهم، ومعاناتهم، واستطاعتهم، وما يعرض لهم، وما هي النصوص التي تتنزل عليهم في واقعهم، في مرحلة معينة، وما يؤجل من التكاليف لتوفير الاستطاعة، إنما هو فقه الواقع، وفهم الواقع إلى جانب فقه النص"[١٨].

---

(١٥) أعلام الموقعين عن رب العالمين: ٨٧/١.
(١٦) أولويات الحركة الإسلامية: ٣٠.
(١٧) السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، الدكتور يوسف القرضاوي: ٢٢٨.
(١٨) تقديمه لكتاب: فقه الواقع أصول وضوابط، أحمد بوعود: ٤٣.

ويقول الدكتور (ناصر العمر)، في تعريفه لفقه الواقع: "هو علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة؛ من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول، والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمّة، ورقيّها، في الحاضر والمستقبل"[١٩].

ويقول الشيخ (محمد إبراهيم الهسنياني) -رحمه الله-: (فقه الواقع هو علم من العلوم الفقهية المستجدة في الساحة الإسلامية، وهذه المستجدات والمسائل التي تطرأ على الساحة الإسلامية تحتاج الى فهم عميق ودقيق ودراسة المسألة من كل جوانبها، وإعطاء الحلول المناسبة لها، تماشياً مع روح الإسلام، بعيداً عن التعقيدات والافتراضات الفقهية، وبما يلائم واقعنا وما يحتاجه الناس"[٢٠].

٢. مراعاة التيار الوسطي للواقع:

ويمكن التنبيه على بعض أشياء، قد تغيب عن بعض الناس، إذا أردنا أن نطبق أحكام الشريعة في واقعنا المعاصر:

أولها: إن كثيراً من المشكلات التي نعانيها اليوم، ونشكو منها، ونختلف في وصف علاج إسلامي لها: قد لا تبرز أصلاً في ظل المجتمع الإسلامي الصحيح، لأن بروزها الآن ثمرة لأوضاع غير إسلامية، ونتيجة لمجتمع غير ملتزم بمنهج الإسلام كله، ونظام الإسلام كله. فإذا تغيّرت صفة المجتمع، وتغيّرت أوضاعه، بظهور المجتمع المسلم المتوازن المتكامل - بمقوماته وخصائصه وأوضاعه - تلاشت تلك المشكلات، أو انكمشت، ولم تعد تكوّن مشكلة حقيقية.

ثانيها: إن من الناس من يتصور أن كل ما في مجتمعنا الحالي مخالف للإسلام، وإن كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستهدم وتبنى من جديد. وهذا ليس بتصور سليم. فأكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى، ولكن بعد أن تنقّى من العناصر الغريبة المنافية للإسلام، وتطعّم بالعناصر الإسلامية الخالصة، وبهذا: تكتسب الشرعية، وتستحق البقاء باسم الإسلام.

ثالثها: إن قيام نظام إسلامي في مجتمع، لا يعني تغيير كل ما يراد تغييره فيه، ما بين عشية وضحاها. فمن الناس من يتصور في المجال الاقتصادي مثلاً: أنه بمجرد انتصار الاتجاه الإسلامي، والعودة إلى تطبيق شريعة الله، لا يطلع صباح اليوم التالي، إلا وقد صدرت الأوامر بإغلاق المصارف (البنوك) الربوية السائدة، وشركات التأمين، وتسريح موظفيها،

(١٩) فقه الواقع: ١٠.
(٢٠) التأصيل الشرعي لفقه الواقع، الشيخ محمد الهسنياني: ١٠.

وفرض الحراسة على ممتلكاتها.. إلخ. تبعاً لهذا التصور يتوقعون زلزلة الاقتصاد، وتعطيل المصالح، واختفاء رؤوس الأموال، وغير ذلك من النتائج والآثار.

وهذا التصور إنما جاء نتيجة القصور في فهم المنهج الإسلامي في علاج الواقع الفاسد، وتغيير المنكر القائم، وبناء المجتمع الصالح[٢١].

٣. مبادئ ثلاثة تراعى في تغيير الواقع:

معالم التيار الوسطي يراعي الواقع المعاش، ولا يغفل عنه: سواء في عرض الدعوة الإسلامية والخطاب الديني للمسلمين وغير المسلمين، بحيث يهتم بما ينفع عقولهم، وينير قلوبهم، ويحل مشاكلهم، ولا يسبح بهم في الماضي بعيداً عن الحاضر، ولا في المثاليات الحالمة بعيداً عن الواقع. وكذلك في تقديم الشريعة الإسلامية بدلاً من الأنظمة والقوانين الوضعية، أو في تقديم الحل الإسلامي بديلاً عن الحلول المستوردة من اليمين أو اليسار. فالفقيه الحق هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فيما يجب أن يكون، غافلاً عما هو كائن.

فهناك مبادئ ثلاثة، لا بد أن توضع في الاعتبار، عند الاتجاه إلى تطبيق النظام الإسلامي، وإقامة المجتمع المسلم المتكامل المنشود، وهي[٢٢]:

أ) رعاية الضرورات: هناك مبدأ (الضرورات) التي اعترف بها الشرع، وجعل لها أحكامها. وتقرّر ذلك في قواعد فقهية عامة، أصّلها علماؤنا في كتب (القواعد الفقهية)، وفي كتب (الأشباه والنظائر)، هي: (الضرورات تبيح المحظورات – الضرورة تقدر بقدرها - الحاجة قد تنزل منزلة الضرورة). ولهذا المبدأ أدلته الكثيرة من الشرع، في باب الأطعمة، وغيره. وهو مبدأ مسلّم به، مجمع عليه. والضرورات الشرعية ليست كلها فردية، كما قد يتوهم. فللمجتمع ضروراته، كما للفرد ضروراته. فهناك ضرورات اقتصادية، وسياسية، وعسكرية، واجتماعية، لها أحكامها الاستثنائية، التي توجبها الشريعة، مراعاة لمصالح البشر، التي هي أساس التشريع الإسلامي كله.

ب) ارتكاب أخفّ الضررين: مثل (مبدأ السكوت على المنكر): إذا ترتب على تغييره منكر أكبر منه، دفعاً لأعظم المفسدتين، وارتكاباً لأخفّ الضررين. وبناء على هذا المبدأ، يقرّر الفقهاء طاعة الإمام الفاسق، إذا لم يمكن خلعه إلا بفتنة وفساد أكبر من فسقه. ومما

(٢١) الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، القرضاوي: ٢٧١.
(٢٢) ينظر: بينات الحل الإسلامي للقرضاوي: ٢٠٨ - ٢١٣.

يستدل به لهذا المبدأ: حديث النبي ﷺ لعائشة: (لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لهدمت الكعبة، وبنيتها على قواعد إبراهيم)[٢٣]. ومن ذلك إبقاؤه ﷺ على المنافقين، وترك التعرّض لهم، مع علمه بنفاق بعضهم على التعيين، وتعليله ذلك بقوله: (معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي)[٢٤].

جـ) مراعاة سنة التدرّج: المبدأ الثالث: هو مبدأ (التدرج) الحكيم، الذي نهجه الإسلام عند إنشاء مجتمعه الأول. فقد تدرّج بهم في فرض الفرائض، كالصلاة والصيام والجهاد، كما تدرّج بهم في تحريم المحرمات: كالخمر ونحوها. وعند تجدّد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأول، أو قريبة منها: نستطيع الأخذ بهذه السنة الإلهية، سنة (التدرّج) إلى أن يأتي الأوان المناسب للحسم والقطع. وهو تدرّج في (التنفيذ)، وليس تدرّجاً في (التشريع)، فإن التشريع قد تم واكتمل باكتمال الدين، وإتمام النعمة، وانقطاع الوحي: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾[٢٥]. وهذا هو اليسر، وتلك هي الواقعية، في منهج الإسلام العظيم.

وإذا جئنا إلى واقعنا المعاصر وجدنا أن الواقع المعاصر يجعل الاهتمام بقضية الوسطية، والدعوة لها، ضرورة وفريضة، فريضة يوجبها الدين، وضرورة يحتمها الواقع: أما فريضة الدين، فالله ﷻ جعل سمة هذه الأمّة أن تنهض بهذا الواجب. وأما ضرورة الواقع، فنحن نشهد أن الأمّة يتعاورها على الساحة الإسلامية في الداخل تياران مغاليان: تيار الغلو الديني، وتيار الغلو العلماني، الأول بدأ بالتكفير، وانتهى بالتفجير، فكفر المخالف، سواء في الفروع أو الاجتهادات أو ظنيات المسائل، وأخرجه من ملة الإسلام، وحين يخرجه من ملة الإسلام يترتب على ذلك أن يستحل دمه وماله وعرضه. ولهذا التيار مظاهر كثيرة، منها استعمال القوة دون استيفاء شروطها، ومتطلباتها، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دون التزام قواعده الشرعية، وآدابه المرعية، والتصدي للفتوى، مع الافتقار إلى أدواتها وضوابطها، وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وإقصاء الآخر، حتى الذي ينطلق معه

(٢٣) رواه أحمد: ٢٣٩/٦، رقم (٢٦٠٧١)، والبخاري: ٥٧٤/٢، رقم (١٥٠٩) في العلم: باب ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه، ومسلم: ٩٦٩/٢، رقم (١٣٣٣) بَاب نَقْضِ الْكَعْبَةِ وَبِنَائِهَا، والنسائي: ٢١٦/٥، رقم (٢٩٠٣) في مناسك الحج: باب بناء الكعبة. وابن ماجة ٢٩٥٥ في المناسك باب: الطواف بالحجر، والترمذي ٨٧٥ في الحج باب ما جاء في كسر الكعبة، والنسائي: ٢١٥/٥.

(٢٤) رواه أحمد: ٣٥٣/٣، رقم (١٤٨٤٦)، ومسلم: ٧٤٠/٢، رقم (١٠٦٣)، والطبراني: ١٨٥/٢، رقم (١٧٥٣). والنسائي في الكبرى: ٣١/٥، رقم (٨٠٨٧)، وابن حبان: (٤٨١٩).

(٢٥) سورة المائدة، الآية: ٣.

من ذات الأصول الشرعية ذاتها.. لا يقول اجتهادي صواب يحتمل الخطأ، وإنما إن لم تكن معي فأنت عدوي، ومن كان معي قديس، ومن ليس معي إبليس.

إن من معالم الوسطية الإسلامية، أنه يراعي الواقع المعيش، ولا يغفل عنه: سواء في عرض الدعوة الإسلامية والخطاب الديني للمسلمين وغير المسلمين، بحيث يهتم بما يقنع عقولهم، وينير قلوبهم، ويحل مشاكلهم، ولا يسبح بهم في الماضي بعيداً عن الحاضر، ولا في المثاليات بعيداً عن الواقع.

وكذلك في تقديم الشريعة الإسلامية، بدلاً من الأنظمة والقوانين الوضعية، أو في تقديم الحل الإسلامي بديلاً عن الحلول المستوردة من اليمين أو اليسار، فالفقيه الحق هو الذي يزاوج بين الواجب والواقع، فلا يعيش فيما يجب أن يكون، مغفلاً ما هو كائن[٢٦].

من واجب الدعاة، مراعاة الموقف والبلد في إزالة الشبهة، وأن لا يشتط في إيضاح ما هو معروف عند قومه، وفي بلده، بل يوازن كل ذلك بوجه الحق الآخر، وتوضيح جوانب الإنصاف، ويكشف ما خفي من السلبيات، حتى يساهم في إرجاع الحق، وفى توضيح المواقف. ومن فقه هذا التوازن ما عمله العالمان المحدثان: الليث بن سعد، وإسماعيل بن عياش، حيث "كان أهل مصر ينتقصون عثمان، حتى نشأ فيهم الليث بن سعد، فحدّثهم بفضائل عثمان، فكفّوا عن ذلك. وكان أهل حمص ينتقصون علياً، حتى نشأ فيهم إسماعيل بن عياش، فحدّثهم بفضائل علي، فكفّوا عن ذلك"[٢٧]. وقال سفيان الثوري لعطاء بن مسلم: (إذا كنت بالشام فاذكر مناقب علي، وإذا كنت بالكوفة فاذكر مناقب أبي بكر وعمر)[٢٨].

وليحذر الدعاة والمصلحون من مسألة مهمة، وهي إبراز الحق الذي مع أهواء الناس، وكتم الحق الذي يخالف أهواء الناس، فيبرز من العلم ما كانت إشارته خضراء، ويسكت عمّا كانت إشارته حمراء، لأن في هذا إعانة للظلم، وتخليطاً للحق مع الباطل، وتشابكاً للرايات، فيكون الإفساد أكثر من الإصلاح، ويكون الداعية عوناً للباطل دون أن يدري، مع ذرائع فاسدة تفتح، ومصالح راجحة تفوت، ثم بعد انكشاف الفتن، ووضوح الحقائق، يفقد أهل الحق ثقة الناس بهم، إذ إن النصر لا يأتي إلا لمن ثبت على النهج المستقيم. وليحذر الداعية أشد الحذر من المداهنة، وقد قيل لأسامة بن زيد، ألا تكلم عثمان بن عفان (قال

(٢٦) الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، الدكتور يوسف القرضاوي: ٢٧٠.
(٢٧) سير أعلام النبلاء: ١٤٨/٨
(٢٨) المرجع نفسه: ٢٦٠/٧.

كلمته دون أن أفتح باباً أكون أول من فتحه، وما أنا بالذي أقول لرجل- بعد أن يكون أميراً على رجلين- إنك خير...)[٢٩].

وقال المهلب: (قال أسامة: قد كلمته سراً دون أن أفتح باباً، أي باب الإنكار على الأئمة علانية، خشية أن تفترق الكلمة، ثم عرفهم أنه لا يداهن أحداً، ولو كان أميراً، بل ينصح له في السر جهده...)، وقال عياض: "وفيه ذم مداهنة الأمراء في الحق، وإظهار ما يبطن خلافه، كالمتملق بالباطل. فأشار أسامة إلى المداراة المحمودة، والمداهنة المذمومة، وضابط المداراة لا يكون فيها قدح في الدين، والمداهنة المذمومة أن يكون فيها تزيين القبيح، وتصويب الباطل، ونحو ذلك..."[٣٠].

إن الفقه الحق لا بد أن يكون واقعياً، يعرف الواقع ولا يجهله، يلتفت إليه ولا يلتفت عنه، يُعمله ولا يهمله، يبني عليه ولا يبني في فراغ. ويتم ذلك على وجهين:

١) **تحقيق المناط:**

أي معرفة المحكوم فيه على حقيقته، ومعرفة ما يدخل فيه، وما لا يدخل فيه. وهذا يقتضي المعرفة الجيدة بالواقع ومكوناته، وبالأشياء وأوصافها، وبالأفعال وأسبابها وآثارها.. إذ من دون هذا يمكن أن يقع تنزيل الأحكام على غير ما وضعت له، أو على أكثر ممّا وضعت له، أو على أقل ممّا ضعت له، ويمكن أن يقع تعطيل الحكم مع وجود محله ومناطه. وحين يغيب تحقيق المناط، نرى ناساً ينفّذون الحدود في غير موضعها، وآخرين يضعون القتال في غير موضعه، وغيرهم يضعون السلم في غير محله.

ولقد ذهب الإمام (الشاطبي) في تحقيق المناط مذهباً فذاً، وسمّاه (تحقيق المناط الخاص)، وهو الذي لا يكتفي المجتهد فيه بتحقيق المناط بصفة عامة وإجمالية، وتنزيل الأحكام والتكاليف على من هم داخلون تحت عموم مقتضياتها، وإنما ينظر في الحالات الفردية، ويقدر خصوصياتها، وما يليق بها، ويصلح لها في خصوصياتها تلك[٣١].

فإذا كان تحقيق المناط العام يقتضي معرفة الواقع في عمومه، ومعرفة الحالات في إجمالها، فإن تحقيق المناط الخاص يقتضي معرفة الواقع الخاص، ومقدار خصوصيته، وما تستوجبه تلك الخصوصية في ميزان الشرع.

---

(٢٩) غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة، خلف بن عبد الملك بن بشكوال: ٨٦٣/٢، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧، بيروت.

(٣٠) فتح الباري: ٥٢/١٣.

(٣١) الموافقات في أصول الشريعة: ١٨١/٤.

ومما يدخل في هذا الباب، مراعاة الإمكان، أي: تقدير ما يمكن وما لا يمكن، وتقدير حدود الإمكان فيما هو ممكن. ذلك أن التكليف الشرعي يدور مع القدرة والإمكان وجوداً وعدماً وقدراً. وإذا كان (الميسور لا يسقط بالمعسور)، فإن (المعسور لا يُلحق بالميسور). وتمييز ما هو مقدور مما ليس بمقدور، وما هو معسور مما هو ميسور، يحتاج إلى دراية بالواقع وأهله[٣٢].

والمقصود عندي هو أن الفقيه المجتهد، لكي يتمكن من تحقيق المناط، سواء في مستواه العام، أو في مستواه الخاص، لا بد له أن يكون عارفاً خبيراً بصيراً بالواقع الذي فيه يجتهد، وفيه يفتي، ولا بد له أن يستحضره، ويأخذه بعين الاعتبار، وهو يجتهد ويفتي.

٢) اعتبار المآل:

ومعناه النظر فيما يمكن أن تؤول إليه الأفعال والتصرفات والتكاليف موضوع الاجتهاد والإفتاء والتوجيه، وإدخال ذلك في الحسبان عند الحكم والفتوى.

وإذا كان تحقيق المناط يقتضي معرفة ما هو واقع، فإن اعتبار المآل يقتضي معرفة ما هو متوقع، أي ما ينتظر أن يصير واقعاً. ومعرفة ما هو متوقع لا تأتي إلا من خلال المعرفة الصحيحة والدقيقة بما هو واقع. ومن هنا، فإن معرفة المآل، واعتبار المآل، جزء من معرفة الواقع، وثمرة من ثمراته[٣٣] ❐

(٣٢) الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي البيضاوي، علي بن عبد الكافي السبكي: ١١٠/١، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٣٣) أعلام الموقعين: ٥/٣، والموافقات: ١٨٣/٤.

تاريخ الصراع على مدينة (القدس)

أ.د. فرست مرعي

تحتل (القدس) مكانة مرموقة عند كل أصحاب الديانات السماوية، فهي عند المسلمين: أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام. وهي عند النصارى: مهد المسيح عليه السلام، ومكان تكريزه(=دعوته) بالإنجيل، وآلامه. وهي عند اليهود المكان الذي عاش فيه ملكهم داود عليه السلام، وبني فيه هيكلهم، وإليها سيعود المسيح حتى يقودهم إلى سيادة العالم، وفق تقاليدهم. وهي - في نفس الوقت - ذات طبيعة تجعل كل من يريد ملكاً ومالاً، يطمع فيها .

وقد أوردت آثار الأمم القديمة المكتشفة، هذا الاسم، بصور مختلفة. فالأواني المكتشفة من عهد الفرعون (سنوسرت الثالث- ١٨٧٨ – ١٨٤٣ق.م) تسميها (روشاليموم)، أو (أوشاميم)، ورسائل تل العمارنة، وهي المكتوبة بالخط المسماري على ألواح قديمة، وترجع في تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد؛ أي إلى عصر الفرعون (أخناتون ١٣٧٢ - ١٣٥٤ ق.م). تنطقها (يوروساليم)، وأما مخطوطات الملك الآشوري (سنحاريب) فقد أوردت اسم (القدس): (يوروسليمو).

وقد سبق اسم (يبوس) إلى الوجود كل الأسماء التي حملتها المدينة، حيث نسبها البناة الأوائل إلى أنفسهم. ومن الأسماء القديمة أيضاً (القدس)، وقد ورد لدى المؤرخ والرحالة اليوناني الشهير (هيرودوت ٤٨٤ ـ ٤٢٥ ق.م) هكذا: (قديتس).

وللقدس أسماء عديدة، فهي: صهيون ، ومدينة داود ، وأريئيل، وموريا، وإيلياء، وتنطق: إيليا، ونادراً إليا، أو بيت المقدس، ولكل اسم من الأسماء قصة وحكاية، فلكثرة الغزاة على المدينة كثرت أسماؤها، وتعددت، فكل غاز كان يسميها باسم. والجامع أو العامل المشترك بين هذه الأسماء أنها كلها مقدسة، كل اسم كان مقدساً عند من أطلقوه، وذلك دليل على مكانتها.

مكانة (القدس) عند أتباع الديانات الثلاثة:

مما لا شك فيه أن هناك صراعاً ينشب بين الفينة والأخرى بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث، فإنهم جميعاً يوحّدهم تقديس وتبجيل هذه الأرض المقدسة، وفي قلب المدينة الذي يضم أزقة ضيقة توجد أربعة أحياء: الحي الإسلامي، والمسيحي، واليهودي، والأرمني، وهي تضم بعضاً من أقدس الأماكن في العالم.

والحي الإسلامي هو أكبر الأحياء الأربعة، ويضم: قبة الصخرة، والمسجد الأقصى، في منطقة يعرفها المسلمون باسم الحرم القدسي الشريف. ويعد المسجد الأقصى هو ثالث أكثر الأماكن قدسية في الإسلام، بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، ويديره الوقف الإسلامي. وفي الإسلام أسرى الله بالنبي محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من مكة المكرمة، حيث المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى في (القدس)، ثم عرج به من موقع قبة الصخرة، إلى السماوات العلى، في الحادثة المعروفة بـ(الإسراء والمعراج).

ويزور المسلمون هذا الموقع المقدس طوال العام، وخلال شهر رمضان يصلي مئات الآلاف من المسلمين في المسجد الأقصى.

وفي داخل الحي المسيحي توجد كنيسة القيامة، التي تتمتع بأهمية خاصة لدى المسيحيين في كل أنحاء العالم، فهي تقع في المكان الذي شهد موت السيد المسيح(عليه السلام)، وصلبه، وبعثه، وفقاً للتقاليد المسيحية. وقبره في الكنيسة، وهي أيضاً الموقع الذي بعث منه. ويدير هذه الكنيسة ممثلون عن مختلف الكنائس، فهناك: بطريركية اليونان الأرثوذكس، والفرنسيسكان من كنيسة الروم الكاثوليك، والبطريركية الأرمنية، فضلاً عن الكنيسة القبطية، التي تشمل المصريين، بالإضافة إلى الكنيسة السريانية الأرثوذكسية.

وموقع كنيسة القيامة من مقاصد الحج الرئيسية للملايين من المسيحيين في أنحاء العالم، الذين يزورون قبر السيد المسيح، ويسعون لطلب العزاء والفداء من خلال الصلاة في الموقع. وعندهم ما يسمى بدرب الآلام (= حديقة حثيسيماني)، وهو مقدس عند كل الطوائف المسيحية، لاعتقادهم أن السيد المسيح قد سار فيه حاملاً صليبه، عندما اقتاده الجنود الرومان لصلبه، تنفيذاً لأوامر الوالي الروماني (بيلاطس).

وفي الحي اليهودي يوجد الحائط الغربي (=حائط البراق)، أو حائط المبكى، الذي يعتقد اليهود أنه البقية الباقية من سور أورشليم القديم، وأنه الحائط الخارجي لهيكل (= معبد) الملك سليمان، الذي أكمل بناءه حوالي العام٩٥٣ق.م، والذي دمّره الملك البابلي الكلداني (نبوخذنصر) عام ٥٨٦-٥٨٧ق.م تدميراً كاملاً، وبعد قرار بنائه على يد كورش الأخميني عام٥٢٠ق.م، والذي اكتمل عام ٥١٥ق.م، كما يشير العهد القديم. وقد رمّمه الوالي الروماني على فلسطين الملك هيرودس الكبير عام ١٩-٢٠ق.م، ودمره تدميراً كاملاً القائد الروماني تيتوس، في شهر آب/أغسطس عام ٧٠م، وأتى على ما تبقى منه الامبراطور الروماني البيزنطي هادريانوس عام ١٣٥م، والذي غيّر اسم أورشليم أيضاً إلى (إيليا كابيتالونيا) تيمناً باسمه. ويقوم اليهود بزيارة حائط المبكى (= حائط البراق)، وتقبيله، وقراءة بعض النصوص التوراتية والتلمودية إلى جواره، وكذلك البكاء على مجدهم الضائع .

ويعتقد اليهود أنه يوجد داخل هيكل سليمان قدس الأقداس، وهو أكثر المواقع قداسة لدى اليهود. كما يعتقد اليهود أنه بقدس الأقداس حجر الأساس الذي خلق منه العالم، فضلاً عن أنه الموقع الذي كان سيضحي فيه النبي إبراهيم بابنه إسحق، ويعتقد الكثير من اليهود أن قبة الصخرة هي موقع قدس الأقداس، وأنها مبنية على هيكل النبي سليمان.

واليوم، فإن حائط المبكى هو أقرب الأماكن، التي يصلي عندها اليهود، قرباً لقدس الأقداس. ويديره حاخام الحائط الغربي، أو حائط المبكى، الذي يزوره الملايين كل عام، إلى جانب ملايين اليهود الذين يأتون من مختلف أصقاع العالم للصلاة.

ومن جانب آخر، فإنه لم يكن لليهود بـ(القدس) سوى بعض الكُنس (مفردها كنيس)، وهي حديثة البناء نسبيًا، وكذلك بعض القبور. ويرجع تاريخ بناء أول كُنَيس إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وجميعها يقع في الحي اليهودي بـ(القدس القديمة)، وهو الحي المعروف بحارة اليهود، ومنها: (قدس الأقداس، طبرت إسرائيل، توماتوراة، بيت إيل، مدراش، طابية، مزغاب لاوخ).

ولليهود مقبرة خاصة بهم، فيها أربعة قبور مميزة، وهي : قبر النبي زكريا، وقبر يعقوب، وقبر أبشالوم، وقبر يهوشافاط.

ينقسم اليهود في مشاعرهم تجاه (القدس) إلى قسمين: الأول منهما يرى أنها مدينة عادية، بل ويمكن الاستغناء عنها بأخرى. ومن هؤلاء زعيم الحركة الصهيونية نفسه، اليهودي النمساوي: تيودور هرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤م)، حيث من الثابت أنه قبل اقتراح السياسي البريطاني الكبير (تشمبرلين) في إعطاء اليهود وطناً قومياً في (أوغنده)، بوسط إفريقيا، لولا أن غلاة الصهيونية ثاروا عليه، بل واعتدوا على مساعده (ماكس نورداو) بالرصاص، واتهموا هرتزل نفسه بالخيانة، لولا أنه تراجع تماماً عن موقفه، فتراجعوا هم أيضاً. الفريق الآخر هم الغلاة منهم، وهم يرفعون دائمًا أصواتهم ويترنمون بنص من المزامير (مزمور: ٦٠٥/١٣٧) والذي يقول :

إن نسيتك يا أورشليم، فلتشلّ يميني
وليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك
إن لم أرفع أورشليم على قمة ابتهاجي.

والحقبة التي بدأ فيها البناء الأول للقدس يقع ضمن (العصر البرونزي). وليس من المعروف هل أقيمت المدينة حينئذ بناء على قرار اتخذته جماعة اليبوسيين (وهم في الأصل قبائل حورية). واختار اليبوسيون لمدينتهم مكانًا حصينًا يرتفع عما حوله من الأرض، وشيدوا لها حصناً لحمايتها، واختاروا لها أيضاً موقعاً حيوياً؛ ليتيسر لهم الانتفاع بمميزات تجارية، وخيرات طبيعية، تتيحها مدينة تقبع في هذا المكان. فبنيت (القدس) (يبوس) – مع مدن كنعانية أخرى – على طريق المياه بين الشمال والجنوب، وأُقيمت على مرتفع الضهور (وهو التل الجنوبي الشرقي في القدس القديمة، القائمة الآن داخل السور) قرب عين ماء جيحون (نبع العذراء)، وحُفر تحت الجبل نفق تُنقَل من خلاله مياه النبع إلى الحصن.

وقد أطلق هؤلاء الكنعانيون على مدينتهم الصغيرة اسم (يبوس)؛ ليكون أقدم اسم لها في التاريخ، وأُضيفت إليها أسماء أخرى في أزمنة مختلفة.

وقد أُسند إلى ملك يبوسي يدعى (ملكي صادق) أنه وسّع (القدس)، وزاد في مبانيها، في القرن العشرين قبل الميلاد تقريباً، وأقام على التل الجنوبي، المعروف بـ (جبل صهيون)، قلعة للدفاع عن مدينته، التي صار اسمها حينئذ (أوروسالم) بدلاً من (يبوس). وتذكر مصادر العهد القديم أن نبي الله (إبراهيم) قد اشترى قطعة من هذا الملك اليبوسي (ملكي صادق)، وأنه المكان الذي حاول فيه ذبح ابنه إسحاق(عليه السلام)، وفق العهد القديم. وقد يظن البعض أن (أورشاليم) اسم عبري، أو اسم اختاره العبريون لمدينة (القدس)، لكن الحقيقة المؤكدة على خلاف هذا تماماً. فـ (أورشاليم) اسم كنعاني، من لغة كنعانية، واختاره لها الكنعانيون، ودخل عليه بعض التحريف على لسان العبرانيين، فهو في الأصل (أورسالم)، أي مدينة سالم، أو مدينة إله السلام، ولكن تحولت السين إلى شين على لسان العبريين.

وظلت (يبوس) بأيدي اليبوسيين، والكنعانيين، حتى احتلها النبي داود عليه السلام عام ١٠٠٤ق.م، فأطلق عليها اسم (مدينة داود)، واتخذها عاصمة له، ثم آلت من بعده لابنه الملك سليمان عام٩٦٥ق.م، وازدهرت في عهده ازدهارًا معماريًا كبيرًا. وفي هذه الحقبة سادت الديانة اليهودية في المدينة .

ما هو الهيكل؟

كلمة هيكل يقابلها في العبرية (بيت همقداش)، أي (بيت المقدس)، أو (هيخال) وتعني البيت الكبير، في كثير من اللغات السامية. والبيت الكبير، أو العظيم، التعبير الذي كان يشار به إلى مسكن الإله. ومن أهم أسماء الهيكل (بيت يهوه)، لأنه أساساً مسكن للإله، وليس مكاناً للعبادة، وهو أهم مبنى للعبادة اليسرائيلية. وبعد هدمه عام ٧٠م على يد القائد الروماني تيتوس، لم يحل محله مبنى مركزي مماثل. وقد كان اليهود يحجون إليه في أعياد الحج الثلاثة: الفصح، والأسابيع، والمظال. وبعد العودة من بابل عام٥٣٨ق.م، كان السنهدرين (= سندريون – المجلس اليهودي الأعلى) يجتمع في قاعة ملحقة به.

ومع استقرار العبرانيين في بلاد كنعان، كان العبرانيون يقدمون الضحايا والقرابين للآلهة في هيكل محلي يعبّر عن استقلالية كل قبيلة. ومع هذا ظل تابوت العهد مركز العبادة اليسرائيلية. وبعد تدمير (شيلوه) (= المكان المقدس عند اليهود غير أورشليم) عام ١٠٥٠ق.م، واستيلاء الفلسطينيين عليه، أحضره (داود)، وبنى له خيمة في أورشليم. وقد

ظهرت أماكن العبادة اليسرائيلية في اماكن مختلفة، لكن أياً منها لم يفلح في أن يصبح مركزاً دينياً لكل القبائل العبرانية المتناثرة. ولذا، فمع تركز السلطة في يد الملوك: (داود، وسليمان)، تركزت العبادة القربانية في مكان واحد، هو: الهيكل في أورشليم، التي كانت تقع على الحدود بين العديد من القبائل، كما أنها لم تكن تابعة لأي منها. لكل هذا أصبحت أورشليم مركزاً دينياً للقبائل العبرانية، ومن ثم لعبادة يسرائيل القربانية. وتاريخ بناء الهيكل هو أيضاً تاريخ تحول عبادة يسرائيل (البدوية المتجولة) إلى العبادة القربانية المركزية (المستقرة).

يشغل الهيكل مكانة خاصة في الوجدان اليهودي، فقد كان يتصور أنه يقع في مركز العالم، فقد بني في وسط أورشليم (=القدس)، التي تقع في وسط الدنيا، فقدس الأقداس الذي يقع وسط الهيكل هو بمنزلة سُرّة العالم. والهيكل كنز الإله مثل جماعة يسرائيل، وهو عنده أثمن من السماوات والأرض، بل إن الإله قرّر بناء الهيكل قبل خلق الكون نفسه.

فالهيكل يذكر عند الميلاد والموت. وعند الزواج يحطم أمام العروسين كوب فارغ، ليذكرهما بهدم الهيكل. ويرى منظرو الحركة الصهيونية أن ظهور الصهيونية يعود إلى اللحظة التي هدم فيها الهيكل، وفرض الشتات على اليهود. ويقوم الصهاينة بالتأريخ لوقائع تاريخ العبرانيين، وتواريخ أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين، بمصطلحات مثل: (الهيكل الأول)، و(الهيكل الثاني). ويشير أول رئيس وزراء لإسرائيل: (ديفيد بن غوريون، المتوفى سنة١٩٧٣م)، وكثير من الإسرائيليين، إلى (دولة إسرائيل) باعتبارها الهيكل الثالث.

أولاً: هيكل سليمان

اشترى النبي والملك (داود)(١٠٠٤-٩٦٥ق.م) أرضاً ليبني فيها هيكلاً (= معبداً) مركزياً، ولم يبدأ هو نفسه في البناء، حيث جاء في العهد القديم أن داود كان يريد أن يبني هَيكلاً للرب في أورشليم، ولكن النبي (ناتان) أبلغه – من لدن الرب - بأن يترك هذا المشروع لابنه سليمان (صموئيل الثاني٧). فقام بالمهمة ابنه النبي والملك سليمان(حوالي ٩٦٥-٩٢٨ق.م)، وأنجزها بين ٩٦٠ و٩٥٣ق.م، وكان قد شرع في بنائه في السنة الرابعة لملكه، وهي السنة الأربعمائة والثمانين لخروج بني إسرائيل من مصر (الملوك الأول٦:١)، بينما استغرق بناء قصره، وملحقاته، ثلاثة عشر عاماً؛ ولذا يسمى (هيكل سليمان)، أو (الهيكل الأول).

وحسب التصور اليهودي، قام سليمان ببناء الهيكل فوق جبل موريا – جبل بيت المقدس- أو هضبة الحرم، التي يوجد فوقها المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ومن الصعب

الوصول إلى وصف دقيق لهيكل سليمان، فالمصدران الأساسيان لمثل هذا الوصف هما كتاب: (الملوك الأول ٦:١-٣٨)، و(الأخبار الثاني٢:٤)، وهما يقدمان صورتين تختلفان في كثير من التفاصيل، كما أن المصادر الأخرى تعطي تفاصيل أخرى، تتناقض مع المصدرين الأساسيين.

وهيكل سليمان ليس بناءً واحداً، إذ يضم قصر الملك، ومباني أخرى. وكان ملحقاً بهذا المركب المعماري المذبح الصغير، الذي يضم تابوت العهد، وكان يحيط بهذه المباني جميعاً فناء واسع. وقد أقيم هيكل سليمان مكان المذبح الصغير، يحيط به فناء مقصور عليه، يفصله عن المركب المعماري الأكبر.

كان للهيكل عدة بوابات، وتبلغ أبعاده: ٩٠ قدماً و٣٠ قدماً عرضاً، و٤٥ قدماً ارتفاعاً، وهو لا يختلف كثيراً في التقسيم الثلاثي: (المدخل- البهو المقدس- قدس الأقداس) عن الهياكل الكنعانية. ونظراً لحياتهم البدوية، كان العبرانيون يجهلون فنون العمارة والهندسة، على خلاف الحال في البلاد المجاورة: بلاد الرافدين، ومصر. ولذا، فقد جلب (سليمان) البنائين والمهندسين، من مدينتي صور وصيدا، كما تم استيراد القسم الأعظم من مواد البناء، من جبال فينيقيا (= لبنان)، بمعاونة صديقه (حيرام)، ملك صور.

وقد كرس (سليمان) جزءاً كبيراً من ثروة الدولة، والأيدي العاملة فيها، لبناء الهيكل. ولذا، فإن ثورات وانقسامات عديدة حدثت بعد إتمام بنائه. وانتهت هذه الثورات بانقسام الدولة العبرانية المتحدة إلى مملكتي إسرائيل (= الشمالية)، ويهودا (=الجنوبية)، وتساقط العبادة القربانية المركزية.

وعند انقسام مملكة سليمان، بعيد وفاته عام ٩٢٨ق.م، فقد الهيكل كثيراً من أهميته، إذ شيّد ملوك المملكة الشمالية (=إسرائيل)، بقيادة يربعام مراكز مستقلة للعبادة. وقد هجم فرعون مصر: (شيشنق) على مملكة يهوذا، في ربيع عام٩٢٤ق.م، ونهب نفائس الهيكل، كما هاجم (يهواش) ملك المملكة الشمالية (= إسرائيل)، المملكة الجنوبية (=يهودا)، في عهد ملكها (إمصيا)، وهدم سورها، وأخذ ما في (هيكل سليمان) من الذهب والفضة والأواني، ونهب قصر سليمان، وأخذ بعض الرهائن، وعاد إلى السامرة العاصمة (الملوك الثاني١٤:١٤). وفي عام ٥٨٦ق.م، هدم (نبوخذنصر) الكلداني (هيكل سليمان)، وحمل كل أوانيه المقدسة إلى مدينة (بابل).

وعلى أية حال، فعلم الآثار يعطينا معلومات بأنه لم يبق من هيكل سليمان، ولا من أسواره، حجر واحد. وجلّ ما بقي قائماً إلى اليوم، هو جزء من أساسات سور هيكل زرو بابل(= الهيكل الثاني)، الذي أقيم بعد العودة من المنفى في بابل عام٥٢٠-٥١٥ق.م، وما

يدعى خطأً ببرج داود، الذي يرجع إلى فترة المكابيين، في القرن الثاني قبل الميلاد، وأجزاء من سور الملك هيرودس الكبير(٣٧ق.م - ٤ م)، بما فيها حائط المبكى (= حائط البراق)، الذي يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. وتؤكد عالمة الآثار: السيدة (كاثلين كينيون)، التي كشفت عن كل ما يمكن كشفه في موقع (القدس)(= أورشليم) القديمة، عدم جدوى البحث عن هيكل سليمان، لأنه قد ضاع إلى الأبد.

ومن جانب آخر، لا يوجد دليل أثري قاطع يحدد مكان الهيكل تحديداً دقيقاً. ويرى الباحث الغربي (جان باتيست أومبير) : "أن هيكل سليمان يعتبر لغزاً، لأنه لم يبق منه حجر واحد يُرى، وأن وصف الهيكل كان رمزياً"..

بينما يذكر المؤرخ الأمريكي، اللبناني الأصل: (فيليب حتّي) (المتوفى عام١٩٨٧م): " أن سليمان بناه - في الأصل - ليكون معبداً ملكياً ملحقاً بالقصر، واستغرق بناؤه سبع سنوات، وأصبح فيما بعد مركزاً عاماً لعبادة العبرانيين، وبنى الهيكل بناءون ومعماريون من مدينة صور، واستخدموا أرز لبنان، وأن الجناح الملكي في قصر سليمان كان يسمى بيت غابة لبنان، وأن زخرفة الهيكل مستوحاة من النماذج الكنعانية، وطقوس الهيكل وذبائحه تشبه الأساليب المتبعة عند الكنعانيين". ومفردة هيكل مستعارة من المفردات الكنعانية بصيغة هيكال، ويبدو أنها كلمة سومرية تعني المعبد.

ثانياً: هيكل زروبابل

مع هدم هيكل سليمان، قام (زروبابل = أحد كبار الكهنة)، الذي سمح له الملك الأخميني الفارسي بالعودة إلى فلسطين، بإعادة بناء الهيكل من جديد (٥٢٠- ٥١٥ق.م). ويذكر العهد القديم أن الهيكل الثاني بني بأمر من إله يسرائيل، وبأمر من أباطرة الفرس (= كورش – سيروس الأخميني٥٥٩-٥٢٩ق.م، ودارا- داريوس الأول٥٢١ق.م-٤٨٦ق.م)، ولذا كانت تقدَّم فيه يومياً قرابين لصالح الحاكم الوثني، حامي صهيون، وكانت خارطة العاصمة الأخمينية الفارسية (سوسة – شوشة) مرسومة على مداخله. ولا توجد إشارات كثيرة إلى معمار هيكل زرو بابل، ولا تقسيمه. ويميل معظم الباحثين، والمؤرخين، إلى أن (نبوخذنصر) لم يهدم الهيكل الأول، بل أحرقه ونهبه، فاستخدم العائدون اليهود من بابل بناءه دون تغيير.

وفيما يتصل بالمحتويات، فإن (قدس الأقداس) كان فارغاً، لأن تابوت العهد اختفى. وقد لعب هذا الهيكل دوراً أساسياً في إسباغ شرعية على فئة الكهنة، التي صارت الفئة

الإدارية الأساسية في مقاطعة يهودا (= يهودا الأخمينية الفارسية). وقد تعرض هذا الهيكل للنهب عدة مرات.

ثالثاً: هيكل هيرودس (= الهيكل الثاني)

هيكل هيرودس هو الهيكل الذي بناه الملك هيرودس الكبير (٣٧ق.م-٤م)، الذي عينه الرومان حاكماً رومانياً يحمل لقب (ملك)، ويشار إليه بأنه باني (الهيكل الثاني). وأحياناً يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى الهيكل الذي أسسه زرو بابل، وبهذا يكون هيكل هيرودس الكبير(الهيكل الثالث)، وإن كان مصطلح الهيكل الثالث يستخدم للإشارة - عادة - إلى الهيكل الذي سيُشيَد في آخر الأيام (= دولة إسرائيل الحالية)، مع بداية العصر المشيحاني. وحينما اعتلى هيرودس العرش وجد هيكل زروبابل متواضعاً، فقرر بناء هيكل آخر لإرضاء اليهود، ولكنه قرر - في الوقت نفسه - بناء هيكل لآلهة روما لإرضاء الإمبراطور الروماني أغسطس(٢٧ق.م-١٤م). ويبدو أن الهيكل الروماني لم يختلف عن الهيكل اليهودي في معماره.

بدأ هيرودس البناء في ١٩ -٢٠ ق.م، فهدم الهيكل القديم، واستمر العمل في البناء وقتاً طويلاً، ومات دون إتمامه، واستمر البناء حتى عهد حفيده (أجريبا الثاني) عام ٦٤م، بل كانت تنقصه بعض اللمسات عندما هدمه تيتوس في٩- ٨/١٠/ ٧٠م.

بني الهيكل على الطراز اليوناني – الروماني السائد، وقد وسع هيرودس نطاقه ليضم مساحة واسعة، وكانت له عدة بوابات، وأربعة جسور.

ويذكر الباحث الكوردي السوري – المصري (حسن ظاظا= زازا) أن حائط البراق (= حائط المبكى) كان - على الأرجح - جزءاً من جدار هيكل هيرودس الغربي، أو جزء من السور الخارجي، الذي بناه هيرودس، على حد تعبير الباحث المصري المختص باليهودية: (عبد الوهاب المسيري)..

واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن (الجدار الغربي)، ويعتبر من أقدس الأماكن عند اليهود في الوقت الحاضر، يبلغ طوله مائة وستون قدماً، وارتفاعه ستون قدماً. سمّي باسم حائط المبكى، لأن الصلوات حوله تأخذ شكل عويل ونواح. وجاء في الأساطير اليهودية أن الحائط يذرف الدمع في التاسع من آب/ أغسطس، يوم هدم الهيكل على يد القائد الروماني تيتوس. والتاريخ الذي بدأت تقام فيه الصلوات بالقرب من الحائط غير معروف. وحتى القرن السادس عشر الميلادي نجد أن المصادر التي تتحدث عن يهود (القدس) تشير إلى ارتباطهم بموقع الهيكل فحسب. ويبدو أنه أصبح محل قداسة، بدءاً من

سنة ١٥١٧م، بعد الفتح العثماني لفلسطين، على يد السلطان سليم الأول(١٥١٢-١٥٢٠م)، وهجرة يهود المارانوس (= اليهود المتنصرون في الأندلس- إسبانيا والبرتغال) حَمَلة النزعة الحلولية المتطرفة في اليهودية. فالنزعة الحلولية تظهر دائماً في شكل تقديس الأماكن والأشياء. كما أن وجود اليهود داخل التشكيل الحضاري الإسلامي، ترك أثره العميق فيهم، فشعيرة الحج إلى مكة المكرمة، والطواف حول الكعبة المشرفة، وجدت صداها في تقديس اليهود لحائط المبكى!.

وقد قام الأثريون الإسرائيليون، بعد حرب حزيران/ يونيوعام١٩٦٧م، بعمل حفائر في أساس الحائط، فكان أقصى ما عثروا عليه في الحجارة تحت الأرض إصحاحين من سفر النبي أشعيا، محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لداود أو سليمان مستحيلاً. ويرجح العثور على هذا النص إلى الشهور السابقة على إحراق المسجد الأقصى في ٢١ من شهر آب/ أغسطس عام ١٩٦٩م.

رابعاً: الهيكل الثالث

الهيكل الثالث مصطلح ديني يهودي يشير إلى عودة اليهود، بقيادة الماشيَح (= المسيح المنتظر)، إلى (صهيون)، لإعادة بناء الهيكل في نهاية الأيام. والهيكل الأول هيكل سليمان، الذي هدمه نبوخذنصر، والهيكل الثاني هيكل هيرودس. والهيكل الثالث مرتبط بالرؤى الأخروية، لا بالتاريخ الإنساني، ومع هذا فقد صبغ الصهاينة هذه الرؤية بصبغة علمانية، وجعلوا الاستيطان الصهيوني في فلسطين هو العودة المشيحانية. وبالتالي، فإن الدولة الصهيونية (= يسرائيل الحالية) هي الهيكل الثالث❐

الإعلام المسيّس واستراتيجية التلاعب بالعقول وسبل التحصين المعرفي

سـعـد الزيباري

saadsuhaib@yahoo.com

"إنّ طبيعةَ الإنسان أنْ يكونَ حُرّاً، وأنْ يرغبَ في أنْ يكونَ حُرّاً، غيرَ أنّ مِنْ طبيعتِه أيضاً أنْ يتطبّعَ بما تربّى عليه"(١).

فلا جرمَ أنّ الحكومات – كانت وما زالت – تمارسُ عمليّة التدجين المسيّس والتهجين الممنهج على المواطنين، الّذين لا يشعرون – نتيجة التوجيه الأيديولوجيّ المستمرّ – بالهيمنة الّتي تمارَس بحقِّهم، فتوجِّه عقولَهم وإراداتِهم نحو تفكّراتٍ مُعيّنة، فهم يتلقون يوميّاً سيلاً مِنَ الأفكار والتصوّرات من قنواتٍ شتّى، وخاصّة مِنْ شبكاتِ التواصُل الاجتماعي الّتي أتقنتِ الحكومات الفرديّة لعبتَها أيضاً، ووظفتها لبثِّ أفكارٍ مُعيّنة وأيديولوجيات مدرُوسة. فنحنُ اليوم أصبحْنا نشاهِدُ سيلاً متراكماً مُتراكباً مِنَ (النفايات الثقافيّة) الّتي يقوم بترويجها وتسويقها أفرادٌ يأخذون أجوراً لقاء أتعابهم في نقلِ تلك الأفكار المعلّبة والتوجّهات الجاهزة من أجلِ تخدير الوعي وتغييبه!

فالعقلُ الواعِي الّذي يتلقّى هذهِ النفايات المؤدلجة، يعيدُ إنتاجَها من جديد بعدَ خزنِها وتحويلِ بعضها إلى (العقلِ الباطِن)، أو (العقل اللاواعي)، الّذي يؤدّي دوره في توجيه سلُوكنا وتنميطه وأدلجته بما يُوافق وأغراض القائمين على مصادِر تلك الأفكار المعبّأة

والمضامين المشحُونة بكلّ ما يُخدِّر وعي الإنسان ويشلّه ويُعطِّله. فعلى سبيل المثال: نحنُ إذا أردنا أنْ نقدِّر حجمَ التأثير الّذي يتركهُ علينا هذا القصف اليوميّ المستمرّ، يكفينا أنّ نعرفَ أنّ مُشاهدة أيِّ مُحتوى دعائي أو إعلاني أو إغرائي لمدّة (٢٠) دقيقة، سيترك أثراً بعيد المدى في نفُوس المشاهدين، مِمّنْ يقومُون بوعي أو لا وعي في اجترارِ ما تلقّوه ومُحاكاتِه. ومن هُنا عمدتْ وسائِلُ الإعلام المسيّس - من أجلِ خداعِ الجماهير وإلهائها - إلى "تَكرار الرسالة الواحدة بشكل مُتتابع ودقيق، وباستخدام وسائِل مُختلِفة، بصرفِ النّظر عن مدى دِقّة هذه الرسالة وصدقيَّتها. هذا، وتشيرُ الدراسات إلى ميلِ البشر إلى تصديق الأفكار والمعلومات الّتي تتكرّرُ أمامَهم بانتظام؛ بصرفِ النظر عن مدى منطقيّتها"([٢]). فتَكرارُ الرِّسالة – مهما كانت غاياتها – يفضي إلى ترسيخِ مضامينها وتجذيرِها في العقلِ اللاواعي!

وهُناك دراساتٌ معرفيّة كثيرة بحثت في هذا المجالِ الحيويّ، ونحتت مُصطلحاتٍ عديدة، لتوصيفِ هذا المفهوم الّذي أصبح حقلاً معرفيّاً خاصّاً، وإذا ما قُمنا "باستعراضٍ سريع لبعض المصطلحاتِ ذات العَلاقة بما عُرف بوسائط الاتصال (Media Communication) - من قبيل: التلاعب بالعقول، وقصفِ العقول، وتخديرها، وتعليب الوعي، وتغييبه، وتزييفه، وخطفه، واغتصابه، والكذبة الصادقة، والأكاذيب المنطقيّة، والأكاذيب الرسميّة، واجتزاء الحقيقة، وفنون الدعاية والإعلان، والتلاعب الإعلامي، والإعلام المتحيّز، واحتكار وسائل الإعلام، وتقنيات نشر الإشاعة، وغسيل المخ، ومقص الرّقيب، والرّقابة الذاتية، والأمّية الإعلاميّة، والتعتيم الإعلاميّ، والتضليل الدعائيّ، وتكتيكات الإلهاء الإعلاميّ، وصناعة الموافقة، وفبركة الرأي العام، وغيرها الكثير الكثير مِنَ المصطلحات - انكشفت لنا البنية التحتيّة التي قامتْ عليها قواعد وسائل الإعلام العالميّ، وتبيّن - في الوجهة - الانحراف الّذي طرأ عليها، فتحوّلت من (وسيلةِ اتصال) إلى (وسيلةِ تحايُل ودجل)، ولكنّه مقنّن ومبرَّر له"([٣]).

هذا، و"في عام ١٩٣٩ نشر (سيرجي تشاخوتين) كتاباً أعطاه عنواناً ذا دلالة مقزّزة، وهو (اغتصاب الجماهير)، للتّدليلِ على بشاعة الهتكِ القسريِّ لحُرمة العقل، والتلويث لطهارةِ الفكر والفِطْرة!"([٤]). فالحكومات - ديمقراطيّة كانت أو ديكتاتوريّة - قد أتقنتِ اليوم استراتيجيّة الهيمنة الناعِمة على العقول النائِمة، من خلالِ تنفيذِ استراتيجيّة تعليب وعي المواطنين وتزييفه، وتنميط العقُول وتدجينها، وتشكيل التوجّهات، والتلاعب بالأذواق واستمالتِها لأغراضٍ مُحدّدة سلفاً.

ومِمَّا يذكرُه المفكِّر الأمريكي (نعومي تشومسكي)([٥]) في هذا السِّياق؛ هو: "أن وسائل الاتصال الحديثة أصبحت أداةً أساسيّة للسيطرة والحكم في الدول الديمقراطيّة، كما كانتِ

الإشاعةُ أداةً للحكم في الدول الديكتاتوريّة"([٦]). وأكّد أنّ هُناكَ صُحفاً تُشترى من قبل الأثرياء؛ ليُطوِّعوا الحقيقة لصالحِهم. وقد تمّ التحوّل في أجواء الديمقراطيّة إلى تكنولوجيّات صناعة الموافقة (manufacturing consent)، "فمصانع العَلاقات العامّة تنتج - وبالمعنى الحقيقي للكلمة - (الموافقة والطواعية والخضُوع)، وهي تراقب الآراء والأفكار والأذهان"([٧]). ويضيفُ: "إن هذا يُعتبر تطوّراً كبيراً بالنسبة للأنظمة الشموليّة. فمن المريح جدّاً أنْ يتلقّى المرء الدعاية بدلاً من أنْ يجد نفسَه في غرفةِ التعذيب"([٨])، ما يعني أنّ ما كان يتمّ الحصول عليه سابقاً من خلال التعذيب في السجُون، أصبح يتحقّق الآن من خلال الدعاية والإعلان! هذا إلى جانب الفلسفة الّتي تحرّك القائمين على وسائل الإعلام العالميّ، كما يلخّص أحد جوانبها (رتشارد سالنت) – الرئيس السابق لشبكة (سي بي إس) الإخباريّة؛ حيث يقول: "إنّ مهمتَنا هي إعطاء النّاس ليسَ ما يطلبُون، ولكن ما نقرِّر نحنُ أنَّهم يجب أنْ يحصلُوا عليه"([٩]).

وفي هذا الصّدد قال روجيه غارودي: "السّياسةُ الكُبرى هي كيفيّةُ إعدادِ شعبٍ إعداداً جيِّداً للعبُوديّة مِنَ اليمين أو اليسار عن طريقِ (الشّاشة الصّغيرة)؛ وهو يبتسمُ في سعادةٍ وغفلة.. وإذا كان مِنَ السَّهل حُكم الشّعب الجاهِل، فما أسهلَ ذلِكَ عن طريق التلفزيُون". وأنتَ "إذا رأيْتَ منتجاً مجانيّاً (YouTube، Google ، Twitter،Facebook)، فاعلَمْ أنّكَ أنتَ السِلْعة"([١٠]). وقد أكّد المفكّر البرازيلي (باولو فريـر) - وهو أحد المنظِّرين لحالةِ الإنسان المقهور - في نظريته التربويّة الخطيرة (تربية المقهورين)، بقوله: إنَّ تضليلَ عقُولِ البشرِ (manipulation) هو "أداة للقهر" فهو يمثِّل إحدى الأدواتِ الّتي تسعى النخبةُ من خلالها إلى "تطويع الجماهير لأهدافِها الخاصّة"([١١]).

وفي هذا المساق أكّد (لي كوان يو) - رئيس وزراء سنغافورة الأسبق -؛ بالقول: كانت سيطرتي التامّة على المنابرِ الإعلاميّة مصدر قُوّتي طيلةَ حياتي السياسيّة، فالكلمةُ المنطوقة عبر التلفزيُون أشدّ تأثيراً بكثير مِنَ النصِّ المكتوبِ في الصّحف(١٢). وفيما يتعلّقُ بالإعلام العربيّ، فإنّ "الصفةَ الغالِبةَ عليهِ، إنّهُ إعلامٌ مُسَخّر علناً، لخدمةِ هدفينِ سياسيين: أولّهما: أنْ يتجاهلَ أخطاءَ الحكومة، والثاني أنْ يُمَجِّدَ مُنجزاتِها الإداريّة، بكُلِّ وسيلةٍ في حوزتهِ، بما في ذلِكَ قصائِد الشِّعر، وأغاني الأطفال، اللّتانِ ينطلِقانِ في الظّاهِر، مِنْ خطّةٍ إعلاميّة مشرُوعة"(١٣).

استراتيجيّة تعليب الوعي وتشكيل العقل

لا غَرْوَ أنّ "عمليّةَ تعليبِ الوعي، وصناعة النّمط، وتشكيل العقُول وصبِّها في قوالِبَ مُعدّة سلفاً، لخدمة أهدافِ نظامٍ حكمٍ بعينه، وتطويع الجماهير لأهداف خاصّة، وتدمير الصِحّة العقلية لهم، وشلّ قدرتهم على التفكير العلميّ المستقل؛ هي آخر جريمة إنسانيّة يمكن أنْ يرتكبَها نظام حكم ما في حقِّ شعبه!

وعمليّةُ تعليب الوعي، وصناعة النّمط، وتسيس العقُول بدأت منذ أيّام العهد النازي في ألمانيا، ونجحت إلى حدٍّ كبير في شلِّ القدرة على التفكير المستقل عند شعب عريق؛ كالشعب الألمانيّ، واستطاعت أنْ تجرَّ الملايين منه طائعين مُختارين، أو على الأصحّ مُخدرين بالدعاية المنظّمة، إلى مذبحة الحرب العالمية الثانية، لكي يرتكبوا أفعالاً أصبحُوا هم أنفسهم يعجبون بمجرّد أنْ زال عنهم سِحْرُ الدعاية وتخديرها: كيف رضوا لأنفسهم أنْ يرتكبُوها؟"([14]).

والإنسانُ الذي يصحُو من سباته إثر التنويم المخدّر، ويُقلّل من جرعاتِ التخدير الإعلاميّ، سيكشفُ بنفسِه حجم التّزييف والتّضليل الّذي حصلَ معه أثناء أسره في سجونِ التلقِّي الطوعيّ لقنواتٍ مُسيّسة شتى. وكلّما زاد وعي الإنسانِ قلَّ أثر الإعلام السلبيّ في توجيه أفكارِه وتنميط سلوكياتِه وترويضِها، و"كُلّما تقدَّمْنا في العُمْرِ ضَعُفَ البَصَرُ.. واتّضَحَتِ الرُؤيةُ!"، فالإنسانُ الواعِي يُمكنه أنْ يميّز بين الردئ والسليم، والصّحيح والفاسِد، والعميق والضّحل؛ لأنّ الله جلّ وعلا قد حباهُ بعقلٍ وإدراكٍ يُمكنه بفضلِهما أنْ يميِّز بينَ الأشياء، ويتأمّل في الآفاق، ويتعمّق في الأنفس، فالعقلُ الواعي إذاً، لا يقبلُ البتّة أنْ يُساق من قبل غيره سَوْق البهائِم، فهو يعي جيِّداً بالحكمةِ الّتي تقول: "إذا لم تُسيِّطِرْ على عقلِكَ، سوفَ يُسيِّطِرُ عليه شخصٌ آخَر!"([15])، و"إنْ لم تستخدِمْ عقلَكَ؛ فإنَّ الآخرينَ سوفَ يسُوقونه!"([16]). وإنْ لَمْ تُبَرْمِجْ عقلَكَ، ستكون مُبرْمَجاً من قبلِ شخصٍ آخَر![17]).

إذاً، فهذا العقلُ الفريد ليسَ معرُوضاً للبيع. وما أجملَ ما صاغه الدكتور (طارق السويدان) في هذا المعنى بعبارةٍ مُوحية في منشورٍ نشرَهُ بعنوان (عقلي ليسَ للبيع)؛ ومِمّا قال فيه: "إذا حدَّثني شيخٌ أو عالِمٌ أو داعية بحديثٍ لا يُعقل، فلن أقبلَهُ حتَّى لو نقلَهُ لي عن صحابيّ (رضي الله عنه)، فعقلي ليسَ للبيع، وقديماً قال العربُ: "حدِّثِ العاقِلَ بحديثٍ لا يُعقل؛ فإنَّ صدّقكَ فلا عقلَ لَهُ". إذا تحدَّث حاكِمٌ أو سياسيّ في خطابٍ عام أو لقاء إعلاميّ، وأعطى الوعُود بمستقبلٍ زاهِر ورخاءٍ وثراءٍ وتنمية، فلن أُصدّقه مهما تحدّث، فهم مُدرَّبُون على أنْ يَسْمعَ النّاس منهم ما يود النّاسُ سماعَه، فلا حاكِمَ يخدعُني، ولا إعلامَ يُبهرني، فعقلي ليس للبيع! عندما أقرأُ في كتب التراث عن عابدٍ صلّى ألفَ رَكْعة في ليلة، أو ختم القرآن الكريم (٧) مرّات في ليلة، أو عن فارس مسلم قتل بيديه مائة من الأعداء في

يوم واحِد، أو عن مَنْ صلّى كذا سنة الفجر بوُضوء العِشاء، ونحو ذلك؛ أقول في نفسي: "ما هذا الهُراء؟!". حتّى لو كان الكلام موجُوداً في كتب كبار العُلماء والمؤرّخين، فعقلي ليسَ للبيع! عندما تقومُ دولة باستعمال أدواتِها الإعلاميّة الضّخمة بتشويه صُورة مُعارض لها، أو رمي الاتهامات ضِدّ جماعة أو حزب مُنافِس لها، فلن أقبلَ أيّاً من ذلك الخِداع، حيث إنه من البدهيّات أنّه لا يُمكن تشكيل رأي عن شخصٍ أو جهة من كلام خصُومه، فهذا لا يخدعُني؛ لأنَّ عقلي ليسَ للبيع! عندما يُردّد قادة حزبٍ أو جماعة أمامَ أعضائِهم بطولاتِهم العنتريّة أمامَ نظريّات المؤامرة الّتي تحيطُ بهم، فيعيشون هُمْ وأعضاؤُهم في أوهامٍ تخدعُهم، لكنّها لا تخدعُني؛ لأنَّ عقلي ليسَ للبيع! باختصار: عقلي ليسَ للبيع، لا لحاكِم، ولا عالِم، ولا سياسيّ، ولا إعلاميّ، ولا لقائدِ حزبٍ أو جماعة، ولا لكتب التراث، ولا حتّى لأبٍ ولا لأُم، الله جلَّ جلاله كرّمني كإنسانٍ على سائرِ الخلائق بالعقلِ الرّاشِد، فكيفَ أُعطّله وأسلّمه لغيري![18].

وما أحرى بنا هنا أنْ نستفيدَ من تجربة (أبي حامد الغزالي) الّذي اتّخذ (الشك) مذهباً ذهنياً له في طريقِ "البحثِ عن الحقيقة"، وطلب المعرفةِ والتماسِها من أجلِ الوصُول إلى مرحلةِ اليقين، فالشكّ عندَهُ هو أوّل الطّريق إلى اليقين[19]. ومن أقوالِه في هذا المجال: "الشكوكُ هي الموصلةُ إلى الحقّ؛ فمن لم يشكّ لم ينظر، ومن لم ينظر، لم يُبصرْ، ومن لم يُبصر، بقي في العمى والضلال"[20]. فالشكّ المنهجيّ عندَ الغزاليّ هو مذهبٌ يقومُ على اعتمادِ الشكِّ كآليةٍ لبلُوغ المعرفة، ويقتضي عدم تقبّل أيّ فكرة أو قضية دون فحصها أوّلاً فحصاً معرفيّاً دقيقاً[21]. فالشكّ المنهجيّ يعدُّ وسيلةً ناجعة للبحث عن الحقيقة في خضمِّ الأكاذيب الّتي تلفُّ بنا من كُلِّ جانب.

وسائِل الهيمنة واستراتيجيّات التدجين المسيّس

ومن وسائل الهيمنة على عقُولِ المواطنين: "التقليل من الجرعات الفكريّة والعلميّة لصالح ساعات الترفيه والمرح. والمتتبع لسلُوكِ مُعظم وسائل الإعلام حول العالم يشعرُ وكأنّها تخوض حرباً ضِدّ كُلِّ ما هو جادّ أو علميّ، لصالح ساعاتٍ طويلة من برامج الترفيه والمرح، بمختلف أشكالِها. ومع مرُورِ الوقت صار هذا هو السَّمْتُ العام لوسائل الإعلام الجماهيريّة، وصار الإعلام الجاد مع الوقت أكثر نخبويّة، بمعنى أنّهُ صار أكثر تخصُّصاً؛ وبات لا يجتذِبُ إلّا نسبة قليلة مِنَ المشاهدين"[22].

هذا، "وللتضليل الإعلاميّ وسائل وأساليب متنوعة؛ مثل: المطابقة المجتزأة، كثرة مصادر الخبر وتنوّعها، التلاعب بالألفاظ، التّكرار، التزوير والتحريف، التهويل الحِسيّ، العزف على

وتر الحِسّ الفنيّ، وغيرها. كما أنّ هناك علاقةً وطيدة بين التضليل الإعلاميّ وما يسمّى بالحربِ النفسيّة([٢٣])، الّتي تستخدم فيها أساليب الدعاية والوسائل النفسيّة والمعنوية من أجلِ التّأثيرِ في مشاعر العدوّ، وآرائِه، وسلُوكياتِه، واتجاهاته، بطريقةٍ تسهلُ الوصُول إلى الأهداف المحدّدة سلفاً. والحربُ النفسيّة، بالتّعبير الدّقيق، حسبما ورد في قاموس (كامبريدج)، هي: "استخدامُ الأنشطةِ الّتي تسبِّب الخوفَ والقلق لأعدائك؛ دون أنْ تُؤذيهم جسدياً". أمّا قاموس (كوبلد)، فقد عرّفها بأنّها "المحاولات الّتي تقومُ بها لتجعل عُدوَّكَ يَفْقِدُ الثقة، ويتخلّى عن الأمل، ويتملّكه الخوف؛ حتى تتاح لك فُرصة الفوز". والحربُ النفسيّة في قاموس (نيوورلد) هي: "استخدام الدعاية الإعلاميّة، وغيرِها من الوسائل الّتي يمكن لها أنْ تؤثر في الجماهير؛ وتتسبّب في خلط بالتّفكير لديهم، وقتل الرُّوح المعنويّة للعدوِّ المستهدَف". وتعدُّ الحربُ النفسيّة أخطر وأنكى من الحرُوب المباشرة في ساحات القتال؛ فحروبُ العقل أقوى من حرُوب الأسلحة. وقد أكّد (نابليون بونابرت) ذلِكَ بقولِه: "هناك قُوّتانِ فقط في العالم: العقلُ والسّيف؛ وعلى المدى الطويل؛ العقل دائِماً ما ينتصرُ على السّيف"([٢٤]).

ومن هُنا، فإنّ (الإعلامُ المسيّس) يرمي – في المدى القريب أو البعيد – إلى توجيهِ سلُوكِ الإنسانِ وتدجينه وترويضه لمصلحة القائمين عليه، والداعمين له. أمّا (الإعلان الموجّه)، فيُمكن وصفُه بأنّهُ علمُ اختطافِ عقلِ الإنسانِ لفترةٍ كافية لاستنزافِ المالِ منه"([٢٥])، وهو "أسلُوبٌ من أساليبِ الاتّصالِ بالجماهيرِ عن طريقِ اللّفظِ أو الإشارةِ أو العملِ الرّمزيِّ. وهي تثيرُ جوّاً مِنَ الإغراءِ أو الاستهواء بصرفِ النّظرِ عنِ الموضُوع الّذي ترمي إلى الاستمالةِ إليه، وتستخدمُ الدعاية كُلّ الأدواتِ المتاحة، وتتوغّلُ في جميعِ مظاهِرِ الحياة، وتغزو كُلّ مجالاتِ الفكرِ والعمل"([٢٦]). والدعايةُ: "هي الاستخدام المقصُود القائِم على التّخطيط لأيِّ صُورةٍ مِنْ صُورِ الاتّصال، بهدفِ التّأثيرِ في عواطِفِ النّاسِ وسلوكِهم اتجاهاتِهم النفسيّة، لتحقيقِ أغراضٍ مُحدّدة، تخدمُ مصالِح القائِم بالدعاية"([٢٧]). والإعلانات الّتي تُطلقها القنواتُ الإعلاميّة، إنّما تهدِفُ إلى "دفعِ الإنسان إلى مزيدٍ من الاستهلاك، وكأنّ الاستهلاكَ هو الهدفُ الرئيسُ، ورُبّما الوحيد من وجُود الإنسان في هذا الكون"([٢٨]).

والهدف من هذا الهجوم الإعلامي، هو إشاعة الأنموذج الاستهلاكي لتطويع الجماهير وتدجينهم وتنميطهم، بحيث يجد الإنسان العادي (وغير العادي) نفسه مُستبطناً لفكرة أنّ السّعادةَ لن تتحقق إلا عن طريق الاستهلاك، والمزيد من الاستهلاك، فيتوحّد تماماً بالسلعة، ويُصبح إنساناً (مُتسلّعاً) ذا بعد واحِد، غارقاً تماماً في السلعة والمادة، وفي حالة

غيبُوبة إنسانيّة كاملة. فما يسيطر على الولايات المتحدة هي الرؤية "الاستهلاكية المادية" حيثُ ينظر للإنسان باعتباره مجموعة من الاحتياجات المادية أو الجسدية"([٢٩]).

تنميط العالَم إلى وحدات متشابهة - متماثلة

فجوهر الإعلام في عصر العولمة هو "تنميط العالم بحيث يُصبح العالم بأسره وحدات مُتشابهة"([٣٠])، تجعلُ من الإنسان شيئاً جسمانياً اقتصادياً لا انتماءَ واضحاً له، ولا خصوصيّة ثقافية؛ لأنّ الخصوصياتِ الثقافية تعوق هذا الإنتاج العالمي([٣١]). فالإعلام لا يهدِفُ إلى صياغة العواطف والتأثير في المعارف فحسب، بل لديه رغبة في التأثير على السلُوك([٣٢])، عن طريق تصدير أنماطٍ معيّنة من الزي والمظاهر، تدفعُ المُقلِّد لها نحو تقليد نمط الحياة الغربيّ، بما يحتويه من أفكار([٣٣]). وبناءً على ذلِك، فإنّ "ظهور اللّباس الأفغانيّ، أو جماعات الإيمو، واللّباس الأسود، الّذي يُميّز جماعاتٍ مُوسيقيّة شبابيّة تُسمّى بـ(الهارد روك)، تُعَدُّ أحد تمظهراتِ التّأثير الّذي أحدثَهُ الإعلام، وهو ما يتمُّ عبر تقديمِ أنموذج مُتجانس للمنتجاتِ الثقافيّة والرمزيّة المقدّمة، وإدخالِها إلى مجالِ المنافسة، يتفاعلُ معها مُتلقّون من مرجعيّاتٍ ثقافيّة مُتنوّعة، تقومُ بعمليّة اختيار وتفضيل بين (القيم) المعرُوضة في السّوق، وتعملُ وسائِل الإعلام وسائِط أساسيّة في عمليّة النّقلِ هذه، مِمّا يُؤدّي إلى (خصخصةِ القيم) الّتي تتّسِمُ بالانتقائيّة والتّوفيقيّة"([٣٤]). فالشاشةُ الصّغيرة أصبحت اليوم تتحكّم بوعي الجماهير، بدءاً بالكلمة ومروراً بالصوت، وانتهاءً إلى عصر الصُورة التي سادت على الإعلام، والّتي تتعاملُ مع الحواس البسيطة لدى الإنسان، فلا تحتاج إلى كفاءة ذهنيّة، ولا إلى مخزونٍ ثقافيّ، صانعة - في الوقت نفسِه - مُشاهداً ذا عقلٍ سلبيّ، يستقبلُ الصُورة ويُقلِّدها بلا تفكير([٣٥]).

لذا، فإنّ الوسيلةَ الأسهل لتغيير إدراك الجمهور؛ هي "إغراقُه بمعلُوماتٍ كاذِبة تُجبره على تغيير تصوّره عن الواقع كما هو في الحقيقة؛ ليستبدله بصُورة أخرى زائفة"([٣٦]). هذا، ويتبنّى رئيس مركز السياسة الأمنية الأمريكيّة (فرانك جفني)، الذي يرفعُ شعار (فرض السّلام بالقوّة)، مقولة (ونستون تشرشل) - رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية - الّتي يقولُ فيها: "إن الحقيقة ثمينة جداً إلى درجة أنّه يجب حمايتها بموكبٍ من الأكاذيب!"([٣٧]). وقال (جورج أورويل) بحقّ: "كُلّما ازداد ابتعادُ المجتمعِ عنِ الحقيقة، ازدادت كراهيته لِمَنْ يقولُون الحقّ"(٣٨). وأكّد (أورويل) أيضاً؛ بقولهِ إنّ: لغةَ السياسةِ تمّ تصميمُها لتجعلَ الكذبَ يبدُو صادِقاً، والقتلَ مُحْتَرَماً! وأنا أضيفُ: والبرئ مُذنباً، والمذنِبَ بريئاً، والجلاّد ضحيّة، والضحيّة مُجرِماً، والخائِن وطنيّاً، والوطنيّ منبُوذاً، كلُّ ذلِكَ مِنْ خلالِ

ثقافةٍ مرئيّةٍ عَرَضيّةٍ مُسَطّحة، تُقدِّمُ وجباتِها على طبقٍ مِنَ الإغراءِ والمتعةِ والإثارة! أمّا العقلُ المدرِكُ فقد تمَّ تجميدُه في ثلاجةِ الإعلامِ المسيّس، فأصبحَ مُغلقاً لا يعي ما يدورُ حولَهُ مِنْ مُستجدات، ولا يفهمُ ما دونهُ مِنْ ما جريات!

والإعلام الأميركي هو أهمُّ آليّات الإمبريالية النفسية، وأنجح الوسائل في تفريغ الإنسان الأميركي والهيمنة عليه، وتصعيد حراراته الجنسية والاستهلاكية. وهو إعلام ذكي إلى أقصى حدّ، فهو لا يكذب قط، وإنما يجتزئ الحقيقة. ويوجد تعبير باللغة الإنجليزية هو (true lies) (أكاذيب حقيقية)، بمعنى أنه يمكن تمرير الأكاذيب عن طريقة إخفاء جزء من الحقيقة([٣٩]). ومن المعلُومِ أنّ إخفاءَ جُزءٍ مِنَ الحقيقة يؤدِّي إلى تشويهِها، وإهدارِ غائيّتِها!

وصناعةُ المعلُومات الكاذبة هي استراتيجية تعمدُ – أحياناً - إلى خدعة المشاهد باختزالها الواقِع في صُورةٍ صغيرة، ومِنْ ثَمَّ تضخيمها وتصوّيرها بما يفوق قدرها؛ لإيهام المشاهد أنّ ما تمثله هذه الصُورة هو الحقيقة الطاغية وليس استثناءً، فيتمّ تنميطُ الجمهور وهندسته في قالبٍ واحِد، سواء أكان ذلك لتعزيز توجّه سياسي، أو ترسيخ قيمة أخلاقيّة معيّنة، وهي القولبة التي لا تعتمدُ على الدعاية الإعلاميّة وحدها، وإنما تتجاوزها إلى القوى الناعمة من خلال وسائل التّرفيه([٤٠]).

والحق "أنّ بحرَ وسائلِ التّضليل والتلاعب الإعلامي لا ساحِلَ له، والخوض فيه لمن لا يملك أدوات الإبحار فيه لا أمان منه. وفي زمن العولمة، والتطوّر الإعلامي المتسارع، قد يُمسِك المتحكّم بوسائل الإعلام بخناقك، وأنت تظنّ أنّك مُتحرّر من قبضته، وقد يكون ملعُوباً بعقلك، ومفتولاً حولك حبل تضليله، وبالرّغم من ذلك يخال لك أنك إنما تنصرُ ربّك وتنتصر لدينك!"([٤١]).

فنحنُ إذاً، ضحيّة هذهِ الأفكار المعروضة يوميّاً على طبقٍ مِنَ الإغراءِ والإثارة، الّتي تهدفُ منها الحكومات إقناع الجمهور، ومِنْ ثَمَّ التأثير فيه. ففي (الاستراتيجية الإقناعية)، فإنّ الهدفَ الّذي يرمي المرسِل إلى تحقيقِه مِنْ خلالِ خِطابه، هو إقناع المرسَل إليه بما يراه؛ ذلِكَ أنّ إقناعَ المرسَل إليه هدفٌ خِطابيّ يسعى المرسِل إلى تحقيقِه في خِطابه. وقد تزدوجُ أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكونُ إذ ذاك أقدر على التّأثيرِ في اعتقادِ المخاطَب، وتوجيه سلُوكِه، لما يهبها هذا الإمتاع من قُوّة في استحضارِ الأشياء، ونفوذ في إشهادِها للمخاطَب، كأنّهُ يراها رأي العين([٤٢]).

والإقناع عند (هنريش بليث) يتلخّصُ في "قصدِ المتحدِّث إلى إحداثِ تغييرٍ في الموقِف الفكريّ أو العاطفيّ عند المتلقّي"([٤٣]). فإقناع المخاطَب، وتغيير سلُوكِه، أو فكره، أو التّأثير فيه، هي عمليّة مقصُودة([٤٤]). وقد حدّد (حازم القرطاجنيّ) مفهُومَه في كتابه؛ بقولِه: "هو

حملُ النّفُوسِ على فعلِ شيءٍ أو اعتقادِه، أو التخلّي عن فعلِه واعتقادِه"([٤٥]). ويعـدُّ التّـأثيرُ في المخاطَب هو الغايةُ الأهمُّ للإقناع. هذا، "ويُمكن أنْ يؤدِّي الإقناع إلى التّأثيرِ، كونه وسيلة لتغييرِ مُعتقدِ المتلقّي وفكرِه، ومِنْ ثَمَّ التّأثير في سلُوكِه"([٤٦])، فالإقناعُ هو أحدُ وسائِل التّأثيرِ العقليّ؛ فالتّأثيرُ إذاً، هو الغايةُ والإقناعُ يكون وسيلةً له([٤٧]).

فمشاهدة مادّة واحدة، مرّةً أو مـرّتينِ في الأسـبوع، لمـدَّة (٢٠) دقيقـة، سـتكون بمثابـة البوابة الّتي تقتحمُ عقولنا وتحقّق الهيمنة عليها، سـلباً أو إيجابـاً. والـدّليلُ عـلى ذلِـكَ، أنّ أفكارَنا ومناقشاتِنا أصبحتْ مُتشابهةً نتيجةَ تلقّي معلُوماتٍ مِنْ مصـادِر مُماثلـة، وهـو مـا يُؤدِّي إلى التسطيح المعرفيّ والجهل الثقافي الّذي أصبحنا نعاني منه في هذا العصر المأزوم!

ظاهرة التكيُّف الطوعي مع التخلّف القسري

ومِنْ هُنا علينا أن نعلمَ جيِّداً أنهُ "ليسَ من علاماتِ الصِحّةِ العقليّة أنْ يتكيَّفَ المرءُ معَ مُجتمعٍ مريض"([٤٨])! فليسَ مِنْ علاماتِ الصحّةِ أنْ تفكِّرَ مِثلما يفكِّرُ المجتمع، وتقرِّرُ مِـثلما يُقرِّر هُوَ، وتتبنّى ما يتبنّاهُ مِنْ آراءٍ وأفكار. وإنّما من أَمَاراتِ الصحّة العقليّة أنْ يكـونَ لـكَ رأيُكَ الّذي يعبِّرُ عنكَ، وأن يكون لكَ فكرُكَ الّذي انبثقَ مِنْ عقلِكَ نتيجـةَ المنطـقِ والبُرهـان والحُجَّةِ والبيان. فـ"أكبرُ تنازُلٍ تُقَدِّمُه في حياتِـكَ هُـوَ أنْ تتـأقلَم"([٤٩])، و"أصـعبُ معركـةٍ في حياتِكَ، عندما يَدْفَعُكَ النّاسُ إلى أنْ تكونَ شخصاً آخَر"([٥٠]).

وتعزيزاً لهذهِ الأفكار يقول (يوهان غوته) إنهُ: "لا توجَدُ عبوديّـة أسـوأ مِـنْ أنْ تعتقِـدَ واهِماً أنّكَ حُرٌّ، وأنتَ في الحقيقةِ لا تملِكُ قرارَ أيِّ شيءٍ في حياتِـك"([٥١])! وإنّ التكيُّـف عـلى طقُوسِ العبُوديّة للأهواءِ والشّهوات، تجعلُكَ تُدافِع عن عبوديّتِكَ هذهِ، وتقاتِلُ من أجلِها. وما أَروع ما قيل في هذا المعنى: إنّ السماءَ لَوْ أمطرت حُريّةً، لرأيتَ بعضَ العبيدِ يحمِلُـون المظلاّت! فـ"العبيدُ - بتعبيرِ فـؤاد زكريّـا - لا يُنـاصِرُون التغيـير؛ لأنّهُـم يظنُّـون أنفسَـهُم في الوضعِ الأفضل، مَهْمَا كانتْ أوضاعُهم سيّئة". وقد قيل: إنّهُ مِـنَ السّـهل الإطاحـة بالطغـاة، لكن مِنَ الصّعبِ تغيير تفكير مُجتمعٍ تعوَّد على عبادةِ الأصنام! وعلى هذهِ الفكرة أكّـد (د. عـلي شريعتـي) بقولِـه: "مُشـكلتُنا في الثـورات، أنّنـا نطـيحُ بالحـاكِم، ونُبْقِـي مَـنْ صَـنَعُوا دكتاتوريّتَه، لهـذا لا تـنجَحُ أغلـبُ الثـورات، لأنّنـا نُغـيِّرُ الظّـالِم ولا نُغـيِّرُ الظُّلْـم". كـما "أنّ التهديداتِ الإلهيةَ لا تردع الظالم عن ظلمه، فهـو حـين يظلـم لا يـدري أنّـه ظـالِم، إذ هـو يُسوّغ ظلمَه ويُبرّره ويتأوّل فيه فيجعله عدلاً"([٥٢]).

وقد وجدنا نماذج ضافية من هذهِ العبوديّة الشائنة في عصرِنا الرّاهِن، ووجدْنا الكثيرين من أنصارِ هذهِ العبُوديّة الّتي يقاتلون من أجلِ بقائِها، بل ويقدِّمون دماءَهم رخيصة عـلى

مذبحِ أسيادهم الّذين ألزموهم بشروط الطّاعة العمياء، فـ"هُناكَ مَنْ يُناضِلُ مِنْ أجلِ التحرُّرِ مِنَ العبوديّة، وهُناكَ مَنْ يُطالِبُ بتحسينِ شرُوطِ العبوديّة![٥٣]. فـ"الحرُّ يُدافِع عنِ الفكرةِ، مهما كان قائِلُها، والعبدُ يُدافِعُ عنِ الشّخصِ، مهما كانتْ فكرتهُ!". ويُحْكَى أنّ عبداً فازَ على خصمهِ في مُبارزةٍ، وكانتِ المكافأةُ "حُريّته، وكثيرٍ مِنَ المال"!، وعندما سُئِلَ: ماذا ستفعلُ بكُلِّ هذا المال؟ قال: سأشتري سيِّداً يُعامِلُني برفق! ومِنْ هُنا "يصعبُ على المرءِ أنْ يُصدِّقَ كيفَ أنّ الشّعبَ متى تمّ إخضاعُه يُسارِع إلى السقُوطِ فجأةً في هُوّة النسيان العميقة لحُريّته، حتّى ليمتنعَ أنْ يستيقِظَ لاستعادتِها، ويُقبل على الخدمة بحُريّة وتلقائيّة، حتّى ليظنّ مَنْ يراهُ أنّهُ لم يخسرْ حُريّتَه، بَلْ رَبِحَ عبوديّته"[٥٤]. ونحنُ لا نعدم في عصرِنا هذا من ذكرِ نماذج وافية ضافية من هذهِ العبُوديّة الطوعيّة – المختارة، تلك العبُوديّة الّتي تمّت صناعتُها وصياغتُها من خلالِ الوسائِل السمعيّة والبصريّة لأغراضٍ ميكافيلليّة نفعيّة مقصُودة!

إذا اتفقَ السياسيُّون سرَقُونا، وإذا اختلفُوا قتلُونا

وعليه فـ"إنّ الشّعبَ هو الّذي يرضى ببُؤسِه، لا بل يسعى وراءَه... ثمّ ما الّذي هو أعزّ على الإنسانِ مِنْ أنْ يستردّ حقّه الطبيعي، وبعبارةٍ أُخرى أنْ يعُودَ إنساناً بعدَ أنْ أصبحَ حيواناً"[٥٥]، يستجدي من حُكّامه لقمة عيشٍ سرقوها منه في وضح النّهار. وهناك مقولةٌ جامِعة تصوِّر حالنا أفضل تصوير، وهي: "إذا اتّفَقَ السيَّاسيُّون سَرَقُونا، وإذا اختلفُوا قَتَلُونا"، ألا نرى ذلِكَ اليوم بأمِّ أعيُننا، ألا نرى كيف أنّ اختلافَ السياسيِّين يفضي دائِماً إلى إشعالِ حرُوبٍ غير عادِلة، وإذا ما اتّفقُوا وراءَ الكواليس فإنّهم يتاجرون بموارد الشعب الاقتصاديّة. وفي هذا المعنى قال جورج أورويل: "السياسيُّون في العالَم كالقرُودِ في الغابة: إذا تشاجَرُوا أفسدُوا الزَّرْعَ، وإذا تَصَالَحُوا أكلُوا المحصُول". وعندما يُشعلُ السياسيُّون الحرُوب، بعد اختلافِهم في المصالِح، يُسْتَدْعى الفقراءُ للدِّفاعِ عنِ الوطن، فيُزج بهم في محرقةِ حربٍ ضروس لا ناقةَ لهم فيها ولا جمل. وعندما تضعُ الحربُ أوزارَها، وتنتهي المعارِكُ بانتصارِهم على أعدائِهم، يُتَوّجُ الأغنياءُ، وتُعَلّق الأوسمةُ والنياشين على صدُورِ هؤلاءِ القادة والسياسيِّين. وإذا رُمْنا شاهِداً حيّاً على ذلِك؛ يكفينا أنْ نستدعي صُورة تلك المرأة الّتي كانتْ تُلوِّح بصُورةِ ابنها الفقيد - في أثناءِ الحربِ العالميّة الثانيّة – فسارعتْ نحو قائدٍ عسكريٍّ، وقالت له: "هذا ابني يا سيّدي: الحربُ انتهتْ وهو لم يعدْ! مسكينةٌ هذهِ الأم، لا تعلمُ أنّ الحرُوبَ لا يعودُ منها إلاّ قادتُها". وأنا أضيف: وإذا عادُوا تُوِّجَ النصرُ باسمِ القادة، وليسَ بأسماءِ الّذين فُقِدُوا! كما أنّ "التّاريخَ لا يتذكّرُ الجنودَ، التّاريخُ يتذكّرُ

المُلُوكَ فقط!"([٥٦]). وفي مواسِم الانتخابات يتنافسُ السياسيُّون في إغراقِ المواطنين بالعهود المغرية الواهِمة، والوعُودِ المعسُولة الكاذِبة، الّتي لم تعد تنطلي إلّا على الدّهماءِ والسذج. وما أجمل ما صوّرَهُ (نيكيتا خروتشوف)؛ بقولِه: "السياسيُّون كُلّهم مُتشابِهون، فَهُمْ يَعِدُونكَ ببناءِ جِسْرٍ حيثُ لا يوجَدُ أصلاً نَهْرٌ"! لِذا فإنّ انتخاباتِهم محسُومة نتائِجُها سلفاً، بحيث لا تأتي بالتغيير الحقيقي، أو بالأصحِّ لا يريدُون التّغييرَ أصلاً. وفي هذا قال الكاتب الأمريكيّ (مارك توين): "لو كان التصويتُ يأتي بالتّغيير، لما سَمَحُوا لنا به!"([٥٧]).

لقد أصبح همُّنا اليوم مُراقبة الحكومة، ولكن في بيوتِنا. ومُحاسبتها، لا في البرلمان، وإنّما في المقاهي ومجالِس الأُنس والمسامرة. لقد أصبحنا حقّاً مجرّد آلاتٍ حاسبة لواردات الحكومة، ونفقاتِها. فنقف أمام الأرقام مذهولين مشدوهين، فلن يبقى لنا من الإجراء الحسابي سوى الحزن والألم والأسى والحسرة. حتّى أصبحنا يومياً نحسِب ونُحصي ما يدخلُ في جيوبِ حكومتِنا الموقّرة، فتضنّ علينا بالإنفاقِ طمعاً وجشعاً، ولكنّها لا تني في صرفها في مجالاتٍ فنيّة مُهمّة، ترقّق الذوق، وتلطّف الإحساس!! ففي زمن الفَقْر المدقع، أصبحتْ حكومتنا سخيّة على الفنّانين والفنّانات، وكريمة في الإنفاقِ على حفلاتِ الرّقص الماجنة في ليلة رأس السنة الميلاديّة، وغيرها من المناسبات المتخمة بالسرف والبذخ والترف، فتجدُ العري معرُوضاً على طبقٍ مِنَ الإغراء، وتبث عبر القنوات الفضائيّة، في وقتٍ لا يجدُ فيه المواطنون لقمة عيش تسدُّ كفافهم، ولا تجدُ من لدن الحكومة استراتيجيّات عمليّة ناجِعة، سِوى القيام بإجراءات تقشفيّة قاسية جدّاً بحقّ المواطِن المسكين الأعزل.

الإعلام المسيّس وأثره في صناعة النجوم

ومِنَ المؤسِي حقّاً أن نقرِّرَ هُنا أن واقِعَنا الرّاهن يؤكّد هذهِ الحقيقة الدّامغة التي أومأنا إليها آنفاً، ويثبتُ بالدّليلِ القاطِع أنّ الطلبةَ والطالباتِ أصبحُوا مُغْرَمين بالممثلينَ والممثلات، والمطربينَ والمطربات، فضلاً عن اللاعبين واللاعبات، وجعلُوا من هؤلاءِ مثلَهُم الأعلى في حياتِهم العمليّة؛ نتيجةَ هذا القصف المستمرّ من ذلِكَ البث الإعلاميّ غيرِ الهادِف عبر الشاشةُ الصّغيرة، الّتي زيّنتْ صورتهم، وضخّمت سيرتهم، وجعلتهم نجوماً يُقتدَى بهم. أمّا العلماءُ، والمدرِّسُون، فقد أصبحُوا مثارَ سُخريتهم، وتندّرهم، ومصدرَ شفقتهم؛ فَهُمْ لا يَمْلِكُون حذاءً جديداً، ورُبّما يلبسُون - على مدارِ عامٍ كامِل - رداءً واحِداً مُتهالِكاً! وعربتُهم العتيقة الّتي يستقِلّونها لم تتغيّر، فهي ما زالتْ تترنّحُ في طريقِها كالسُلحفاةِ المتثاقلة. يقول (براين غرين): "حينَ يبدأُ أطفالُنا بالنّظرِ إلى العُلماءِ كقدوةٍ ومَثَلٍ أعلى، كما ينظرُون الآن إلى المطربينَ والممثلينَ، حينها فقط ستبدأُ حضارَتُنا بالتطوُّر نحو مرحلةٍ جديدة!". أمّا إذا

نظرُوا إلى عُلمائهم هذهِ النَّظرةَ - الّتي ذكرناها -، فإنّ العصُور الحجريّة ستكونُ في انتظارِنا على أبوابِ مُستقبلِنا الآجل، وخاصّةً إذا عرفنا أنّنا أمّة تلبسُ مِمّا لا تنسج، وتأكلُ مِمّا لا تزرع، وتشربُ مِمّا لا تعصر! فنحنُ مجتمعٌ استهلاكيّ إلى درجةٍ أصبحنا معها عالةً على الكوكبِ الأرضيّ، نستهلكُ فقط دون أن نُنتج شيئاً لأبنائِنا وأحفادِنا.. وفي هذا المقامِ تحضرُني مقولةَ المفكِّر (ياسِر حارب)؛ وهِيَ أنّ "المجتمعَ الّذي يتنافَسُ أفرادُه على شراءِ الكُتُب، لا بُدَّ أنْ يتفوّقَ على المجتمعِ الذي يتنافَسُ أفرادُه على شراءِ الهواتِف النقّالة"! هذا هو الحكمُ الصحيح على المجتمعات، ولهذا؛ قيلَ لأرسطو: كيفَ تحكمُ على إنسانٍ؟ فأجابَ: أسألهُ كَمْ كتاباً يقرأ، وماذا يقرأ! ويُروى أنّ رَجُلاً كان يَتَبَخْترُ أمام سُقراط، مُتباهياً بجمالِ هيئتِه، وأناقةِ مظهرِه، فقالَ لهُ سُقراط: تكلّم حتّى أراك! فقيمةُ الإنسانِ في مخبره، وليسَ في مظهره، ورُقي الأممِ في رُقي الكتبِ التي تقرأها، وهذا ما أكّدهُ (نزار قبّاني)؛ بقولِه: إذا أردتّ أنْ تعرفَ رقيَ أُمّةٍ، فانظرْ إلى الكتُبِ التي تقرأها! ففي الدولِ العربيّة أكثرُ الكتُبِ مَبيعاً هِيَ كتُبُ الطّبخ وتفسير الأحلام، وهذا دليلٌ على أنّنا أمّةٌ تأكلُ وتنام! وفي هذا المعنى قال الدكتور (علي الوردي): "أُمّةٌ تأخذُ دينَها من مُفسّري الأحلام هي قطعاً أمّةٌ نائمة"! فهناك فرقٌ شاسِع بينَ أُمّةٍ مشغُولةٍ بتفسيرِ الأحلام، وبينَ أُمّةٍ مشغُولةٍ بتحقيقِها! وهناكَ بَوْنٌ واسِع بين مجتمعٍ يَزْدري القراءةَ، ويسخرُ مِنَ القُرّاء، وقد لا يرى أفرادُه المكتبةَ طيلةَ حياتِهم، وبينَ مُجتمعٍ القراءَةُ ديدنُه، والكتابُ أنيسُه، والمكتبةُ صومعتُه!

القراءة الواعية: الحصن المعرفيّ لغارات الإعلام المسيّس

لا جَرَمَ أنّ الحضارةَ كامِنةٌ في القراءة؛ لهذا كانتْ أوّلُ كلمةٍ أُلقيت على رَوْعِ الرسُولِ الكريم (عليهِ الصّلاةُ والسّلام) هِيَ كلمةُ (اقرأ).. فبالقراءةِ تتوسَّعُ آفاقُنا، وتتعمَّقُ أفكارُنا، وتسمُو مداركُنا، وتتحرّرُ إراداتُنا، فـ"القراءةُ فعاليّةٌ نظرَ إليها الحاكِمُون بعينِ الفتُورِ دائِماً. لم يأتِ مِنْ قبيلِ الصُدفةِ تمريرُ القوانين ضِدّ تعليمِ العبيد القراءةَ في القرنِ التّاسِع عشر، حتّى قراءة الكتاب المقدّس، فَمَنْ يستطيعُ أنْ يقرأَ الكتابَ المقدّس؛ سيتمكّن أيضاً من قراءةِ كُرّاسٍ يدعُو إلى إلغاءِ الرقّ. إنّ الجهود والحِيَل التي اجترحها العبيدُ ليتعلّمُوا القراءةَ؛ بُرهانٌ دامِغ على العَلاقةِ بينَ الحريّة المدنيّة وسُلطة القارئ، ودليلٌ على الخوفِ الّذي تثيرهُ تلكَ الحريّة وتلكَ السُلطةِ في نفُوسِ الحُكّام، على ضروبهم كافّة"(٥٨).

هذا؛ وقد نظرَ (كوندرسيه) إلى التعليم على أنّهُ الوسيلةُ الأساسيّة للتقدُّم؛ لأنّهُ يقومُ على تربيةِ العقلِ، وتفجيرِ طاقاتِه في الكشفِ عن قوانينِ الطبيعة، كما يقومُ على إرساءِ أرضيةٍ للتنافُسِ الاجتماعيّ على أساسِ الأهليّة العقليّة، تفتحُ البابَ أمامَ الجميع لتحقيقِ

المساواةِ والعدالة، وتكافؤ الفُرَص. باختصار كانتْ قيمةُ التعليمِ كُلُّها نابعةً مِنْ فكرةِ الحُريّة الّتي يُعطيها للفردِ وللمجتمع، وهو رمزُ هذهِ الحريّة التي تقفُ على طرفٍ نقيض مِنْ نظامِ الطوائِف والطبقاتِ المغلقة والثابتة الّتي قامَ عليها النظامُ الإقطاعيّ. ولأنّ التعليمَ هُوَ الحُريّة، فهو أيضاً وبالضرورةِ أصلُ التقدّم وقاعدته(٥٩).

لذا؛ فما أحرى بنا أن نجعلَ فِكْرَنا مُضيئاً بشعلةِ القراءة وزناد التفكير! حتّى تتوسّعَ أفكارُنا، وتضيقَ عباراتنا، ولهذا قال (النفريّ): "كُلّما اتّسَعَتِ الفكرةُ ضاقتِ العبارةُ"، فالقراءةُ المتعمِّقة هي الحِصْن الحصين الّذي يحولُ دون تغييبِ عقولِنا وتخديرِها بجرعاتِ الإعلامِ المسيّس. وفي هذا قال (نيكولا تيسلا)(٦٠): "واحدة من أكثر النتائج المرضية للتطوّر الفكريّ؛ هو الانفتاح المستمر نحو آفاقٍ جديدة وأكبر".

ومن المعلُوم كما قال المفكّر البوسني (علي عزت بيجوفيتش): إنّ "القراءة المبالغ فيها لا تجعلنا أذكياء، بعضُ النّاس يبتلِعُون الكتب؛ وهم يفعلُون ذلك بدون فاصل للتفكير، وهو ضرُوريّ لكي يُهضم المقروء، ويُبنى، ويُتبنّى، ويُفهم. عندما يتحدّث إليك النّاس يخرجون من أفواههم قِطعاً من (هيجل)، و(هايدجر)، أو (ماركس)، في حالة أولية غير مصاغة جيِّداً.. عند القراءة، فإنّ المساهمة الشخصية ضرُوريّة مثلما هو ضرُوريّ للنحلة العمل الداخليّ، والزّمن، لكي تحوِّلَ رحيقَ الأزهار المتجمِّعة إلى عسل".

فالقراءةُ - بعبارةِ (جون لوك) - تمدُّ العقلَ بمادّةِ المعرفةِ، ولكنّ التفكيرُ هُوَ الّذي يجعلُنا نملكُ ما نقرأهُ. ومن يريدُ معرفةَ نفسهِ، فليفتحْ كتاباً. والكتابُ الجيِّد هو الّذي يُحَفِّزُنا إلى العمل. فـ"اجعل ما في كتُبِكَ رأسَ مالِكَ، وما في صدرِكَ للنفقة". والقراءةُ - بتعبيرِ بنجامين فرانكلين - تصنعُ رَجُلاً كاملاً، والتأمّلُ رَجُلاً عميقاً، والمحادثةُ رَجُلاً واضحاً. هذا، وقد قيلَ لسُقراط: أَمَا تخافُ على عينيكَ مِنْ إدامةِ النّظرِ في الكُتُبِ؟ قال: إذا سلمتِ البصيرةُ لم أحفَلْ بسقامِ البَصَر! فالكتبُ هي ثروةُ الدنيا المخبوءة، وميراث الأجيال والشعُوب، وهي إرثُ الإنسانيّة الأعظم، وهي وسيلةٌ للتفكيرِ الأصيل، ومُستودع المعرفةِ الرّصينة، ومعلِّمُ الإنسانِ الصّامِ.

ولكنَّ الكتُبَ في عالمِنا اليوم أصبحتْ تندبُ حظّها؛ بعد أنْ تركها النّاسُ من أجلِ شبكاتِ التواصُلِ الاجتماعيّ، التي تقتلُ الوقتَ والتفكيرَ معاً، وتسهمُ في اعتقالِ وعي الجماهير، ووضعه في مُعتقلاتٍ أيديولوجيّة، وبالتالي تعليبهِ بقوالِب مُعلّبة ممهورة بـ(ماركاتٍ) حكوميّة مُسجّلة! وإلى هذا المعنى ذهب (مصطفى محمود) مُؤكّداً بقوله: "إنّ الكتابَ الجيِّد يُحَرِّرُ الإنسان الّذي يقرأهُ، أمّا التلفزيون الجيِّد؛ فيعتقلُ الإنسانَ الّذي يُشاهِدُه!".

استراتيجيّة سقراط في التوثيق من الخبر، وامتحان صحته

ومن هنا تقتضي الضرورة المعرفيّة أنْ يُوجّه المفكِّرون طاقاتِهم مِنْ أجل شحنِ العقولِ من جديد بالفكرِ الواعي الأصيل، حتّى لا يكونَ النّاسُ ضحيّة سهلة لهذهِ القنواتِ المؤدلجة، وتحصينهم من التّضليل والتّزييف والتّحريف الإعلامي. وما أحرى أنْ نستفيد في هذا المجال باستراتيجيّة (سقراط) في التوثيق من الخبر. ويُحكى في هذا الصّدد أنّ أحد الأشخاص زارَ الفيلسوف الكبير (سقراط)، وبعد التحية والسلام قال له: "عزيزي سقراط، هل سَمِعْتَ ما يقولُون عن صديقِك؟". أجابه سقراط: "لا"! وعلاماتُ الدّهشة مُرتسمة على وجهه، ولكن قبلَ أنَّ تقصَّ عليَّ خبرك، قل لي: هل مرّرت قِصّة صديقي عبر المصافي الثلاثة. "مصافي!" أيّ "مصافي"، أجابَه الضيف بدهشة! نعم، قبلَ أنْ يحكي الإنسان أيَّ شيء عن شخص آخر لا بُدَّ من تصفيته ثلاث مرّات. المصفاة الأولى: هي مصفاة الحقيقة، فهل تحقّقت من أن ما تريد إخباري به هو الحقيقة؟ فأجابه: لا، ليس بالضبط، لم أرَ الشيء بنفسي، سَمِعْتُه فقط. فقال سقراط: حسناً، أنت لا تعرفُ إذن إنْ كانتِ الحقيقة، فلننظرِ الآن إلى المصفاة الثانية، وهي مصفاة الخير، هل ما تريد أن تخبرني به عن صديقي خير؟ فأجابه الرّجُل: آه، لا، بَلْ على العكس سَمِعْتُ أنَّهُمْ يقولُون عن صديقك أنَّه أساءَ التصرّف. فاستنتجَ سقراط مِنْ ذلِكَ بقولِه: إذن تريدُ أنْ تحكيَ لي أشياء شرّيرة عنه، وأنت لا تعرفُ إذا كانت حقيقيّة أم لا، هذا لا يُبشّر بالخير، ولكنّك تستطيع أنْ تُكمِل الاختبار، وما زالت أمامَك، المصفاةُ الثالثة، وهي مصفاة الفائِدة: ترى هل من المفيد أنْ تُخبرني بما فعلَ صديقي؟ فأجابَه: مفيد؟! لا، في الحقيقة لا أعتقد أنّه مفيد. فعلّق سقراط بقولِه: إنّ ما ستقولُه عن صديقي ليس حقيقة، ولا خيراً، ولا فائدة فيه، فَلِمَ تريد إذاً أنْ أسمعَ منك؟ من الأفضل أن تنسى كُلَّ هذا". وتعليقاً على هذه المحاورة المعرفيّة، فقد قيل "إن الكثير منّا لديه حبّ الاستطلاع، ولذا ترى بعضهم يسعى دائماً لملء رغباتِه بالاستماع لأيِّ شيءٍ عن الآخرين، وفي كُلِّ يوم تغرقنا وسائلُ الإعلام المتنوّعة بسيلٍ عرم من الإشاعات والأخبار والدعايات. ترى ماذا لو طبّقْنا مبدأ المصافي الثلاثة، فكم ستبقى لدينا من خبرٍ صحيح وجيِّد ومُفيد، طبعاً ليس الشيء الكثير"([٦١]). ومن هُنا، فإنّ الكثير والكثير مِنَ الأخبار الّتي نتلّقاها يوميّاً إذا وضعناها تحت محكِّ هذهِ المصافي الثلاث تكون بمثابة مفترياتٍ أو مختلقاتٍ ليس لها أساسٌ من الصِحّة والسّلامة والمصداقيّة.

والسؤالُ المطرُوح هنا: كيف يستطيع الإنسان البسيط والمواطِن المقهُور أصلاً التمييز بين الخبر والدعاية والإشاعة، والتفريق بين الخبر الجيِّد والخبر السيئ، والخبر التافه المغلّف بشيءٍ من الأهمية، وكيف يمكنه الصمُود وسط بنية اجتماعيّة ساكنة، هاجسُها الرئيسُ

هو ملء البطُون والجنس والثرثرة في أحاديث فارِغة، واجتراره لقتل الوقت في مُتابعة قنواتٍ إعلاميّة غير هادفة، قنوات لا تني في تحويل الإنسان إلى كائنٍ سلبيّ لا أمل فيه، أو إلى سلعة استهلاكيّة؟([٦٢]). لا شك أنّ الإنسان الواعِي يُمكنه أنْ يميِّز بين الخبر والدعاية، ويفرّق بين النصِّ المهم والبثّ التافه، إذا ما وضعها على محكِّ العدلِ والتّجريح، والنقدِ والمساءلة، وبإمكان كُلِّ إنسانٍ أنْ يفعلَ ذلِك عن طريقِ التّقليلِ من ساعاتِ تلقِّي الأخبارِ العرضيّة والإعلاناتِ التّافهة التي تقتلُ أثمن أوقاتِنا، وتجعلنا أسارى حاجاتِنا الاستهلاكيّة - الكماليّة، وحيثُ يكون التّضليل الإعلامي موجُوداً، تكون الهيمنة الاجتماعيّة قائِمة.

المعلِّم النّاجح: أس النهضة وقاعدة التحصين المعرفي

يُعَدُّ المعلِّم الحقيقيّ مِنْ أهمِّ أدوات إنتاج الوعي وتسويقه في وسط طلابه، وجعلهم يُدركون ما يدورُ حولَهُم من أحداث، وهو القاعدة المتينة التي تسهّل مهمّة الإقلاعِ الحضاريّ. ومن أراد أنْ يُدشِّن نهضة حضاريّة، عليه أنْ يبدأ بالمعلِّم وتنميةِ قدراتِه ودعمه ماديّاً ومعنويّاً. وما أحرى بنا أنْ نقتديَ - في هذا المجال - بمؤسِّسِ نهضةِ سنغافورة الجديدة (لي كوان يو) - رئيس وزرائها الأسبق – الّذي قال: أنا لَمْ أَقُمْ بمعجزةٍ في سنغافورة، أنا فَقَطْ قُمْتُ بواجبي نحو وطني، فخَصَّصْتُ موارِدَ الدّولةِ للتعليم، وغيَّرْتُ مكانةَ المعلِّمينَ من طبقةٍ بائِسة إلى أرقى طبقةٍ في سنغافورة. فالمعلِّمُ هُوَ مَنْ صنعَ المعجزة، هُوَ مَنْ أنتجَ جيلاً مُتواضِعاً يُحِبُّ العِلْمَ والأخلاقَ، بَعْدَ أنْ كُنَّا شعباً يشتمُ بعضهُ بعضاً في الشّوارِع!

ومِنْ هُنا، فما أحرى بمُنتجي الفكر، ومُنظِّري المعرفة، أنْ يُوجّهوا النّاسِ جميعاً إلى القراءةِ العميقة المتفحّصة؛ لأنّها تمثِّل أسُّ التعليم الصحيح. وقبل ذلك لا بُدّ من إعادةِ الاعتبار للمعلِّم ومكانتهِ الاجتماعيّة، "فقد أصبح المعلِّمُ اليوم الأنموذج الاجتماعيّ الرديء، الفقير، المهزُوم، الّذي يدفعهُ العَوَزُ، إلى مواقِفَ ومُمارساتٍ، قد تزري بالقضية التعليميّة"([٦٣]). فالمعلِّمُون في بلادنا - ببالغِ الأسى والأسف - قد أصبحُوا مِنَ الأصناف التي تستحقّ الزكاة؛ ولهذا قيل: "ماذا تتأمَّلُ من مُجتمعٍ يكونُ فيهِ المعلِّمُ والمدرِّسُ والأُستاذ الجامعيّ مِنَ الأصناف الذين يستحِقُّون الزكاة. إنّها همجيّةُ الاستخفافِ بالعِلْم!". وفي هذا المعنى قال المفكّر الشهير (علي شريعتي): المعلِّمون في بلادي بُؤساء، أتعرِفُ لماذا؟ لأنّ حُكّامَنا طُغاة، والطّغاةُ عبرَ التّاريخ ضِدّ تعليمِ الشّعب، مهما ادّعوا. فالتعليمُ يعني الوعي، والوعيُ يدفعُ الشّعبَ للمطالبةِ بالحقُوقِ، ومُحاسبةِ الحُكّام! فَمَنْ يَصِلُ إلى السّلْطةِ

مُعتمِداً على جهلِ الشّعب، لَنْ يهتمّ مُطلقاً بالتّعليمِ والمعرفة لشعبه؛ لأنّ تنويرَهُم وتعليمَهُم هو نهايته! فـ"كلُّ ما يتطلّبهُ الطغيان؛ هو بقاءُ ذوِي الضّمير الحي صامِتين".

فالمعلِّمُ والمدرِّسُ والأستاذ الجامعيُّ بدأوا يشعرُون اليوم، أكثر من أيِّ يومٍ مضى، أنّه لم يعدُ لشهادتهِم قيمة، وأصبحوا يتجرّعون تلك الحقيقة المرّة التي أُعلن عنها مُؤخّراً؛ وهي أنّ "الشهادةَ الجامعيّة هِيَ الشيءُ الوحيدُ الذي دَفَعْتَ ثمناً باهِضاً مِنْ عُمرِكَ لأجلِها، والكارِثةُ أنّها لا تفيدُكَ بشيء"! لأنّ "الشهادةَ تحوّلتْ إلى شهادةٍ على البطالة"([٦٤]). نعم، يا لَلْكارِثة! سنواتٌ من المشقّة والإرهاق، وسَهَرِ الليل والنّهار، ومُقاساةِ الحرِّ والبَرْد، وبذلِ الغالي والنفيس مِنْ أجلِ هذهِ الشهادةِ التي كُنْتَ تحلمُ بها في منامِكَ، وتراها أغلى ما تتمنّاهُ في مسيرةِ حياتِكَ التعليميّة، ولكنّك تصطدمُ بصخرةِ الواقعِ القاسية: الشهادةُ لم تَعُدْ ذات قيمة، بَلْ أصبحتْ شيئاً بالياً لا يُجدي نفعاً ولا يدرُّ مالاً! فلماذا إذاً، أركضُ وراءَ شهادةً لا تُطْعِمُ خُبْزاً، ولا تحسِّنُ وَضْعاً، فـ"الشّهادة أصبحتْ ورقةً تُثبتُ أنّكَ مُتعلِّم، لكنَّها لا تُثبتُ أنَّكَ تفهم! نعم؛ لأجلِ ماذا أبذلُ قُصارى جهدي في سبيلِ شيءٍ جُرِّد من القيمة، وانْتُزِعَتْ منه المكانة؟!

والأصلُ أنْ نكافِحَ مِنْ أجلِ قيمتِنا الضّائعة تحتَ دُولابِ القَهْرِ والإذلالِ والاستعباد، وقد أرشدنا إلى هذهِ الحكمةِ عالِم الفيزياء الشهير (ألبرت أنشتاين)، حينَ قال: لا تكافِحْ مِنْ أجلِ النّجاح، بَلْ كافِحْ مِنْ أجلِ القيمة! فالقيمةُ العلميّة التي ينالها التدريسيُّون في دُروبِ العلمِ والمعرفةِ تكسبهم فخراً، وتمنحهم سُلطةً أعلى من جميع السلطاتِ، وإنْ جُرِّدوا مِنَ السُلطةِ الماديّة، وكيف لا وهُمْ يمثّلُون حجرَ الزاوية في بناء المجتمعاتِ الإنسانيّة وتطوّرِها، هذا، "وإنّ جزءاً من شُهرةِ الجامعاتِ المعرُوفة عالميّاً تأتي مِنْ شُهرةِ الأساتذةِ الّذين يدرسُون فيها. لهذا، فإن توفيرَ أقصى ما يُمكن مِنَ التقديرِ والرفاهية للأساتذة الجامعيين، فضلاً عن المعلِّمين، قد حدثْ ببعضِ البُلدانِ الأوروبيّة إلى عدمِ تحديدِ راتب شهريّ مُعيّن للمتميِّزين منهم، مهما بلغ هذا الرّاتِب، بل يجري تزويدهم بـ(شيكات)، ليصرفوا ما يشاءوا منها دون حِسَابٍ أو مُساءلة!"([٦٥]).

أمّا المعلِّمون في بُلداننا اليوم، فقد بدأ بعضُهم يستجدي عطفَ طلبتهِ الّذين تعبَ في تدريسهم، وضحّى بوقتهِ من أجلهم، واستسلم أخيراً أمام شظف الحياة، وليس تحت صدمةِ المغريات، وشرع يسعى جاهِداً لسلُوكِ طرُق أُخرى، سلبيّةً كانت أم إيجابيّة. ومن هُنا بدأتْ ظاهرةُ الغِشّ تَسْري في أحضانِ المؤسّساتِ التعليميّة، التي صُرفت مِنْ أجلِها الملايين، وبدأ الانهيارُ يدبُّ رُويداً رويداً في مفاصِل وطننا الجريح. وكلّنا يعرفُ أنّ الغِشَّ كان سلُوكاً شائِناً شائِهاً في مجتمعِنا النزيه، ولكنّه الآن أصبحَ يُنظر إليهِ - عند بعضِهم -

بوصفهِ حالةً طبيعيّة يقتضيها الواقعُ الرّاهن، وكأنّنا نسينا أنّه بالغِش تموتُ الأوطان ويُقْهَر الإنسان. وتأكيداً على هذهِ القضيّة "كَتَبَ أحدُ الأساتذة الجامعيِّيْنَ، لطُلاّبِه في مرحلة الدكتوراه والماجستير والبكالوريوس، رسالةً مُعبِّرة وضعَها على مدخل الكليَّة في الجامعة بجنُوب إفريقيا، هذا نصُّها: تدميرُ أيِّ أُمَّةٍ لا يَحْتاجُ إلى قنابلَ نوويّة أو صواريخَ بعيدة المدى، ولكن يحتاجُ إلى تخفيضِ نوعيّة التّعليم، والسّماح للطلبةِ بالغِشِّ! يموتُ المريضُ على يدِ طبيبٍ نجحَ بالغِش، وتنهارُ البيُوتُ على يدِ مُهندسٍ نجحَ بالغِش، ونَخْسَرُ الأموالُ على يدِ مُحاسِبٍ نجحَ بالغِش، وتموتُ الإنسانيّة على يَدِ شَيْخِ دينٍ نَجَحَ بالغِشّ، ويضيعُ العَدْل على يدِ قاضٍ نجح بالغِشِّ، ويتفشّى الجهلُ في عقُولِ الأبناءِ على يدِ مُعَلِّمٍ نجحَ بالغِش، فانهيارُ التّعليم يُساوي انهيارَ الأُمّة".

وقد وردَ في المثلِ الإنكليزيّ ما يماثِلُ هذهِ الفكرة؛ وهِيَ: إنّ خطأَ الطبيبِ يُدْفَنُ تحتَ الأرض، وخطأَ المهندِس يقعُ على الأرض، أمّا خطأُ المعلِّمِ فيَمْشِي على الأرض! فالطبيبُ قد يكونُ سبباً في وفاةِ أحدِ المرضى؛ نتيجةَ التسرّع والتشخيص الخاطئ. أمّا المهندِس فيكون سبباً في انهيارِ بناية شاهِقة؛ نتيجةَ هندسةٍ خاطِئة. أمّا خطأُ المعلِّمِ فيتوارثهُ النّاسُ جيلاً بعد جيل! فهذا هو سِرُّ احتفاء الدولِ المتقدِّمة واحتفالِها بالمعلِّمين وتقدير مكانتهم.

مِنَ السُخريةِ أنْ نقولَ هُنا إنّهُ "لَمْ يَعُدْ هناكَ داعٍ لصرفِ الملايين على أفلامِ الرُّعْب من أجلِ إصابةِ النّاسِ بالخوف، فواقِعُنا أصبحَ أكثرَ رُعْباً من جميعِ الأفلام"! ورُبّما سَمِعَ العديدُ مِنّا تلك الرِّسالة الطّريفة التي بعثها مُغْتَرِبٌ إلى أهلِه ساخِراً، وقد كتبَ فيها: انتهى الزّمنُ الذي كان فيهِ أهلُنا يخافُون علينا في الغُرْبة، وأصبحْنا نحنُ في غُرْبتِنا نخافُ عليهم في الوَطَن! فـ"الرُّعْبُ الحقيقيُّ هُوَ أنْ يخافَ المواطِنُ حقّاً مِنَ الوَطَن"! لأنّهُ رُبّما لا يجدُ فيهِ أبسطَ حقُوقهِ الإنسانيّة. يُقال أنّ أمريكيّاً سألَ رَجُلاً عربيّاً: ما هِيَ أحلامُكَ؟ فأجابَ العربيُّ: وظيفة، وبيت، وزوجة، وسيّارة.. فأجابَهُ الرّجلُ الأمريكي: أنا سألتُكَ عَنْ أحلامِكَ، وليسَ عَنْ حقُوقِكَ! فقد نسيَ المواطِنُ الشرقيُّ حقوقَهُ المشرُوعة التي أصبحتْ في مخيالهِ شيئاً قريباً من ثوباتِ الأحلام الورديّة! فأغلبُ أحلامِنا - مع الأسف - أصبحتْ حقُوقاً مُصانة محفُوظة في بُلدانٍ أُخرى، لذا "لا تلُومُوا مَنْ هاجَرَ وطنَهُ، لَوْ كان وطناً ما تَرَكَهُ!"، فـ"إنْ لَمْ يُعْجِبْكَ مكانُكَ، قُمْ بتغييرِه، فأنتَ لستَ شجرة!"، ومن هُنا فنحنُ "قَدْ لا نعلمُ مَنْ باعَ الوطن، ولكن بالتّأكيدِ نعرِفُ مَنْ دفعَ الثّمَن"، لقد دفع ثمنه غالياً الفقراء.. فأنتَ أيّها الشرقيّ "حينَ تُنْفِقُ معاشَكَ بكاملِه مِنْ أجلِ الطّعامِ ومكانٍ للنّوْمِ فقط، في هذهِ الحالةِ لا يُمكن اعتبارُ العملِ فُرصةً للتطوُّر الاجتماعيّ، ولكن مجرّد وسيلةٍ للبقاءِ على قيدِ الحياة. في الحياةِ الحقيقيّة هذا يُسَمَّى عبُوديّة"!

ففي "مُجتمعاتِنا كُلُّ شيءٍ ازداد سِعْرُه إلاّ الإنسانَ، الّذي لم يَعُدْ لهُ أيّ قيمة"! وفي هذا المعنى قال الشّاعِر (محمود درويش): بالأمسِ كُنّا نفتقدُ الحريّة. اليوم نفتقدُ المحبّة، أنا خائِفٌ مِنَ الغد؛ لأنّنا سنفتقِدُ الإنسانيّة! وأكّد (تشي جيفارا) هذهِ الفكرةَ؛ بقولهِ: "إذا فرضتَ على الإنسانِ ظرُوفاً غيرَ إنسانيّة ولَمْ يتمرّدْ؛ سيفقِدُ إنسانيّتَهُ شيئاً فشيئاً"، فالحُريّة الحقيقيّة التّي تُتيحها الحكومات ليستْ ترفاً ورفاهةً وزيادة فَضْلٍ. إنّها خاصّة جوهريّة. والحكومةُ الّتي تسلبُ حُريّة الإنسان الّتي منحها الله إيّاهُ، فهي لا تَسْلُبُه شيئاً يُمكن أنْ يعيشَ بدُونِه أو يتقوّم بغيرِه؛ إنّما تَسْلُبُه (ماهيتَه) الّتي بها يكونُ بشراً، يبتكرُ ويختارُ ويُبْدِع، ويحمِلُ مسؤوليّته ولا يُلْقِيها على عاتق الآخرين مِمّن يختارُون له، ويُسيِّرُونه، ويُوجِّهونه توجيهاً آلياً مُبرمجاً([٦٦]).

الإعلام المسيّس وتسليع الإنسان، وتعليب وعيه

ومن هُنا فـ"إنّ الاقتصادَ - حسب تعبيرِ (مالك بن نبي) - ليسَ قضيةَ بنك، وتشييد مصانِع فَحَسبْ، بَلْ هُوَ قبلَ ذلِكَ تشييدُ الإنسان، وإنشاء سلُوكهِ الجديد أمامَ كُلِّ المشكلات"! ولكن الإنسانَ عندنا هو آخرُ شيءٍ نفكِّرُ فيه، فقيمةُ الإنسانِ عندنا في مالهِ الذي في حَوْزته، أو في مَنْصِبهِ الّذي وصلَ إليهِ لا عن استحقاقٍ وجدارة، وإن كان عديم العِلْم والمعرفة. هذهِ هي الثقافة الرائجة في بُلداننا: الأغنياء مُتْخَمُون ومُحْترَمُون والفُقَراء جَوْعى ومقمُوعون! وكُلّنا يعلمُ والعهدةُ لـ(وِل ديورانت) أنّهُ "لا يمكن احتلالَ حضارةٍ عظيمة من قبلِ قُوّةٍ خارجيّة، إذا لَمْ تُدَمِّرْ نفسَها مِنَ الدّاخِل"، والشجرةُ تبقى مئاتِ السنين، إنْ لم تكن مَنْخُورةً في داخلِها! فإذا دمّرْنا الإنسان، فما الجدوى من تشييدِ العُمْرَان! وإذا أردنا أنْ نَعْقِدَ مُقارنةً بيننا وبين سنغافورة الحديثة، وجدنا أنّ أهمَّ مشرُوعٍ بدأَ بهِ مُؤسِّسُها ورئيسُ وزرائِها الأسبق (لي كوان يو)، هُوَ بناءُ الإنسان، ودَعْنا نستمعْ إليهِ، وهو يَصِفُ لنا حالةَ (سنغافورة) إبّان عصرِ الاستبدادِ والفسادِ الإداريّ: إلى أيِّ درجةٍ كانتْ سنغافورة الستينيّات قاسية: فَقْر ومَرَض، وفَسَاد وجَرِيمة، بِيعَتْ مناصِبُ الدّولة لِمَنْ يَدْفَع، خَطَفَ الشرطيُّون الصغيراتِ لدعارةِ الأجانب، وقاسَمُوا اللصُوصَ والمومساتِ فيما يجمعُون. احتكرَ قادةُ الدِّفاعِ الأراضيَ والأَرُزَّ، وباعَ القُضاةُ أحكامَهُمْ. قالَ الجميعُ: الإصلاحُ مُستحيل، لكنّني التفَتُّ إلى المعلِّمينَ، وكانُوا في بُؤْسٍ وازدراء، ومنحْتُهم أعلى الأجُور، وقُلْتُ لَهُمْ: أنا أَبْنِي لَكُمْ أجهزةَ الدّولة، وأنتُمْ تبنونَ لِيَ الإنسان! فكان المعلِّم هو الأساسُ المتين الذي قامُ عليهِ بناءُ الإنسان في (سنغافورة) الحديثة([٦٧]). لذا، فإن (لي كوان يو) لم يألُ جُهداً في رفعِ قيمةِ المعلِّم ماديّاً ومعنويّاً؛ لأنه رأى أنّ فيهِ قيمةَ العِلْم، فبالعِلْمِ تقومُ الحضارة، وتترسّخُ

المدنيّة، ويتعالى العُمْران. هذا، وقد سُئل رئيس وزراء اليابان (شينزو آبي) عن سِرِّ التطوُّر التكنولوجيّ في اليابان، فأجاب: أعطينا المعلم راتب وزير، وحصانة دبلوماسيّ، وإجلال الامبراطور! وعندما سألَه أحدُ الصّحفيِّينَ أيضاً عن سِرِّ نهضةِ اليابان، أجابَ قائِلاً: نحنُ لا نمتلِكُ عقولاً خارِقة، لدينا مُعادلة بسيطة، وهي: عِلْمٌ + أخلاق + عمل = نهضة.

وإذا فقد العِلْمُ قيمتَهُ، يفقدُ الإنسانُ كذلك القيمةَ المانحةَ له لعِلْمه؛ لأنّ العِلْمَ هو الّذي يُعطي القيمةَ للإنسان، والعكسُ صحيح. وهذا لا يعني أنّ الإنسانَ غيرَ المتعلِّم عديمُ القيمة، ولكن على الأقلّ فإنهما لا يستويان، فإذا جُرِّدَ عنِ العِلْمِ القيمةُ، سيأتي يومٌ يُجَرَّد فيهِ الإنسانُ عن قيمتهِ التي يَزْدهي بها، ومكانته التي يتباهى دونها، وبالتالي سيفقدُ شيئاً فشيئاً كُلَّ إحساسٍ بالانتماءِ إلى أرضِ آبائِهِ، ووطنِ أجدادِهِ، الّذي أصبحَ مكاناً لترفِ غيرِهِ من المواطنين، الّذين لا يمنحُونه كذلِكَ وزناً ولا قيمة. فنزعُ القيمةِ عن العِلْم، يجعلُ العَالِمَ يعيشُ حالةً من الوَهْمِ واللانتماء، فتتضعضعُ ثقته بهُويته الواهية التي طالما تشدّقَ بها، وناضلَ في سبيلِ توطينها، على الرّغم من تاريخنا الموغل في الزّمان، والمترامي في المكان، وشمُوخ أسلافِنا الذين أناروا تاريخَنا بأمجادِهم العتيقة. ولكن علينا أن لا ننسى ما قالهُ (مالك بن نبي) أنه لا يمكن أن نشفيَ أمراض المجتمع بذكرِ أمجادِ ماضيه! وأن كُلَّ محاولةٍ - كما قال الغزالي - لاقتحامِ المستقبل بفكرِ عصُورِ الانحطاط لن تزيدَنا إلاّ خبالاً! وفي هذا المعنى قال (مورغان فريمان): لَنْ تحصُلَ على غدٍ أفضل، ما دُمْتَ تفكِّر بالأمس! وما أجمل تلك الحكمة التي تقُول: لن تستطيع تبديل الماضي، لذلك رَكِّز على صُنع مستقبلٍ عظيم![٦٨]، وقال (جويل باركر)[٦٩]: "الفخرُ بالماضِي لا يضمنُ لكَ أنْ تكون شيئاً بالمستقبل؛ لأنّ قوانين اللّعبة تتغيَّرُ باستمرار"!

لا تستطيعُ أنْ تنزلَ في النّهْرِ نفسِهِ مَرَّتَيْنِ

فالعالَمُ في تطوّرٍ مستمر، "وكلُّ شيءٍ في جريانٍ دائِم"، وفي هذا قال الفيلسوف اليونانيّ (هيراقليطس) (٥٣٥- ٤٧٥ ق.م): "لا تستطيعُ أنْ تنزلَ في النّهْرِ نفسِهِ مَرَّتَيْنِ"، ويُضيفُ (فلوطرخس) التفسيرَ الآتي: "لأنّ مياهاً جديدةً تتدفَّقُ فيهِ"[٧٠]، فالنّهْرُ في مسيرٍ وجَرَيانٍ دائِمٍ لا يتوقّف، فالنّهْرُ بمعنى الحياة، والحياةُ دائبةٌ دائِمة، أي: في حالةِ ديمُومةٍ واستمراريّة لا تتوقّف. فهذهِ الذرّات التي تضرِبُ قَدَمَيْكَ لن تعودُ ثانيةً، إنّها تذهبُ إلى حيِّزٍ آخَر، فهناكَ حدوثٌ وتجدُّد دائمين!

فالفيلسُوف (هيراقليطس) يرى: أنَّ كُلَّ شيءٍ يتحوّل، والكونُ في حالةِ سيولةٍ مُتغيِّرة غير ثابتةٍ أبداً، وإنَّ أحدَنا لا يُمكن أنْ ينزِلَ النهرَ نفسَهُ مرّتيْنِ، لأنَّ مياهاً جديدةً ستَجري

من تحتِه. و(هيراقليطس) كان يعتقِدُ أنَّ كُلَّ الأشياءِ في الطبيعةِ تُغيِّر شكلَها باستمرار. "كلُّ شيءٍ يجري. كلُّ شيءٍ مُتحرِّك. لذلِكَ "لا نستطيعُ أنْ ننزلَ مرّتينِ إلى النّهرِ نفسِه. ذاك أنّني عندنا أستحمُّ للمرّةِ الثانية يكونُ النّهرُ قَدْ تغيّر، وأنا أيضاً". كذلِكَ ركّزَ (هيراقليطس) على التّناقُضاتِ المتلازِمة في العالَم. إذا لَمْ نصبْ أبداً بالمرض، لا نعرِفُ معنى الصِحّة. وإذا لَمْ نَكُنْ عانينا قطّ مِنَ الجوع، لا نعرِفُ فرحَ امتلاكِ الطّعام. ولو لَمْ تكنِ الحربُ، لما عرفْنا القيمةَ الحقيقيّة للسّلام. ولو لَمْ يوجدِ الشِّتاءُ، لما استطعْنا أنْ نُشارِكَ ونبتهِجَ بتفتّحِ الرّبيع(٧١)، ولو لَمْ تذُق مرارةَ الجهل لم تعرفْ طعمَ العِلْم وحلاوته، ولَوْ لَمْ تقعْ في الفوضى لم تعرِفْ قيمةَ النِّظام والتنظيم.

ومن هنا تتعاظمُ حاجتُنا إلى الإعلانِ عن برامِجَ إصلاحيّة حديثة في التعليم، ولكنّنا لن نصِلَ إلى أهدافِنا ما لَمْ نتحرَّر من قبضةِ الماضي، التي تتمثّلُ في أشكالِ الإدارةِ القديمة والمناهِج وطُرق التدريس العتيقة، التي عفا عليها الزّمن، والّتي ما زالتْ تحكمُ قبضتَها على خناقِ تعليمِنا الحاليّ، على الرّغمِ مِنَ المناهِجِ الحديثة المستوردة هُنا أو هُناك، والّتي يتباهى القائِمُون على عمليّة التعليم استبدالها بغيرها مِنَ المناهِج بين آونةٍ وأُخرى، دون محاولة تجريبها، وامتحان صحّتها، ومعرفة صلاحيتها، قبل تدويلِها وتوطينها وتوظيفها. وهي "بدلاً مِنْ إيجادِ سياسةٍ ونظامٍ تعليميّ يرتبطُ بواقعِها وأهدافِها وآمالِها، تجدُها ترضى لنفسِها بالنظريّاتِ التنظيميّة والمبادئ التربويّة، والمحتويات والأشكال الجاهزة والمعايير المستوردة من دُوَلٍ أُخرى"(٧٢). وتحضرني هنا مقولة رائعة لألبرت أنشتاين؛ وهي: "مِنَ السذاجةِ أن تعملَ الشيءَ نفسَهُ بالطريقةِ نفسِها مرّةً بعدَ أُخرى، ثمَّ تتوقّع نتائجَ مُختلِفة"(٧٣). وقال أيضاً: "إذا أحسَّ أحدٌ أنّهُ لم يُخطئ أبداً في حياتِه، فهذا يعني أنّهُ لَمْ يُجَرِّب أيّ جديدٍ فيها!"(٧٤). وفي هذا قال (مايكل نيكولا): "أنا خُلِقْتُ لأُخْطِئَ وأتعلّم.. إنْ كُنْتَ تبحثُ عن ملاكٍ فتجاهَلْني!".

ومن هنا وجبَ "علينا أنْ نتجاوزَ الاستسلامَ لتقاليدَ منهجيّة قادِمة مِنْ عصُورٍ عتيقة هي غير عصرنا، مُحمّلة بموضوعاتٍ ومُفرداتٍ لم تعد تصلُح للقرنِ الجديد، واستبدالِها بمناهِج أكثر مرونةً، تملكُ القُدرةَ على استضافةِ المعارِف الحديثة، واستيعابها، وتمكّن المتعاملينَ معها على تجاوُز العُزلة، والتغرُّب، والانقطاع، إلى تنفيذِ حوارٍ فعّال مع تحدّياتِ العصر وهمُومِه المعرفيّة والثقافيّة، والإعانة بالتالي على صياغةِ المشرُوع الحضاريّ المرتجى وبلورته(٧٥). إنّ هذهِ فُرصةٌ جيِّدة لتحقيقِ تكامُلٍ أكثر مع المعرفةِ المعاصِرة والحياة، ولجعلِ علُومِنا الّتي نتعلّمُها تتحرّك وتنبضُ وتتنفّس في قلبِ العصر، لا يأسرها زمنٌ أو مكان أو شخصٌ على مُتابعةِ المتغيرات الحاصلة في عالِم اليوم(٧٦)❐

الهوامش:

١- العبودية المختارة، إتيان دو لا بويسي، تر: صالح الأشمر، ط(١)، دار الساقي، بيروت – لبنان، ٢٠١٦م: ٥٤.

٢- كيف يتم خداع الجماهير – أشهر عشر طرق يستخدمها الإعلام للتأثير في العقول، موقع ساسة بوست، https://www.sasapost.com/10ways-media/.

٣- ينظر بتصرّف: كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟ أ.رابحة الزيرة. http://tajdeed.org/wehda/%D9%83%D9%8A%D9%81.

٤- التضليل الاعلامي - اغتصاب العقول!، عبدالعظيم البشير، http://softwar-lb.org/4608/275/ مركز الحرب الناعمة للدراسات.

٥- أستاذ علم اللغويات والفلسفة بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا.

٦- كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟ أ.رابحة الزيرة.

٧- في مقابلة للصحفي دانيال ميرمي مع المفكّر الأمريكي نعومي تشومسكي في Le Monde diplomatique، في كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟

٨- في مقابلة للصحفي دانيال ميرمي مع المفكّر الأمريكي نعومي تشومسكي، في كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟

٩- www.ColumbinePaintball.com، في كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟

١٠- من فيلم (Mr.Robot).

١١- فن التلاعب بالعقول، أبو عبد الرحمان، https://www.hespress.com/writers/6074.html هسبريس.

١٢- قصّة سنغافورة من العالَم الثالث إلى الأوّل، لي كوان يو، نقلهُ إلى العربيّة: مُعين الإمام، ط(٢)، مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص١٧٢.

١٣- الإسلام في الأسر.. مَنْ سرق الجامع وأين ذهب يوم الجمعة؟، الصّادق النيهوم، ط(٣)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٩٥م، ص٩٥.

١٤- صناعة تعليب الوعي، د.جاب الله موسى حسن. http://archive.libya-al-mostakbal.org/MinbarAlkottab/April2005/drJaballah130405.htm.

١٥- If you don't control your mind, someone else will. John Allston.

١٦- If you don't use your mind, the others will drive it.

١٧- If you don't program your mind it will be programmed by somebody else.

١٨- عقلي ليس للبيع، د.طارق السويدان Dr.Tareq AlSuwaidan منشورٌ نشره في صفحته على (Facebook) في يوم الجمعة ٢٣/ ٣/ ٢٠١٨م. https://www.facebook.com/Dr.TareqAlSuwaidan/?hc_ref.

١٩- ينظر بتصرّف: الحقيقة عند الغزالي.. الشك أول الطريق الى اليقين، د.عماد الدين الجبوري. http://www.liberaldemocraticpartyofiraq.com/serendipity/index.php?/archives.

٢٠- ميزان العمل، للإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، حقّقه وقدّم له: الدكتور سليمان دنيا، ط(١)، دار المعارف، القاهرة – مصر، ١٩٦٤م، ص٤٠٩.
٢١- ينظر بتصرّف: تجربة الشك لدى الغزالي،
.http://www.flsafa.com/2016/09/chaklghazali.html
٢٢- كيف يتم خداع الجماهير.
٢٣- كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟ أ.رابحة الزيرة،
.http://tajdeed.org/wehda/%D9%83%D9%8A%D9%81
٢٤- ينظر بتصرّف: تعرف على أذكى الحروب النفسية عبر التاريخ، أميرة الدسوقي
./https://www.sasapost.com/the-smartest-psychological-wars
٢٥- كتاب الاقتباسات السياسية، ستيفن بتلر ليكوك، في إغواء العقل الباطن – سيكولوجية التأثير العاطفي في الدعاية والإعلان، روبرت هيث، تر: محمّد عثمان، ط(١)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة – مصر، ١٩١٦: ٩.
٢٦- الدعاية والتضليل الإعلامي في الأفلام الأمريكية – دراسة تحليليّة، مجد نبيل محمود، رسالة ماجستير في الصحافة والإعلام، كلية الإعلام، جامعة البترا، ٢٠١٥م: ١٣.
٢٧- الدعاية والتضليل الإعلامي في الأفلام الأمريكية – دراسة تحليليّة: ٣١.
٢٨- الإعلام والإمبريالية النفسية، د.عبدالوهاب المسيري،
.http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2007/5/13/%D8%A7
٢٩- الإعلام والإمبريالية النفسية.
٣٠- دراسات معرفية في الحداثة الغربية، د.عبد الوهاب المسيري، ط(١)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة – مصر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م. وتزييف الوعي.. كيف تعيد السلطة تشكيل قيم وقناعات الشعوب؟ سامح عودة،
http://midan.aljazeera.net/intellect/sociology/2018/1/31
الجزيرة
٣١- دراسات معرفية في الحداثة الغربية، وتزييف الوعي.. كيف تعيد السلطة تشكيل قيم وقناعات الشعوب؟
٣٢- الإعلام الجديد، العولمة وتحدي "خصخصة" القيم، محمد مصباح، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط – المملكة المغربيّة، ٢٠١٤م، ص٦.
٣٣- تزييف الوعي.. كيف تعيد السلطة تشكيل قيم وقناعات الشعوب؟
٣٤- الإعلام الجديد، العولمة وتحدي "خصخصة" القيم: ٦.
٣٥- الإعلام الجديد، العولمة وتحدي خصخصة القيم: ٧، وتزييف الوعي.. كيف تعيد السلطة تشكيل قيم وقناعات الشعوب؟
٣٦- هندسة الجمهور: كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات؟ أحمد فهمي، مركز البيان للبحوث والدراسات، ط(١)، الرياض – السعودية، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٣٧- كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟
٣٨- The further a society drifts from truth the more it will hate those who speak it.
٣٩- الإعلام والإمبريالية النفسية، د.عبدالوهاب المسيري،
.http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2007/5/13/%D8%A7
٤٠- تزييف الوعي.. كيف تعيد السلطة تشكيل قيم وقناعات الشعوب؟
٤١- كيف نؤسّس لإعلام يسهم في معالجة واقع الأمة المحتقن؟
٤٢- ينظر: استراتيجيات الخطاب - مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظافر الشهري، ط(١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٤م: ٤٤٦.
٤٣- البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة وتقديم وتعليق: محمّد العمري، ط(١)، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٨٩، ص٦٤.
٤٤- الأفعال المؤثرة في ضوء نظرية أفعال الكلام، إسراء زيدان خلف، ط(١)، الابتكار للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ٢٠١٨م: ١٤٣.
٤٥- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ)، تقديم وتحقيق: محمّد الحبيب ابن الخوجة، ط(٣)، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٦م: ٢٠.
٤٦- الإقناع والتأثير - دراسة تأصيليّة دعويّة، د.إبراهيم بن صالح الحميدان، مجلة جامعة الإمام، العدد (٤٩)، محرم، ١٤٢٦هـ (بحث): ٦.
٤٧- الأفعال المؤثرة في ضوء نظرية أفعال الكلام: ١٤٨.
٤٨- جِدّو كريشنامورتي Jiddu Krishnamurti (1986 – 1895م) كاتب ومُتحدِّث عن القضايا الفلسفية والروحية؛ هندي من ولاية (أندرا برديش). تضمّنت مادته الثورة النفسية، وطبيعة العقل، والتأمّل، والعلاقات البشرية، وإحداث التغيير الإيجابي في المجتمع. ومن أقواله: "كُنْ بعيداً بحيث لا يكون بمُستطاعهم أن يجِدُوك، أن يُمْسِكُوا بك ليُشَكِّلُوك، ليُقَوْلِبُوك. كُنْ بعيداً كالجبالِ كالهواءِ غير الملوث". وقال: "مِنَ الجميل أن تكون وَحْدَك، أن تكون وَحْدَكَ لا يعني أن تكون وحيداً، بَلْ يعني أنَّ عقلَكَ لايتأثر ولا يتلّوث بالمجتمع".
٤٩- من أقوال الشّاعر محمود درويش.
٥٠- من أقوال وليم شكسبير.
٥١- يوهان فولفغانغ فون غوته (١٧٤٩ – ١٨٣٢م) هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، وما زال التاريخ الأدبي يتذكّر أعماله الأدبيّة المتميّزة.
٥٢- من أقوال د.علي الوردي (عالم اجتماع عراقي).
٥٣- من كلمات د.مصطفى محمُود.
٥٤- العبودية المختارة: ٤٤- ٤٥.
٥٥- العبودية المختارة: ٣١.
٥٦- من فيلم (Troy).

٥٧- "If voting made any difference they wouldn't let us do it".
٥٨- فن القراءة، ألبرتو مانغويل، تر: جولان حاجي، ط(١)، دار الساقي، بيروت – لبنان، ٢٠١٦م، ٢١٣- ٢١٤.
٥٩- مجتمع النخبة، د.بُرهان غليون، ط(١)، معهد الإنماء العربيّ، بيروت - لبنان، ١٩٨٦م، ص٢٤١.
٦٠- تيكولا تيسلا (١٨٥٦ - ١٩٤٣) مخترع وفيزيائي ومهندس كهربائي - ميكانيكي أمريكي من أصل صربي.
٦١- فن التلاعب بالعقول، أبو عبد الرحمان https://www.hespress.com/writers/6074.html هسبريس.
٦٢- ينظر بتصرّف: فن التلاعب بالعقول.
٦٣- الشاكلة الثقافية.. مساهمة في إعادة البناء، عمر عبيد حسنة، ط(١)، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ص٢٦.
٦٤- ينظر بتصرّف: مجتمع النخبة: ٢٥٠.
٦٥- دراسات وشؤون جامعية، خالد محمّد خالد، ط(١)، منشورات دار "روشنبير" للطبع والنشر، العراق - السليمانية، ١٩٩٨م، ص٧.
٦٦- فقه الديمقراطية، د.عادل مصطفى، ط(١)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ٢٠١٢م، ص١٠.
٦٧- ينظر بتوسّع: قصّة سنغافورة من العالَم الثالث إلى الأوّل، لي كوان يو، نقلهُ إلى العربيّة: مُعين الإمام، ط(٢)، مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٢١٧.
٦٨- You can't change the past, so focus on making a great future
٦٩- جويل باركر (Joel Parker) سياسي أمريكي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي، شغل منصب رئيس برلمان ولاية نيوجرسي من عام ١٨٤٧ إلى عام ١٨٥١. كما شغل باركر منصب حاكم ولاية نيوجرسي مرّتين المرة الأولى من عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٦٦ والمرة الثانية من عام ١٨٧٢ إلى عام ١٨٧٥. كما شغل منصب قاض للمحكمة العليا لولاية نيوجرسي ما بين عامي ١٨٨٠ إلى وفاته في ٢ كانون الثاني - يناير من عام ١٨٨٨م.
٧٠- معنى المعنى.. دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزيّة، أوغدن ورتشاردز، تر: د.كيان أحمد حازم يحيى، ط(١)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ٢٠١٥م، ص١٠٠.
٧١- عالم صوفي.. تاريخ الفلسفة، (رواية)، جوستاين غاردر، النصّ العربي بقلم: حياة الحويك عطية، ط(٢)، دار المنى، ستوكهولم - السويد، ١٩٩٦م، ص٤٢.
٧٢- أزمة التعليم في عالمنا المعاصر: ١٥٠.
٧٣- Insanity: doing the same thing over and over again and expecting different results.
٧٤- If someone feels that they had never made a mistake in their life, then it means they had. never tried a new thing in their life
٧٥- ازدواجيّة التعليم الجامعيّ: مرئيّات للخروج من الأزمة: ٢٥.
٧٦- م.ن: ٢٧.

التعددية السياسية والحزبية من منظور إسلامي

– القسم الثاني –

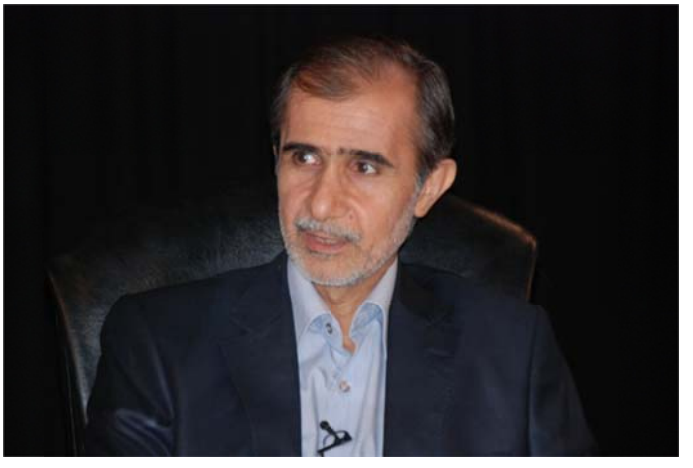

سالم الحاج

الموقف من التعددية السياسية والحزبية في الفكر الإسلامي المعاصر :

إن استقراء موقع التعددية والحزبية في الفكر السياسي الإسلامي، يحتاج - ولا شك - إلى البحث في ذلك عند الجماعات الإسلامية، والمفكرين الإسلاميين المعاصرين، ذلك أن هذه المصطلحات لم تعرف، ولم يتم تداولها، إلا في العصر الحديث، وتحديداً في الربع الأخير من القرن العشرين.. ومع أنه يصعب تحديد بدايات استعمال هذا المصطلح – كما ذكرنا

سابقاً- إلا أنه من المؤكد أنه مصطلح حديث الاستعمال جداً، لا ذكر لـه في كتابـات الجيـل الأول، ولا الثاني، ولا الثالث، من رجالات النهضة والإصلاح الإسلامي([1]).

وقد تباينت مواقف الإسلاميين من قضية (التعددية السياسية والحزبية)، واختلفوا فيما بينهم إلى فريقين: فريق يرفضها، وفريق يؤمن ويقرّ بها.. ولذلك، فإننا سـنعرض في البدايـة لأدلة الفريق الرافض لها، ثم ندرج بعدها ردود الفريق الثاني عليها، وذلك فيما يلي:

أولاً: أدلة الفريق الرافض للتعددية السياسية والحزبية:

يرى هذا الاتجاه أن التعددية الحزبية والسياسية أمر مذموم في الإسلام، لأنه يـؤدي إلى تفرّق الأمّة، ولأن المسلمين لم يعرفوه في تاريخهم، ولم يدعوا له، وإنما هو من جملة ما نقل إلى المسلمين من تجارب الغرب..

ويستند هذا الفريق على جملة من الأدلة في رفضه لها، ومنها:

١- إن نظام (التعددية السياسية والحزبية) إنما يفترض قيام أحزاب سياسية متنافسـة فيما بينها.. وبما أن الإسلام لم يعرف الأحزاب السياسـية في تاريخـه، وأنّ ذكـر (الأحـزاب) لم يأت في القرآن الكريم إلا مقترناً بالذم([2])، "وفي المقابل لم يشـر إلى جماعة المسـلمين بتعبـير (الأحزاب) قطّ، وإنما أشير إليهم بصيغة المفرد عـلى أنهـم (حـزب الله)، وذلـك في موضـعين اثنين في القرآن الكريم. فدلّ ذلك على أن المذهبية الإسلامية لا تتسع إلا لحزب واحد فقط هو حزب الله، أما (الأحزاب) فهي تعبير يتّسع لجميع الفرق والنحل الخارجـة عـن جماعـة المسلمين"([3]).

٢- الافتراق والاختلاف أكبر مظاهر الأحـزاب السياسـية، بـل هـو بنيانهـا.. وقـد نهـى الإسلام، في القرآن والسنة، عن التفريق في الدين، والتشرذم، والتنازع.. "وإذا كان هذا حـال الافتراق في نظر الشريعة، وهو مظهر من مظـاهر الأحـزاب السياسـية، فـماذا يكـون حـال

([1]) انظر في تفصيل هذه الأجيال: الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي، مصدر سابق، ص٢٥١-٢٥٢؛ حيث يرى إن " الشيخ (محمد بن عبد الوهاب، وليّ الله الدهلوي، السنوسي، المهدي)، هم الجيل الأول، وإن (الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي) يمثّلون أبرز رجالات الجيل الثاني، في حين يرى أن الجيل الثالث "هو جيل النصف الثاني من القرن الهجري المنصرم، أو النصف الأول من القرن العشرين، وأبرزهم: عبد الحميد بن باديس، حسن البنا، والمودودي"..

([2]) الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص١٧، وص٢١.

([3]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، دار الإعلام الدولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م. ص٤٢.

الأحزاب السياسية نفسها؟ هذا ما لا يحتاج إلى بيان"([٤]). ولذلك فإن الدعوة إلى (التعددية الحزبية) تكون مخالفة للكتاب والسنة، بما تحدثه من انشقاق وتفرّق بين المسلمين([٥]).

٣- إن معقد الولاء والبراء هو الإسلام لا غير، وقد تواترت في ذلك النصوص الصحيحة، ومنها: قوله تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}المائدة/٥٥ . وقوله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}التوبة/٧١.

والحزب "إنْ جعل الإسلام أساس الولاء والبراء، فلا حاجة لإقامة أحزاب، وإنْ جعله أمراً آخر غير الإسلام، فإن ذلك يكون أمراً جاهلياً، وأمور الجاهلية كلها لا تصلح لأن يكون شيء منها أساساً لإقامة حزب سياسي"([٦]).

٤- نظام (التعددية الحزبية) إنما يقوم على أساس التنافس من أجل الإمارة والوصول إلى الحكم، وهو أمر مذموم في الإسلام.. فهناك الكثير من الأدلة الشرعية التي تنهى عن التنافس في طلب الإمارة، وتتوعد من يفعل ذلك بالخذلان وسوء العاقبة([٧])، ومنها: ما رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) قال: (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمّرنا يا رسول الله، وقال الآخر مثله. فقال: إنّا لا نولّي هذا من سأله، ولا من حرص عليه)([٨]). ومنها ما رواه البخاري، وغيره، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم): (قال إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة، وبئست الفاطمة)([٩]).

٥- ويقترب من النقطة السابقة، الأدلة التي تنهى عن تزكية النفس والطعن في الآخرين، ومن أمثلتها: قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}[النساء: ٤٩]. وقوله تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[النجم: ٣٢]. وقوله: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}[الحجرات: ١١].. ومن المعلوم أن الحملات الانتخابية، وحملات التنافس الحزبي بين مرشحي الأحزاب، إنما تقوم على تزكية النفس،

([٤]) حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية، أحمد العوضي، مصدر سابق، ص٣٣.

([٥]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق ، ص٤٣.

([٦]) حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية، أحمد العوضي، مصدر سابق، ص٣٤.

([٧]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٤٤. وانظر أيضاً: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية في الإسلام، أحمد العوضي، (م . س) ص٣٦.

([٨]) صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار الفيحاء- دمشق، دار السلام- الرياض، ط٢، ١٩٩٩، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، رقم الحديث٧١٤٩، ص ١٢٣٠.

([٩]) المصدر السابق، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة، رقم الحديث ٧١٤٨، ص١٢٣٠.

والقدح في الآخرين، ولا يخرج ذلك أن يكون إما بحق أو بباطل، فإن كان بحق فهو غيبة، وإن كان بباطل فهو بهتان([١٠]).

٦- ومن جهة أخرى، فإن نظام (التعددية الحزبية) - كما ذكرنا - إنما يقوم على أساس التنافس في طلب السلطة والولاية، فالسعي للوصول إلى الحكم هو مفرق الطرق بين الأحزاب السياسية وبين غيرها.. فكيف نقول بمشروعية مثل هذا النظام الذي يصادم الأصول الشرعية التي تنادي بطاعة الأئمة - في غير معصية بالطبع-، وتنهى عن منازعتهم، وتحرّم الخروج عليهم([١١]).

٧- إن (التحزّب) لا يخرج أن يكون قائماً: إمّا على أصول كلية بدعية، تخالف الأصول الثابتة بالكتاب والسنة، وهو تحزّب الفرق الضالة، المحرّم بالإجماع، وأهله خارجون عن السنة والجماعة، داخلون في الفرقة والضلالة.. وإمّا أن يكون تحزّباً على اجتهادات فروعية، وخلافات فقهية، والأصل فيه المنع، "لأن الواجب فيها أن تردّ إلى الله ورسوله، كما قال تعالى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}[النساء: ٥٩]، فإن اجتمعت الكلمة فبها ونعمتْ، وإلا فالتغافر والتراحم، الذي لا يجتمع شيء منه مع التحزّب بحال من الأحوال"([١٢]).. وإمّا أن يكون تحزّياً على أمور تتعلّق بالحكمة والتدبير، مما تركته الشريعة عفواً للأمّة، وهذا النوع "رغم قبوله - بطبيعة الحال - لتفاوت الآراء، وتعدّد الاجتهادات، إلا أنه لا يجوز أن يتحزّب الناس على أساسه، وتتفرّق كلمتهم بسببه، بل يتعيّن النزول في النهاية على رأي الجماعة، والالتزام لها بالطاعة"([١٣]).

٨- التعددية السياسية، والحزبية، تعني - فيما تعنيه- تبادل السلطة بين الأطراف المتنافسة، وهذا أمر لم يعهد عند المسلمين، حيث إن المعروف من عمل الصحابة، والمسلمين من بعدهم، أن (الخليفة) إذا عقدت له (البيعة)، "فهو باق في منصبه، ما لم يتغيّر حاله: بنقص في بدنه، أو جرح في عدالته، أو ردّة عن الإسلام بالكلية"([١٤]).

([١٠]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٤٥.

([١١]) المصدر السابق، د. صلاح الصاوي، ص٤٥-٤٦. انظر أيضاً: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب، أحمد العوضي، (م . س)، ص٤٧.

([١٢]) المصدر السابق، د. صلاح الصاوي، ص٤٧.

([١٣]) المصدر السابق، ص٤٧.

([١٤]) المصدر السابق، ص٤٧. وانظر أيضاً: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب، أحمد العوضي، (م. س)، ص٣٥.

٩- لا توجد سوابق تاريخية عند المسلمين، فلم يعرف المسلمون مثل هذا النظام، فكان ذلك كالإجماع من الأمّة على تركه.. وأمّا ما حدث في التاريخ الإسلامي من انشقاق بعض الفرق عن جماعة المسلمين، فتلك ظواهر مرضية اعترت الجسم الإسلامي في فترة من الفترات.. وهي بالتالي لا تصلح دليلاً على مشروعية مثل هذا التشرذم والتفرّق، وقد صحّ في هذه الفرق قول النبي (صلى الله عليه وسلم): (إن هذه الأمّة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة)([١٥]).

١٠- إن تعدد الأحزاب الذي يمكن أن ينشأ في المجتمعات الإسلامية، لا يمكن فصله عن الدين.. ومن هنا، فإن الفارق بين المواقف السياسية الممتزجة بالدين، وبين المواقف السياسية العلمانية المبنية على مجرد الرأي والمصلحة، هو فارق كبير.. "فإن الدين لا يسمح بالتهاون في الموقف المبني عليه، ولا بالتنازل عنه، بل يثير نزعات التحمّس والثبات عليه... ولذلك يتسارع المسلمون إلى الاقتتال عندما يقع بينهم مثل هذا الخلاف"([١٦])، على عكس المواقف السياسية المفصولة عن الدين، "فإنها تخلو من هذا الحماس، ومن تلك الغيرة، التي يبعثها البعد الديني في المواقف السياسية الممتزجة بالدين"([١٧]). "والخلاصة أن التعدد عندنا لا بد أن يفضي إلى الهرج والفتن، والتعدد عند القوم لا يفضي إلى ذلك، لانعدام الغيرة الدينية في مواقفهم السياسية. فالقياس إذن مع الفارق"([١٨]).

١١- لقد فشلت التجارب الحزبية المعاصرة في أغلب البلاد الإسلامية، و"كانت في الجملة وبالاً على الأمّة، وجرثومة تنخر في كيانها، وفرجات اخترقت الأمّة من خلالها، وتهارجت صفوفها بسببها"([١٩])... ولذلك فلا معنى للدعوة إلى تعددية الأحزاب في ظل هذا الواقع !.

هذه أهم الأدلة التي استند إليها الفريق الأول في معارضتهم للتعددية الحزبية والسياسية.. وقد أوردناها باختصار شديد، خشية الإطالة، وقد ردّ الفريق الثاني عليها، داعياً إلى الاتعاظ من تجارب الماضي – البعيد والقريب -، والسير في طريق تأصيل (التعددية السياسية والحزبية)..

([١٥]) رواه أبو داود (٤٥٩٧) والحاكم (٤٤٣) وصححه. وصححه الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة)، والحديث عنده برقم (٢٠٤).

([١٦]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، (م . س)، ص٤٨.

([١٧]) المصدر السابق، ص٤٨.

([١٨]) المصدر السابق، د. صلاح الصاوي، ص٤٨.

([١٩]) المصدر السابق، ص٤٨.

ثانياً: أدلة الفريق القائل بمشروعية (التعددية السياسية والحزبية)

أشرنا فيما سبق إلى أن تيار رفض العمل السياسي، وتحريم تشكيل الأحزاب، بين الإسلاميين، أصبح ضعيفاً، ويكاد يكون شيئاً من الماضي، ذلك أنه اتجاه يسقط في مقولة العلمانية: مقولة الفصل بين الدين والسياسة، كما يقول (راشد الغنوشي)([٢٠]).

أمّا (التعددية السياسية والحزبية)، فإنه وإنْ كان التعامل معها يجري – وحتى وقت قريب- "بنوع من الحساسية والحرج والتحفظ"([٢١])، ولكن الدعوة إليها، والإيمان بها، أصبح اليوم يشكّل التيار الغالب في الحركات الإسلامية...

وقد اعتمد هذا الفريق، القائل بمشروعية (التعددية السياسية والحزبية)، على عدد من المرتكزات والأدلة، نوردها فيما يلي:

١- السياسة الشرعية:

يقول (ابن عقيل): "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإنْ لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا نزل به وحي"([٢٢]). وينقل عن الإمام (القرافي) قوله: "واعلم أن التوسعة على الحكام في الأحكام السياسية ليس مخالفاً للشرع"([٢٣]). وقد اشتهر قول الإمام (ابن القيم) في كتابه (الطرق الحكمية): "فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل هي موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه، ونحن نسميها سياسة تبعاً لمصطلحكم، وإنما هي عدل الله ورسوله، ظهر بهذه الأمارات والعلامات"([٢٤]).

فهذه النصوص كلها تؤكد أن تدبير شؤون الحكم، وتنظيم العلاقات بين السلطات العامة في الدولة، وبينها وبين الناس، وتمكينهم من ممارسة حقوقهم، كل ذلك من (السياسة الشرعية) التي لا يشترط فيها أن تكون على مثال سابق، "بل الذي يشترط هو ألا

([٢٠]) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي، مصدر سابق، ص٢٨٦.

([٢١]) الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص١٢.

([٢٢]) الفراسة، الإمام شمس الدين أبو عبد الله مُحمّد بن أبي بكر بن أيّوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقيّ، الملقب بابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ)، تحقيق: صلاح أحمد السامرائي، مكتبة القدس، بغداد، ١٩٨٦، (د.ط)، ص١٤.

([٢٣]) المصدر السابق، ص١٥.

([٢٤]) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، الإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق: أحمد الزعبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٠.

تخرج عن قوانين الشريعة الكلية، وحدودها العامة، وأن تتحقق بها المصلحة، ويرفع بها الحرج"([٢٥])..

ووجود الأحزاب السياسية، وتعدّدها، هو من هذا الباب، وخاصة في ظل واقع مجتمعاتنا، وواقع السلطات الحاكمة فيها، حيث تمس الحاجة إلى وجود "رقابة شعبية منظمة، تأطر هؤلاء الحكام على الحق أطراً ، وتردهم إلى الجادة إذا شردوا، وتتبنى مطالب الأمّة، وتضع البرامج السياسية القادرة على استصلاح الأحوال، والنهوض بالبلاد والعباد، وتدفع إلى التنفيذ، من خلال إطار سلمي مشروع يتفق عليه الكافة"([٢٦]).

٢- الأصل في العقود والمعاملات الإباحة، حتى يأتي ما يدلّ على التحريم:

وهذا هو أحد الرأيين في هذه المسألة، وهو الذي انتصر له عدد كبير من أهل العلم، منهم شيخ الإسلام (ابن تيمية) في (الفتاوى)، وغيره، "وهو الأليق بمقاصد الشرع، والأقوم بمصالح المكلفين"، كما يقول (د. صلاح الصاوي)([٢٧]).. ولما كانت الإجراءات اللازمة لتنفيذ سياسة الدولة هي من باب العاديات والعقود، كان الأصل فيها الحل، حتى يأتي ما يدل على التحريم، ومن ذلك (التعددية السياسية والحزبية)، فهي وسيلة أو آلية لتحقيق مصالح الأمّة، وحفظها من جور الاستبداد، فطالما لم يوجد في أصولها وإجراءاتها ما يخالف الشرع، فالأصل فيها الحل، "وعلى مدّعي المنع إقامة الدليل"([٢٨]).

ولا يصح الاحتجاج هنا بتجاوزات حدثت في التطبيقات، سواء هنا أو في أيّ مكان، "لأننا نتحدّث عن صياغة إسلامية لهذه التعددية، تبحث عن الإيجابيات فتنمّيها، وعن السلبيات فتنقّيها، وتؤكّد على الثوابت فلا مساس بها"([٢٩])، "فالحديث هنا عن القيمة ذاتها، وليس عن أسلوب بعينة من أساليب ممارستها، طبّق هنا أو هناك"([٣٠]).

([٢٥]) التعددية السياسة في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٧٥ .

([٢٦]) المصدر السابق، ص ٧٥.

([٢٧]) المصدر السابق، ص٧٥.

([٢٨]) المصدر السابق، ص٧٦.

([٢٩]) المصدر السابق، ص٧٦.

([٣٠]) المصدر السابق، ص٧٦.

٣- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:

وهذه قاعدة أصولية معتبرة، فلو أردنا تطبيقها في موضوعنا هذا لقلنا: إن هناك العديد من المصالح أو المبادئ التي دعا إليها الإسلام، يتوقف وجودها، أو لا يتم تحقيقها بشكل متكامل وجيّد، إلا في ظل نظام التعددية السياسية والحزبية، ومن ذلك (الشورى).. "فمجال عمل الشورى، في باب السياسة والحكم، يتمثّل في عملية انتقال السلطة، والرقابة عليها، وفي كلا الأمرين تلعب التعددية السياسية دوراً هاماً في حسن القيام بهذه الأمور على وجهها المنشود"([٣١]). "وإذا كانت الشورى لا تتحقق، في أرشد تطبيقاتها، وأكثرها فعالية، في واقعنا المعاصر، إلا من خلال التعددية السياسية، فقد امتهد القول بشرعية هذه التعددية، بل بوجوبها، بناء على قاعدة مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، إذ الوسائل تأخذ حكم المقاصد: حلاً، وحرمة"([٣٢]). وليس القول هنا: "أن التعددية هي الصورة الوحيدة لتحقيق الشورى، حتى يثور الاعتراض، وإنما كانت الدعوى أن التعددية هي أرشد، أو من أرشد، تطبيقات مبدأ الشورى في عملية انتقال السلطة في واقعنا المعاصر.."([٣٣])..

"فالشورى - قاعدة الأساس في النظام السياسي الإسلامي - لا تتحقق بالصورة المرجوة إلا في ظلّ هذه التعددية، والتعاون على البر والتقوى يقود إلى التعددية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا ما أريد لهما ألا يتحول إلى فوضى، فإن التعددية تضمن لها الفاعلية، وعمق التأثير"([٣٤]).

أما (الرقابة) على السلطة، فهو حقّ أصيل للأمة، "وهو مبنيّ على أنها صاحبة الحق في السلطة ابتداء، وقد فوّضت أئمتها في القيام بتبعاتها في إطار (ما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة)، ويبقى لها حق، بل عليها واجب الرقابة"([٣٥])... ولا شك أن إقامة مثل هذا الواجب لن تتحقق، في صورته المجدية والعملية، إلا إذا تجاوز الجهود الفردية، "وقد انتهت التجارب السياسية المعاصرة إلى أن الأحزاب أكثر فعالية، وأعمق أثراً، وأجدى، في

([٣١]) المصدر السابق، ص٧٧.

([٣٢]) المصدر السابق، ص٧٨.

([٣٣]) المصدر السابق، ص٧٨.

([٣٤]) مقال التعددية والمعارضة في الإسلام لفهمي هويدي، مجلة العربي، العدد (٣٥٤)، مايو ١٩٨٨م، المنشور ضمن كتاب (مجلة العربي) رقم (٤٥) المعنون بـ (رؤى إسلامية معاصرة)، والمطبوع سنة (٢٠٠١)، ص١١٨.

([٣٥]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية : د. صلاح الصاوي. مصدر سابق، ص٧٩.

باب التغيير، واستصلاح الأحوال، من المعارضات الفردية المتناثرة، لا سيّما وأن المتأمّل في أحاديث الحسبة، يجد صيغة الخطاب فيها تتوجه إلى المجموع، لا إلى الآحاد"([٣٦]).

٤- قاعدة الذرائع والنظر إلى المآلات:

وهذه أيضاً من القواعد الأصولية المعتبرة، "والأصل في اعتبار الذرائع هو النظر إلى مآلات الأفعال.. فقد يكون الشيء مشروعاً، ولكن يمنع باعتبار مآله، وقد يكون غير مشروع، ويترخص فيه باعتبار مآله"([٣٧])، و"لقد تمهّد من استقراء النصوص الشرعية، أن الاستقرار السياسي في الدولة الإسلامية، ومنع فتنة الخروج المسلح على الأئمة، أحد مقاصد الشريعة في هذا الباب، حتى أنها أوجبت الصبر على أئمة الجور، والتزام الطاعة لهم في غير معصية، وإن جلدوا الأبشار، وأخذوا الأموال، مراعاة لهذا المقصود"([٣٨]). ومعلوم أن الخلاف والفتنة قد وقع في هذه الأمّة من قبل، وسيظل يقع، لأن من طبيعة المجتمعات الإنسانية الاختلاف في الرؤى والمصالح، والتضارب في الاجتهادات، فإذا كان الأمر كذلك، كان حقاً علينا أن نفكر في (التعددية السياسية، والحزبية) باعتبارها حلاً يقي مجتمعاتنا خطر مثل هذه الفتن، و"إذا أمكن التوصّل إلى صيغة تتيح للمعارضة شرعية الوجود، وشرعية العمل، وشرعية المشاركة في الحكم، على وجه من الوجوه، أليس هذا من جنس تحقيق مقصود الشارع في قطيع الذريعة إلى الفتن، وإشاعة الاستقرار في دار الإسلام"([٣٩]).

أما الحديث عن المفاسد التي تصاحب (التعددية)، كالحديث عن التمزّق والانقسام الذي تزرعه، أو عن التنافس على السلطة والمصالح، أو غير ذلك، فهي دعوة إلى "مصادرة الرأي الآخر بحجّة اتّقاء الفرقة... وهي دعوة لإهدار مصلحة محقّقة تحسبّاً لمفسدة محتملة، وهو ما لا يقول به عقل أو نقل"، كما يقول فهمي هويدي([٤٠])..

([٣٦]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية : د. صلاح الصاوي. مصدر سابق، ص٨٠. ويقول (د. يوسف القرضاوي) في كتابه «من فقه الدولة في الإسلام»: "إذا أردنا أن يكون لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر معناها وقوتها وأثرها في عصرنا، فلا يكفي أن تظل فريضة فردية محدودة الأثر، محدودة القدرة، ولا بد من تطوير صورتها، بحيث تقوم بها قوة تقدر على أن تأمر وتنهى، وتنذر وتحذر، وأن تقول عندما تؤمر بمعصية: لا سمع ولا طاعة، وأن تؤلب القوى السياسية على السلطة إذا طغت، فتسقطها بغير العنف والدم" ص١٤٩.

([٣٧]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية : د. صلاح الصاوي. مصدر سابق، ص٨١.

([٣٨]) المصدر السابق، ص ٨٢.

([٣٩]) المصدر السابق، ص ٨٤.

([٤٠]) رؤى إسلامية معاصرة، كتاب العربي، مصدر سابق، ص١١٩.

ثم ألا ينظر هؤلاء الذين يتحدّثون عن مفاسد التعددية إلى "المفاسد التي تترتّب على المعارضة السرية التي تولد وتنمو في السراديب، ثم تنفجر فجأة في صور انقلابات عسكرية وثورات شعبية"([41])، وهي البديل الطبيعي إذا غابت التعددية السياسية والحزبية! وقد "علّمنا التاريخ، وتجارب الأمم، وواقع المسلمين، أن تقويم اعوجاج الحاكم ليس بالأمر السهل، وبالخطب اليسير"([42])، كما يقول د. يوسف القرضاوي، وخاصة في ظل (الدولة الحديثة)، التي تحتكر لنفسها كل مصادر القوة، فلا بد إذن من "تنظيم هذا الأمر، لتقويم عوج الحكام بطريق غير سلّ السيوف، وشهر السلاح"([43])..

نعم، إن الموازنة بين المفاسد المتوهّمة، أو حتى المحققّة، الناجمة عن التعددية السياسية والحزبية، وبين المصالح التي تتحقّق بها من إتاحة الفرصة للخبرات أن تثري العمل السياسي، فضلاً عن تعميق الوعي السياسي لدى العامة، وصيانة الحريات، ومنع التسلط، وإشاعة الاستقرار.. كل ذلك يدفعنا إلى المناداة بمثل هذه الآليات والحلول.. "ألسنا نرى في الواقع أن الدول التي تطبّق هذا النظام هي أبعد الدول عن الثورات المسلحة والانقلابات العسكرية، بما أطلقوه من حرية المعارضة، وحرية التعبير، وحق المعارضة في المشاركة في الحكم، إنْ حازت تأييد الأغلبية"([44])..

"والخلاصة أن التعددية ذريعة إلى منع الاستبداد من ناحية، وإلى منع الاضطرابات، والثورات المسلحة، من ناحية أخرى.. والوسائل أو الذرائع تأخذ حكم المقاصد أو الغايات، حلاً وحرمة"([45]).. فهل يبقى شك بعد هذا في انتفاء الحرمة عن (التعددية الحزبية)؟ !

٥- صيانة الحقوق والحريات العامة:

إن صيانة الحقوق والحريات العامة هي من مقاصد الشرع الأساسية، وقد استخلف الله سبحانه وتعالى الإنسان في الأرض، وسخر له ما في الكون جميعاً، وجعل مدار مقاصد الشريعة على رعاية مصالح الإنسان، وصيانة حقوقه (في حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال). ولقد رفع الإسلام هذه الحقوق إلى مرتبة الحرمات: قال صلى الله عليه

([41]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٨٤.
([42]) من فقه الدولة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، (م . س)، ص١٤٩.
([43]) المصدر السابق، ص ١٤٩.
([44]) التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٨٤.
([45]) المصدر السابق، ص ٨٥.

وسلم: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هـذا في شـهركم هـذا في بلدكم هذا)([٤٦]).

ولما كان مقصود الشارع في حماية هـذه الحقـوق والحريـات لا يتـأتى إلا بإنشـاء هـذه التكتلات الشعبية، التي تحمي الفرد من عسف السلطة، وجور الحكام، إذ – كما سـبق أن قلنا – إن الفرد الأعزل لا قبل له بالوقوف أمام جبروت السلطة، كان من الواجب الصيرورة إلى القول بجـواز، بـل وجـوب نظـام التعدديـة السياسـية والحزبيـة.. "ونحـن لا نـزعم أن التعددية هي الإطار الأوحد الذي لا يتصور غيره لصيانة هذه الحقوق والحرمـات العامـة، ولكنها من آكد هذه الأطر، وأكثرها فعالية، وأعمقها أثراً، وهـي اللغـة التـي يفهمهـا ولاة الأمر في هذا العصر، وتعارفت عليها الأنظمة السياسية في مختلف البلاد"([٤٧]).

٦- السوابق التاريخية:

يقول (د. محمد عمارة): "إذا كان التمايز في التنظيم الحزبي، على النحـو الـذي نفهمـه اليوم من مصطلح (الحزب)، هو من ثمرات التطور في الحيـاة الفكريـة والسياسـية – وهـو تطور تتمايز فيه الحضارات والمجتمعات – فإن التجربة السياسـية الأولى قـد شـهدت مـن (المؤسسات) ما يشبه التمايز التنظيمي – ولا نقول الحزبي – على نحو من الانحاء"([٤٨]). ثم يسمّي من هذه المؤسسـات: (هيئـة المهـاجرين الأولـين)، و(هيئـة النقبـاء الإثنـي عشـر)، وغيرها..

ويرى (د. يوسف القرضاوي) أن تعدّد الأحـزاب في مجـال السياسـة، أشـبه شيء بتعـدّد المذاهب في مجال الفقه، فالمذهب الفقهي أشـبه بــ (حـزب فكـري) التقـى أصـحابه عـلى مجموعة من الأصول، "ومثل ذلك الحزب: إنه مذهب في السياسـة، لـه فلسـفته، وأصـوله، ومناهجـه، المسـتمدة أساسـاً مـن الإسـلام الرحـب"([٤٩]).. ويـرى الـدكتور (القرضـاوي) أن (الخوارج) كانوا (حزباً)، وكانوا يمثّلون (المعارضة المسلحة)، ومـع ذلـك فـإن (الإمـام عـلي) (رض) لم يلغ وجودهم، ولم يأمر بمطاردتهم وملاحقتهم، حتى لا يبقـى لهـم أثـر، بـل قـال

([٤٦]) متفق عليه.

([٤٧]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٨٦.

([٤٨]) معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، د. محمد عمارة، مصدر سابق، ص١٣٠.

([٤٩]) من فقه الدولة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، (م . س)، ص١٥١ .

لهم في صراحة وجلاء: لكم علينا ثلاث: ألا نمنعكم مساجد الله، ولا نحرمكم من الفيء، ما دامت أيديكم في أيدينا، ولا نبدأكم بقتال"([٥٠]).

ويذهب (د. محمد رضا محرم)، هو الآخر، في كتابه (تحديث العقل السياسي الإسلامي)، إلى أنه ثمة تيارات سياسية، وجماعات، تكوّنت منذ عهود الإسلام الأولى، فهو يرى أن (فتنة عثمان) أفرزت (خمسة) تيارات سياسية – فكرية، في مجتمع المسلمين، وأن هذه التيارات تطوّرت فيما بعد لتأخذ صيغة تكاد تكون دينية بحتة، "وقد ورثنا - نحن المسلمون المعاصرون - من هذه التيارات طبعاتها الدينية فقط، وأدمنّا التعامل معها، حتى إن الكثيرين منّا لا يزالون يخدعون عن الجوهر السياسي لها، بالمظهر الديني الذي بقي عنها"([٥١]).

فهو يرى - إذن -، مع الكثيرين غيره، أن المسلمين قد عرفوا - منذ وقت مبكر- الجماعات والأحزاب السياسية – وإن لم يطلقوا عليها هذه الأسماء -، وقد كانت هذه الجماعات والفرق تمزج الديني بالسياسي، بصورة طبيعية، "لأنه في إطار الثقافة الإسلامية، التي لم يتمايز فيها الديني من السياسي، نشأت الفرق الكلامية، والمذاهب الفقهية، والطرق الصوفية – في الغالب – بدوافع وأهداف وأبعاد سياسية"([٥٢]).

فهذه السوابق التاريخية - إذن - تؤكد أن الحضارة الإسلامية قد عرفت (التعددية) حتى في المجال السياسي، فضلاً عن إقرارها في مجال (الكون) و(الإنسان) و(المجتمعات)([٥٣])..

أما الذين يرون أن هذه (التعددية) كانت "مرضاً انتاب جسد الأمّة، ولم يكن ظاهرة صحية يحتج بها"([٥٤])، ويستدلون على ذلك بمثل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}[الأنعام: ١٥٩]. وبالقول بـ "إنه لم يكن ثمة فرق في عهده (صلى

([٥٠]) المصدر السابق، ص١٥٧. ويرى (د. عصام البشير) أن الخوارج يمثلون "أول معارضة سياسية" في الإسلام. انظر: مجلة (المجتمع) الكويتية، العدد (١٢٣١) الصادر في ١٩٩٦/١٢/٢٤، ص ٣٠ ، حوار مع المفكر الإسلامي د. عصام البشير.

([٥١]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٨٧-٨٨.

([٥٢]) الحريات العامة في الدولة الإسلامية، راشد الغنوشي، مصدر سابق، ص٢٥٠. وانظر كذلك: الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مصدر سابق، ٢٢-٢٤، حيث يورد آراء للشيخ (محمد مهدي شمس الدين)، والشيخ (أحمد الشامي) – وهو وزير سابق للشؤون الإسلامية في اليمن -، والدكتور (محمد ضياء الدين الريس)، والشيخ (محمد أبو زهرة)، تذهب كلها في اتجاه تأكيد معرفة المسلمين للتنظيمات السياسية منذ عصورهم المبكرة.

([٥٣]) التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية، د محمد عمارة، مصدر سابق ص ٦-١٤.

([٥٤]) كما يقول (د. مصطفى كمال وصفي)، فيما ينقله عنه (د. صلاح الصاوي)، انظر: التعددية السياسية في الدولة الإسلامية، (م. س)، ص٩٢ .

الله عليه وسلم) حتى قامت الفتنة بين علي ومعاوية (رض)"([٥٥]).. فمن المؤكد أن هؤلاء قد خلطوا بين أصل الظاهرة، ووجودها في مجتمع المسلمين، وبين (الفتن) التي رافقت ظهور هذه (الفرق)، أو الأفكار الابتداعية التي كانت تحملها فرق أخرى.. وقد رأينا كيف كان موقف الإمام علي (رض) – وهو يمثّل قمّة السلطة الإسلامية يومذاك – مع (الخوارج)، ونرى كيف يلغي هؤلاء وجودهم بجرّة قلم؟!.. وفي الحقيقة، فإن "المشكلة ليست في وجود (التعددية)، ولكنها في مدى قبول الفرد للآخر، أو الجماعة للأخرى، ومدى التسامح الذي يبديه كل فرد، أو كل جماعة، تجاه الآخرين"([٥٦])..

فليست المسألة في أفكار هؤلاء، أو (بدعهم)، أو (الفتن) التي رافقت ظهورهم، ولكنها في كيفية التعامل معهم: هل نقبلهم ضمن النظام العام للدولة، فهي إذن (التعددية) التي ندعو إليها؟ أم نمحقهم، ونطمس آثارهم؟! وهي الدكتاتورية والطغيان الذي يبرأ منه الإسلام، والتي لم يؤسس لها (الإمام علي) (رض) حتى مع أعتى خصومه، وإنما يروّج لها بعض الكتاب المعاصرين.

ثم إن (الفرق) و(المذاهب) الإسلامية، ليست من (التفرقة في الدين)، هكذا على الإطلاق، ولم يتحدّث عنها المسلمون هكذا، كما أن عدم ظهورها في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يعدّ مبرّراً لسلبها الحياة، فيما لو ظهرت بعده، لأن هذا ممّا يدخل في باب (السياسة الشرعية)، وهو باب معلوم من أبواب الفقه السياسي، وقد سبق الحديث فيه([٥٧]).

٧- البدائل المعاصرة :

من الواضح أن رفض نظام (التعددية السياسية، والحزبية)، يعني ارتضاء بديله.. فما هو البديل؟

إنه الأنظمة التسلطية التي تحتكر لنفسها كل شيء.. وقد جرّبنا مثل هذه الأنظمة في تاريخنا القديم والمعاصر، فماذا فعلت بنا؟.. "لقد وقف الفرد في بلادنا أعزل أمام جبروت

([٥٥]) المصدر السابق، ص٩٢.

([٥٦]) مقال: الحركات الإسلامية في الفكر السياسي الإسلامي المعاصر، محمد فريد حجاب، مجلة (منبر الحوار)، عدد عام ١٩٩١ ، ص٤٦.

([٥٧]) انظر فقرة (السياسة الشرعية)، فيما سبق من البحث.

الحكام، ولم يسمع في بلادنا إلاّ صوت واحد، وهو صوت الزعيم الملهم"([58]).. "أمّا ما يحدث في بلاد المشركين: حيث التعددية، وما يصحبها من شرعية المعارضة، وكفالة الحريات، وتداول السلطة بين الأحزاب، فقد علم به القاصي والداني، وأصبح حديث الركبان"([59])، وهو ما يقول عنه (الشيخ محمد الغزالي) بأنه "من خصائص الديمقراطية الحديثة"([60])، التي يرى أنها "نظرة تقترب كثيراً من تعاليم الخلافة الراشدة"([61]).

ثم إنه "إذا كان للتعددية مثالبها، فللأحادية مثالبها كذلك، إلا أن المثالب الكامنة في الأحادية أدهى وأمر. وإذا كان لنا أن نختار، فإن مبنى الشريعة تحقيق أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما"([62]).

وبعد :

فإن المؤيدين لنظام (التعددية السياسية، والحزبية) يرون أن "الاجتماع على الخير، والتعاون على البر، والتعاقد على ذلك، من الأمور المشروعة في ذاتها ابتداء، فإذا أضيف إلى ذلك: إسباغ المشروعية عليه من أولي الأمر، واستيعابه ضمن المنظومة السياسية القائمة، فقد تأكّدت مشروعيته، وانتفت عنه كل شبهة"([63]). بل إنهم يرون "إن في الانتظام بذلك الحزب، أو تلك الجماعة، كمال الالتزام بجماعة المسلمين، وإمامهم. ولأن في الاجتماع على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعاون على البر والتقوى، وأداء لوظيفة الأمّة المسلمة، التي هي علامة الخيرية فيها، ودليل وجود الموالاة والمودة بينها"([64]).

ويرى دعاة التعددية السياسية، والحزبية، أيضاً: أن "دعوة الناس إلى دعم هذه الاجتهادات، ومؤازرة أصحابها، لوضعها موضع التنفيذ، أمر مشروع في ذاته، فهو من جنس

([58]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٩٣. بل إن بعض الكتاب يذهب إلى أن "التعسف السياسي، الذي كان غالب الخلفاء المسلمين يمارسونه ضد الأمة المسلمة"، هو الذي أدى إلى عدم ظهور الأحزاب السياسية المنظمة في الدولة الإسلامية، وهو الذي أدى بالتالي إلى انعدام "الحاجة لا ستنباط الأحكام الفقهية التي تعالج هذا الجانب السياسي في الدولة الإسلامية". انظر: حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية في الإسلام، أحمد العوضي، مصدر سابق، ٤٥.

([59]) المصدر السابق، ص ٩٣.

([60]) الحركات الإسلامية والديمقراطية، مجموعة كتّاب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٩.ص٧٣.

([61]) المصدر السابق نفسه، ص٧٣.

([62]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٩٤ .

([63]) المصدر السابق، ص ٩٤.

([64]) حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية في الإسلام، أحمد العوضي، (م. س)، ص٣٩.

الدعوة إلى عموم الخير، وكافة المسائل الاجتهادية. ولا يزال أهل العلم يبلّغون الناس ما يعتقدون، ويدعونهم إليه، ويحثّونهم عليه"([٦٥])، فإذا "أضيف إلى ذلك: مباركة أولي الأمر لهذا المسلك، وإتاحتهم للأمّة حرّية النقد والتعبير عن الرأي، وإسباغ الشرعية على المعارضة السياسية، ما دامت تدور في فلك الأصول الشرعية المعتبرة"([٦٦])، فإن ذلك ممّا يعزّز أهمية هذا الأمر، وضرورته، لسلم المجتمع، واستقراره، ...

"وأمّا طلب الولاية، فرغم أنه مكروه، لما صحّ من النصوص في ذمّه، ولما يؤدّي إليه التنافس على طلبها من التحاسد، وفساد ذات البين، في الغالب، إلا أن هذه الكراهة يمكن تقييدها بمن طلب الولاية لمصلحة نفسه، أما إذا كان لمصلحة الدين، والقيام بمصالح المسلمين.. فذلك مشروع، وقد يرتفع إلى درجة الواجبات، باعتبار أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب"([٦٧]). وطلب الإمارة ليس مذموماً بإطلاق، "لا سيما إذا كان طالبها أهلاً لها، ولا يوجد من هو أكفأ منه"([٦٨]).

ثم "إن من قصور الفهم، ومن الورع الأحمق، ترك المفسدين يتولّون الوظائف في الدولة المسلمة، ويفسدون في البلاد، وأهل الأمانة والعدل مكتوفوا الأيدي، متزهّدون، متورّعون، خوفاً من مسؤولية الإمارة، بالرغم من الحاجة إليهم"([٦٩])، بل إن "من أنكر المنكر القول: بوجوب سدّ الطريق على الأحزاب السياسية المسلمة، إذا أرادت تسلّم السلطة في الدولة التي لا يحكمها التشريع الإسلامي... بل إن القعود عن نصرة الأحزاب السياسية المسلمة الساعية لذلك، قعود عن الحق، وتخلّف عن التعاون على البر والتقوى"([٧٠]).

وأمّا شبهة منازعة الأئمة في ذلك، فإن البعض يردّها بالقول: إن ميدان التنافس في نظام التعددية الحزبية، يمكن تنظيمه بحيث لا يشمل منصب (الخليفة، أو رئيس الدولة)، وبالتالي لا يعد الأمر "منازعة لأصل السلطة، وإنما تنافس سلمي مشروع على طلب ولاية من ولايات الدولة الإسلامية"([٧١]).

([٦٥]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، (م. س)، ص٩٥.

([٦٦]) المصدر السابق، ص ٩٥.

([٦٧]) المصدر السابق، ص٩٥.

([٦٨]) حكم المعارضة وإقامة الأحزاب السياسية ..، أحمد العوضي، مصدر سابق، ص٥١.

([٦٩]) المصدر السابق، ص ٥٤.

([٧٠]) المصدر السابق، ص ٥٤.

([٧١]) التعددية السياسية، د. صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٩٥. وانظر كذلك: حكم المعارضة..، أحمد العوضي، مصدر سابق، ص٣٦-٣٧.

ويذهب الدكتور (القرضاوي) وجهة أخرى في ردّ هذه الشبهة، عندما ينفي عن (الدولة الإسلامية) صفة (العصمة والقداسة)، "وأكبر خطأ أن تظن الدولة، أو يظن بعض الموالين لها: أن الحق معها وحدها، والصواب دائماً في جانبها، وأن من خالفها فهو على خطأ، بل على باطل"([٧٢])، "وإذا انتفت العصمة والقداسة، فكل الناس بشر، لا يؤمَنْ أن تغرّهم الحياة الدنيا، ويغرّهم الله بالغرور، فيستبدوا، ويظلموا، وأشد أنواع الاستبداد خطراً ما كان باسم الدين، فإذا لم توضع الضوابط، وتهيأ السبل، لمنعه من الوقوع، وإزالته إذا وقع، حاق الضرر بالأمّة، وأصاب شرره الدين أيضاً"([٧٣]).

وأمّا شبهة تشرذم الأمة، وتفكّك وحدتها، فإن "التعدّد لا يعني بالضرورة التفرّق، كما أن بعض الاختلاف ليس ممقوتاً، مثل الاختلاف في الرأي نتيجة الاختلاف في الاجتهاد، ولهذا اختلف الصحابة في مسائل فروعية كثيرة، ولم يضرّهم ذلك شيئاً"([٧٤]). "وإذا كانت الأمّة قد قبلت بتعدّد المذاهب الفقهية، ولم تعتبر ذلك تشرذماً في الأمّة، فلم لا تقبل بتعدّد المذاهب السياسية لمصلحة الأمّة، ولا تعتبره تشقيقاً للأمة؟"([٧٥]).

صحيح أن "التحزّب على أصول كلية بدعية، لا يصلح أساساً للعمل السياسي في الدولة الإسلامية، لأن مثل هذا التحزّب يفارق به أصحابه جماعة المسلمين"([٧٦])، ولكن من قال إن الاختلاف في المسائل الاجتهادية، ومجالات الشورى، هو غير مشروع، أو غير مطلوب؟! وقد علمنا "إقرار العلماء والفقهاء، قديماً و حديثاً، بالفرق والمذهب الإسلامية، على قاعدة شرعية وحقّ الاجتهاد في الإسلام"([٧٧])..

ثم إن "التزام الطاعة لأولي الأمر – في النهاية – لا يمنع من أن بعض هذه الاجتهادات أولى من بعض، وأن بعضها قد يحقّق المصالح العامة، وبعضها قد يفتح على الأمّة أبواباً من المفاسد ينبغي السعي لإغلاقها، وإن كان أصحابها معذورون مأجورون، فالتغافر أمر، والسعي لإنقاذ الاجتهاد الصحيح، من خلال الوسائل المشروعة، أمر آخر"([٧٨]).

"والأصل أن الإطار الذي يحكم نظرة كل فريق إلى الآخر، في هذه الدائرة، هو المقولة المأثورة عن الأئمة: (ما نحن عليه صواب يحتمل الخطأ، وما عليه غيرنا خطأ يحتمل

([٧٢]) من فقه الدولة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مصدر سابق، ص١٥٠ .

([٧٣]) المصدر السابق، ص١٥٠.

([٧٤]) المصدر السابق، ص١٥٣.

([٧٥]) التعددية السياسية، صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٩٦.

([٧٦]) المصدر السابق، ص٦٢.

([٧٧]) الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، زكي الميلاد، مصدر سابق، ص٢٧.

([٧٨]) التعددية السياسية، صلاح الصاوي، مصدر سابق، ص٦٢.

الصواب)، وأن هذه المسائل لا علاقة لها بكفر، ولا بإيمان، ولا يقدح بها في دين المخالف، أو عدالته"([٧٩])، فهو مأجور على كلا الحالين، سواء أصاب أو أخطأ..

وأما شبهة أن (التعددية) مبدأ مستورد، وأن من الواجب أن يكون لنا استقلالنا الفكري والسياسي، فلا نتبع سنن غيرنا شبراً بشبر، وذراعاً بذراع... فمن المعلوم أن الذي حذرنا منه، هو: "التقليد الأعمى لغيرنا، بحيث نغدو مجرد ذيول تَتبع ولا تُتبع، وتمضي خلف غيرها في كل شيء (حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه)، كما صور ذلك الحديث النبوي الصحيح"([٨٠]). "أمّا الاقتباس منهم، فيما عدا ذلك، ممّا هو من شؤون الحياة المتطورة، فلا حرج فيه، ولا جناح على من فعله، والحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها"([٨١]).

"ومن الشبهات التي أثيرت كذلك: ما قيل من أن وجود أحزاب داخل الدولة الإسلامية يقسّم ولاء الفرد بين حزبه الذي ينتمي إليه، ودولته التي بايعها على السمع والطاعة والنصرة والمعونة. وهذا صحيح إذا كان الفرد يتخذ موقف المعارضة للدولة في كل شيء، والتأييد لحزبه في كل شيء. وهذا ما لا نقول به"([٨٢]). "وانتماء الفرد المسلم إلى قبيلة، أو إقليم، أو جمعية، أو اتحاد، أو حزب، لا ينافي انتماءه للدولة، وولاءه لها. فإن هذه الولاءات والانتماءات كلها مشدودة إلى أصل واحد هو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين"([٨٣]).

هذه إذن هي أهم الأدلة والردود التي يقدمها الفريق الثاني للدفاع عن تبنّيه لنظام التعددية السياسية، والحزبية.. ويهمنا قبل أن نختم هذا الحديث أن ننقل هذا المقطع للشيخ الدكتور (يوسف القرضاوي)، يتحدث فيه عن (التعددية التي ندعو إليها)، فيقول: "وعندما نجيز مبدأ التعدد الحزبي داخل الدولة الإسلامية، فليس معناه أن تتعدد الأحزاب والتجمعات، بتعدد أشخاص معنيين، يختلفون على أغراض ذاتية، أو مصالح شخصية، فهذا حزب فلان، وذاك حزب علان، وآخر حزب هيّان بن بيّان، جمعوا الناس على ذواتهم، وأداروهم في أفلاكهم. ومثل ذلك: التعدّد المبنيّ على أساس عنصري، أو إقليمي، أو طبقي، أو غير ذلك من إفرازات العصبية، التي يبرأ منها الإسلام. إنما التعدّد المشروع هو: تعدّد الأفكار، والمناهج، والسياسات، يطرحها كل فريق مؤيدة بالحجج والأسانيد، فيناصرها من

([٧٩]) المصدر السابق، ص٦٨.

([٨٠]) من فقه الدولة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مصدر سابق، ص١٥٥.

([٨١]) المصدر السابق، ص ١٥٥.

([٨٢]) المصدر السابق، ص ١٥٦.

([٨٣]) المصدر السابق، ص ١٥٦.

يؤمن بها، ولا يرى الإصلاح إلا من خلالها، ويرفضها من يرى الصلاح أو الأصلح في خلافها ... فإذا انتصرت فئة من هذه الفئات، وأصبحت مقاليد السلطة بيدها، فهل تلغي الفئات الأخرى من الوجود، وتهيل على أفكارها التراب، لمجرد أنها صاحبة السلطان؟ هل الاستيلاء على السلطة هو الذي يعطي الأفكار حق البقاء؟ والحرمان من السلطة يقضي عليها بالفناء؟ إن النظر الصحيح يقول: لا، فمن حق كل فكرة أن تعبّر عن نفسها، ما دام معها اعتبار وجيه يسندها، ولها أنصار يؤيدونها"([٨٤]).

وأخيراً، فقد كان ما سبق عرضاً موجزاً لأهم الأدلة والشبهات التي يقول بها الفريق الذي يقف معارضاً للتعددية السياسية والحزبية، ثم ردود الفريق الثاني المؤيد لها عليها..

بقي أن نشير إلى أن الفريق المؤيد للتعددية السياسية والحزبية ليس فريقاً واحداً، وإنما هو ينقسم - بعد الاتفاق على إقرارها - إلى ثلاثة اتجاهات:

الأول، فريق يقول بأنها تعددية إسلامية حصراً .

الثاني، فريق يقول إنها تعددية إسلامية مشروطة .

أما الثالث، فيقول إنها تعددية مطلقة❐

([٨٤]) المصدر السابق، ص ١٥١.

رؤية

الوسطية السياسية

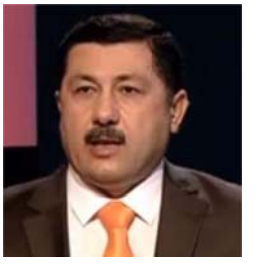

شيروان الشميراني

✍الوسطية من أخص خصائص الإسلام، لا تضاهيها خاصية أخرى، باستثناء خاصية الشمول التي يعرف بها هذا الدين.. وبشمول الإسلام تكون الوسطية حاضرة في جميع المجالات التي يكون الإسلام فيها حاضراً، ومن هذه المجالات الجانب السياسي؛ من حيث الفهم، ومن حيث الممارسة..

والمقصود بالوسطية السياسية، هو تجنّب السياسات المستسلمة للواقع، وكذلك تلك التي تفجّر الواقع وتجعله واقعاً مهدّماً.. بمعنى العمل المضني المتواصل من أجل تحقيق المقاصد المحققة للمصلحة العامة، التي تحفظ للإنسان دينه.

و هذا يكون:

أولاً: في مناهج التغيير، فهو منهج وسط بين المناهج التي تتبع المسار الراديكالي الذي يحدد هدفاً، ويحرق الأخضر واليابس من أجله، دون الالتفات إلى ما يأتي به مساره من هدم وتدمير، قد يكون أكثر بكثير مما يسعى إلى تحقيقه، وهذا ما ينتج العنف في الممارسة، أو ما يسمى باللغة الحديثة: الثورة. وهنا أقصد الثورة المصحوبة بالعنف، وليست الثورات أو الهبّات الجماهيرية التي تصون العباد والبلاد. فهو يرفض هذا المسار في النضال، وكذلك المسار الاستسلامي، الذي يقبل بكل شيء بمسوغ الحفاظ على الاستقرار، أو ما حدث في التاريخ الغابر، والمسمّى بـ(حكم المتغلّب)، بمعنى رفض المنافسة السياسية القانونية والشرعية لأهل الحكم، تحديداً شخص الحاكم أو الرئيس. هذان المساران اللذان تمّ تبنيّهما من طرف حركات وأحزاب ومدارس فكرية دينية، ويسارية علمانية، من مثل السلفيين الجاميين، أو المدخليين، الذين تحوّلوا إلى رافعة وحصان طروادة لكل طالب سلطة، وحمايته بفتاوى دينية، ومن مثل الحركات اليسارية العنفية، التي لا تراعي حرمة دينية ولا إنسانية.

بين هؤلاء وهؤلاء، يكون الموقف الوسطي المعتدل، الذي لا يسكت على ظلم، ولا يضيّع حقاً، و لا يدمّر أرضاً.

والأصل في هذه الرؤية، هو العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومن أبرزها، قول الله – سبحانه-: {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم}، بمعنى أن الله تعالى قد حرّم على العباد الجهر بالقول السيء؛ من الشتيمة والغيبة والنميمة. لكن هذه الأنواع من القول، تكون حلالاً للمظلوم، لمن آلمه ظلم الحاكم، أو ظلم غيره، داخل الحكومة وخارجها، وله أن يتخذ من الوسائل المشروعة ما يضمن له إعادة حقّه إليه.

هذا الوجه للوسطية الإسلامية، يتطلب إعادة النظر الجاد - من الناحية الفقهية - بما تم الاصطلاح عليه في التاريخ الفقهي الإسلامي بـ(حكم المتغلّب)، الذي حوّل الدين والمسجد إلى كنيسة متحالفة مع الحاكم، تبرّر له ظلمه واستبداده واضطهاده للناس المخالفين له في الفكر والسياسة.

الفكر الإسلامي الحديث تجاوز هذه المعضلة الفقهية، لكن المدارس التي أشرنا إليها في الأسطر السابقة ما زالت تتمسك بها، وتبثّها كالسّم داخل المجتمعات المسلمة..

ثانياً: ومن معاني الوسطية السياسية، العمل من أجل تحقيق القيم السياسية التي حدّدها الدين كجزء من مهمات الإنسان المسلم، مع البحث عن كل وسيلة لا تخالف في نتائجها المقاصد العليا للإسلام. بمعنى أن قيم (الحرية والعدالة والأخوة والمساواة والبناء والتعمير والسلام العام)، وغيرها، هي التي يجب على المرء العمل لتحقيقها، وهي قيم إسلامية ثابتة، ومن دون النظر إلى الوسيلة التي يتم توظيفها من أجل تجسيدها. بمعنى أن الوسائل التي أنتجها العقل البشري، والمعارف البشرية، حتى تلك التي أنتجها غير المسلمين، هي وسائل يمكن تبنّيها والاستفادة منها.. إن عدم الاستجابة لمنتجات العقل البشري التاريخي، من حيث الوسائل، وعدم الرضوخ لمنتجات العقل المعاصر يخالف المقاصد العليا للإسلام. إذ الأصل الثبات في القيم الأساسية، والتغيّر والتنّوع والتحديث في الوسائل والمسالك.

وهنا تخالف الوسطية السياسية الإسلامية، مناهج الفكر الغربي التي تأتي بقيم مرفوضة في ممارسة السياسة، مثل البحث عن المصلحة على أشلاء الناس، وكذلك المدارس الفكرية التاريخية التقليدية الدينية، التي ترفض الوسائل الحديثة في النضال..❐

مقالات

-في ظلال آية	علي سليم
- نظرة مختصرة حول معاني سورة الفاتحة	قاسم نوفيسي
- لمحة عن حياة الأستاذ صلاح الدين محمد بهاءالدين	د. عبد اللطيف ياسين
- مملكة الله على الأرض	د. سعد الديوجي
-التكنولوجيا وبصماتها في عالم السياسة	عمار وجيه
- كنز ربا: الكتاب المقدس للصابئة المندائية	د. أكرم فتاح
- المنصات الإعلامية والالكترونية والمستقبل المظلم	صالحة علام
- ابتلاء المؤمنين	رشاد محمود
-الفرعونية العالمية	صالح شيخو الهسنياني

في ظلال آية

علي سليم

قال تعالى في محكم التنزيل: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

يسود اعتقاد لدى العديد من الأوساط، من وحي ما استنبطوه من هذه الآية الكريمة، أن الهدف الرئيسي لخلق الجن والإنس هو العبادة، وأن مهمة الإنسان - ولندع الجان في حالهم - تكاد تنحصر في هذا الإطار، فوجب عليه - تبعاً لذلك - أن يكرس حياته للعبادة، وربما عليه أن يقضيها في الزهد والتنسك. أدّى ذلك إلى نوع من التحفظ، إن لم يكن من التشدد، في التعامل مع الكثير من مفردات الحياة، لجهة أنها زينة ومباهج تغرّر بالعبد، وتلهيه عن واجبات دينه، أو أنها تصرفه عنها كلياً، وتجعله يهوي في المحذور والغفلة، حتى تقوليت الحياة في حالة من السوداوية والكراهة.

لكن كما سنرى، في هذه العجالة، فإن الله سبحانه وتعالى قد أخرج لعباده الكثير من الزينة والطيبات، التي لا يجب تحريمها بالانصراف عنها قصداً، وإجبار النفس على تركها عمداً، واعتبار ذلك تقرباً وعبادة .

في الواقع، لم يأت ذلك التوجه من فراغ، وإنما ساعدت كيفية تناول هذه الآية الكريمة، تفسيراً وتأويلاً، على إيجاده وتنميته.. والإشكال أو الإلتباس الذي ظهر جرّاء استخدام أداة الحصر والاستثناء (إلاّ)، من جهة، وورود (لام التعليل)، من جهة أخرى، في الفعل (لِيَعْبُدُونِ)، وتحديد مرادهما، كان السبب في هذا الالتباس في المعنى.

يشير الحصر والاستثناء، وكذلك التعليل، في الظاهر، أن ليس للإنسان، إلا أن يعبد الله، ويوحّده ، ولأن الجميع لم يفعلوا - كما هو الحال - وكفر عديدهم، ولأن الله تعالى قال في موضع آخر: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ)، والظاهر هنا يدل على أنهم لم يُخلقوا للعبادة، تعقبوا الأمر وأوّلوه، قائلين تارةً: السعداء خُلِقوا للطاعة، والأشقياء للمعصية. وتارةً قالوا: بل الجميع خُلِقوا للإذعان والإقرار بالعبودية، طوعاً وكرهاً، والتذلل للقدر والقضاء، جبراً ولزوماً، فهو جارٍ عليهم، شاءوا أم أبوا.

آخرون قالوا: بل إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله تعالى أنهم يعبدونه، ويوحدونه. ولجأ آخرون إلى قراءة أخرى تقول: وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون، وبذلك أراحوا رؤوسهم من أوجاع الاستثناء والتعليل. وهناك المزيد من التأويلات والتعقيبات في هذا المقام، يمكن الرجوع إليها في مختلف التفاسير .

ثم إن هناك من انطلق فعلاً، من فهم هذه الآية إلى حياة الزهد والتنسك، بل وإلى نوع من الرهبانية التي تنبذ الحياة، وتحقرّها، وسخّروا حياتهم للتعبد بمعزل عن مباهج الحياة، بحجة أن الإنسان إنما خلق للعبادة، وذلك خلافاً لصريح الكتاب والسنة. حيث جاء فيهما، على سبيل المثال لا الحصر: قال تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)، وفي الحديث: (أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)..

يمكن في الواقع، بعد الاتكال على الله تعالى، تناول الآية الكريمة من زاوية أخرى، تنجينا من مخاطر الإشكال المذكور، والله تعالى أعلم .

فالخلق عموماً، في السماوات، والأرض، وما بينهما، وما في كل ذلك من موجودات، ليس إلا تجلّيات أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، سبحانه وتعالى، وما تشتمل عليه من قدرات مطلقة، ومعانٍ لا حد لها. انظرْ مثلاً إلى قوله تعالى - ولو أن الأمر يأتي خارج السياق، إلا أن لطافته تفرض نفسها-: (قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ

كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا). أو قوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، ثم تخيل كيف أن مدى قدرته على الكلام مطلق، ولا نهائي، وقِسْ على ذلك.

في العادة، تأتي الأسماء والصفات لتعبِّر عن واقع الحال. فكل اسم له مبنى يجسِّده: إما مادي، مثل الكرة، وإمّا معنوي، مثل الكرم. يكون الاسم الذي يفتقر إلى المبنى المادي سراباً، والاسم الخالي من مبناه المعنوي وهماً. كذلك الحال بالنسبة إلى الصفة، إذا لم تكن صادقة، تنطبق على موصوفها، حالاً وإحلالاً، كانت كذباً وزيفاً. وهكذا يفقد الاسم حقيقته، وتفقد الصفة جوهرها، إذا لم يتعديان إلى واقع فعلي. فلكي يكون الإنسان كريماً، يجب أن يُبان كرمه على المستفيدين، وإلا لتعطلت صفة الكرم، وسقطت عنه. ولكي تكون الكرة موجودة، يجب أن تستشعرها الحواس الخمسة، أو البعض منها، أو إحداها على الأقل .

لهذا قال بعض المتصوفة، مثل (ابن عربي) إن الكون المخلوق مرآة الخالق، بما معنى أن كل جزئيّة منه إنما تمثّل تجلياً وتجسيداً واقعياً وفعلياً لأحد أسماء الله الحسنى، أو إحدى صفاته العلى. ولولا ذلك لتعطلت معانِ تلك الأسماء والصفات، وهو محال. فكيف يكون خالقاً، على سبيل المثال، إذا لم يخلق؟ وكيف يكون رحيماً، إذا لم يرحم؟ وكيف يكون غفوراً، إذا لم يغفر؟ .. ولعل الحديث الشريف: (لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)، خير بيان لهذه المعادلة، وأوضح برهانٍ عليها.

وإذا أردنا الاستطراد في هذه الحيثية، لوجدنا - فعلاً - أن كل مظهر من مظاهر الطبيعة، وكل وجه من أوجه الحياة، إنما يمثّل تجلياً لأسماء الله تعالى، وصفاته. ولكي لا يفهم من هذا الكلام، وكأننا نضفي نوعاً من الجبر واللزوم على الخالق - جل وعلا-، وأن أسماؤه وصفاته لا تتحقق، وتأخذ بعدها الفعلي، وتتنزه عن التعطيل، إلا وفق هذه المعادلة، ننوّه أن قدرته -جلّ وعلا- مطلقة، وأنه سبحانه وتعالى لا يعدم الوسيلة التي تحقق معاني أسمائه الحسنى، ومدلولات صفاته العلى. فمعبوديته هنا، مثلاً، تتحقق بالجنّ، وليست بحاجة إلى الإنس، لتتجسد واقعاً. علماً أن الجن والإنس يبدوان متماثلَيْن في استجابتيهما للتنزيل، وعلاقتيهما بعبودية الله تعالى. ويكفي خلق أحدهما لذلك، بل تكاد حتى ألفاظ الطرفين أن تكون هي نفسها. راجع - إذا شئت – (سورة الجن).

غير أن النموذج الذي أَوْجَدنا فيه الخالق سبحانه وتعالى يوحي بذلك، ولعل قائلاً يتحجج بأن سائر المخلوقات تحقّق تجلّي صفة المعبود: (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا)، (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)، (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا). فيكون التعقيب: إن الإرادة الحرة، التي تتحرّى صفة المعبود، وتجسّد الاستحقاق الذاتي، هي المطلوبة لهذه المهمة. قوله تعالى: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)، يشير إلى ذلك: ما لكم لا تستشعرون عظمته، وتتطلعون لجبروته، وتدركون سلطانه من أنفسكم، وهو أهل لذلك تماماً. إن الأمر، إذن، من قبل ومن بعد، منه وإليه، ولا لزوم عليه إلا منه سبحانه وتعالى، وقد أفاد في كتابه المجيد أنه كتب على نفسه الرحمة، أي ألزمها بها، فهو يفعل ما يريد، وما يشاء، من ذاته، ولذاته، دون احتياج إلى وليّ أو شريك، ودون سؤال من حسيب أو رقيب: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)، (مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ)، (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

إذا صح منا القول هنا بأن خلق الجن والإنس إنما جاء تجلياً لصفة المعبود، وتحقيقاً لبعدها، وتجسيداً لمعناها، يكون الحصر والاستثناء والتعليل متعلقاً بها، وليس بنا، نحن العابدين من الجن والأنس، وسوف يبدو جليّاً أن الإشكال سيسقط، والمقصود سيحضر فوراً، ولو لم يدخل في العبادة إلا فرد واحد .

وكأن الآية الكريمة تقول: لقد كان خلقكم تماشياً مع صفة المعبود لدى خالقكم ليس إلّا، لا سعيا لرزق، ولا طمعاً في مأكل. من شاء فليعبد، ومن شاء فليحجم، ولو لم تفعلوا على الإطلاق لذهب بكم، وأتى بآخرين يعبدونه.❐

نظرة مختصرة حول بعض معاني سورة الفاتحة

قاسم جميل نوفيسي

✍ نحن المسلمون نكرر قراءة الفاتحة سبعة عشر مرة خلال أربعة وعشرين ساعة، ولكن كم منا من المصلين يفقهون أو يعقلون ويفهمون ما يقرأونه في صلاتهم من الكلمات والعبارات، وما يقومون به من الحركات؟ وما هي علاقة الصلاة بالحياة اليومية؟ وهل هناك علاقة بين العبارات والكلمات التي يقرأها المصلون، والحركات التي يقومون بها في صلاتهم، وبين الحياة اليومية لهم؟ وما هو الهدف من إقامة الصلاة ؟ وهل الصلاة عمل خاص بين الله والعبد، ولا علاقة لها بالحياة اليومية للعباد، أم لها علاقة بالمعاملات اليومية بين العباد؟ هل يحتاج الله تعالى إلى صلاة العبد، أم أن العبد يحتاج ليصلي لله؟.

ما دام لا بد على المصلي أن يبدأ صلاته بعبارة (الله أكبر)، إذاً فلا بد عليه أن يعرف أنه في الحقيقة يعترف، بتلفّظه لهذه العبارة أو الكلمة، أن الله وحده يستحق التمجيد والتعظيم، وأن العظمة تكون لله وحده، وليس لغيره. فما دام أن المصلي اعترف في صلاته أن الله وحده يستحق التعظيم والتمجيد، فلماذا هو يحاول أن يتكبر على الآخرين، ويطلب منهم أن يعظموه ويمجدوه؟ هناك كثير من المصلين لا يكتفون بالتكبر على عباد الله، بل يحقرونهم، إما بسبب تافه، أو بلا سبب.. والآن هذا السؤال يطرح نفسه: بأيّ شيء نستطيع أن نفسر هذا التناقض بين القول والعمل؟ أم أننا لا نفقه ما نقرأ في صلاتنا ؟

ثم يبدأ المصلّي بعبارة: (الحمد لله)، وهو بقرائته لهذه العبارة أيضاً يقرّ ويعترف أن الذي يستحق الحمد هو الله وحده، فما دام أنه اعترف أن الله وحده يستحق الحمد،

فلماذا يطلب من العباد أن يحمدوه؟ وعلى أيّ أساس يريد الإنسان أن يحمده العباد؟ أليس لله ما في السموات والأرض، وأن الله مالك كل شيء، وله ما في السموات والأرض، ولا يملك العبد أي شيء في الأرض، وأن ما يملكه هو في الحقيقة ليس بملك له، بل هو ملك لله، وهو مجرد مستخلف فيه؟! وكأن سائلاً يسأل: لماذا الله تعالى يستحق الحمد؟ فيكون الجواب: لأنه ربّ الخلائق أجمعين، وخالقهم، ومدبر شؤونهم.. ومرة أخرى، وكأن سائلاً يسأل: كيف يربيهم؟ هل يربيهم على الحقد والكراهية، أم كيف؟ فيكون الجواب: إنه الرحمن الرحيم، يعني أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه أرحم الراحمين، فكيف يربّي الخلائق على الكراهية والحقد؟

ويفهم مما سبق وكأن الله تعالى يقول للعباد أجمعين: أنا خالقكم، وأنا خلقت لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً، وسخّرت لكم ما فيهما، وأنا غني عن كل شيء، و أنتم محتاجون إليّ، ولست أنا المحتاج إليكم، وأنا أرحم الراحمين، فكونوا رحماء فيما بينكم، ولا يتكبر بعضكم على بعض، ولا يظلم بعضكم بعضاً، وقد أنزلت لكم كتاباً يهديكم ويرشدكم إلى كيفية التعامل الصحيح فيما بينكم، وقد أمرتكم فيه بإقامة العدل: {إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}﴿النحل: ٩٠﴾ : {إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}﴿النساء: ٥٨﴾ ويقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّـهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّـهَ إِنَّ اللَّـهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}﴿المائدة: ٨﴾، فها أنا قد أمرتكم بالعدل والإحسان، ونهيتكم عن الفحشاء والمنكر والبغي، وأمرتكم أن تحكموا فيما بينكم بالعدل، وأن لا يجرمنّكم عداوة أناس أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى، واعلموا أنني سأحاسبكم بالعدل يوم الدين، يعني {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّـهِ}﴿الإنفطار: ١٩﴾..

والآن هذا السؤال يطرح نفسه: أين نحن المصلّون من هذه المعاني في حياتنا اليومية ؟ فليعلم المصلّون جميعاً أن الصلاة ليست بمجرد حركات وترانيم لا معنى لها، فعندما يقول المصلي (الله أكبر)، فهذه العبارة لها معنى لا بد على المصلّي أن يستوعبه، وهو في الحقيقة يعترف - بتلفّظه لهذه الكلمة - أن الله وحده يستحق التعظيم والتمجيد، فما دام أنه يعترف بهذا، ويعبد الله، فليس له أدنى حق أن يتكبر على عباد الله، ويطلب منهم أن يعظموه ويمجدوه؟ وعندما يركع المصلي فهو في الحقيقة يعترف أن الله وحده يستحق أن يركع له العباد، فلماذا إذاً يطلب من الآخرين أن يخضعوا له؟ وهكذا السجود..

خلاصة الكلام أن الكلمات التي يقرأها المصلي في صلاته، والحركات التي يقوم بها فيها، كلها لها معان متعلقة بالحياة اليومية للعباد، ولا يمكن فصلها عن الحياة اليومية، فلا بد على المصلين أن يطبّقوها في حياتهم اليومية. أما الهدف الأساسي من إقامة الصلاة، فقد بيّنه الله تعالى، حيث أمر خاتم الأنبياء وقال: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}﴿العنكبوت: ٤٥﴾. لقد أمر الله تعالى نبيه بتلاوة ما أوحي إليه، وأمره بإقامة الصلاة، وأكد أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ثم قال: {وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}. هنا يؤكد الله تعالى أن ذكر (الله أكبر)، هذه العبارة تبيّن لنا أن تأثير ذكر الله في التهي عن الفحشاء والمنكر أكبر من تأثير الصلاة. يمكن أن يقال في سبب هذا التأثير إن الصلاة مقيدة بهيئة معينة، ومدة معينة، بينما الذكر ليس بمقيد لا بهيئة معينة، ولا بزمن معين، وكذلك إن الصلاة جزء من الذكر، لأن الذكر يشمل الصلاة أيضاً.

العبادة (الطاعة الملطقة مع الخضوع والذل) وطلب العون:

حسب النظام الإلهي لا يوجد أحد يستحق العبادة - يعني الطاعة المطلقة مع الخضوع والذل- غير الله تعالى رب العالمين، وحتى الأنبياء والرسل لا يستحقون الطاعة المطلقة مع الخضوع والذل، مع أن المؤمنين مأمورون بطاعة الأنبياء والرسل بأمر من الله تعالى.

ولقد بيّن الله تعالى وظيفة الأنبياء والرسل التي أرسلهم لأجلها، ألا وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتبيين أن الطاعة المطلقة مع الخضوع والذل لا تجوز لغير الله تعالى، وأن كل من يدعو الآخرين إلى طاعته طاعة مطلقة فهو يتدخل في أمر الله، ويجعل نفسه إلهاً للآخرين، ولا يجوز لمن يؤمن بالله أن يطيعوه بأي شكل من الأشكال. وأن كل من يطيع غير الله طاعة مطلقة مع الخضوع الذل، فهو يهين كرامته البشرية التي أنعم الله تعالى عليه، وكرّمه بها، ولا يليق لبني آدم أن يذلّ نفسه لغير الله، لأن الله تعالى خلقه مكرّماً، كما قال: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}﴿الإسراء: ٧٠﴾، فلقد خلق الله تعالى بني آدم مكرّمين، فكيف يمكن لشخص يؤمن بالله أن يدعو الآخرين إلى طاعته طاعة مطلقة، أو أن يطيع غير الله طاعة مطلقة.

{إياك نعبد}: لقد ذكر كثير من المفسرين عند تفسيرهم لهذه العبارة، فقالوا: نعبدك وحدك، ولا نعبد غيرك. أرى أن هذا التفسير للآية الكريمة (أيْ: نعبدك ولا نعبد غيرك)،

يشير ضمنياً أن هناك من يستحق العبادة غير الله سبحانه، مع أنه لا يوجد أحد يستحق العبادة غير الله تعالى. ولأجل هذا لا بد علينا أن نفكر جيداً حين نريد أن نستعمل العبارات والألفاظ عندما يتعلق الأمر بالله تعالى، فالأولى والأفضل أن لا نستعمل عبارة مثل: (نعبدك وحدك، ولا نعبد غيرك)، بل لا بد علينا أن نستعمل عبارة: (نعبدك، ولا نشرك بك). أرجو من الله تعالى أن لا يتصور أحد أنني أطعن في أحد، أو أهين أحداً، بتوضيحي لهذه الآية بهذا التفسير. اللهم إني أبرأ إليك ممن يطعن في عباد الله، أو يهينهم، أو يسبّهم، وخاصة الأموات منهم، فإنهم لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وليعلم المؤمن أن المؤمن ليس بطعان، ولا سبّاب، ولا فاحش.

{إياك نعبد وإياك نستعين}: عندما يقرأ المصلون هذه العبارة فكأنهم يقرّون ويقولون إن هذا من حسنك ومن فضلك علينا أننا نعبدك، يعني نطيعك طاعة مطلقة، وننفّذ أوامرك، ولا نتدخل في أمرك. وكذلك من حسنك ومن فضلك أننا نطلب العون منك، ولا نتدخل في أمرك. وللعلم إن معنى (إيا الشمس) يعني حسنها وضوؤها. ولا أتصور أني سأخرج من الموضوع بذكر شيء من عبادة الشعوب القديمة للشمس، وتقديسها، فمن خلال قرائتنا للتاريخ البشري يتبيّن لنا أن أغلب الشعوب القديمة في العالم قد عبدوا الشمس في فترة من الفترات، وكانت الشمس رمزاً للإله الكبير عند أكثر شعوب العالم، وقد عرفت تلك الشعوب منذ بداية التاريخ أن الشمس منبع من منابع الحياة، وأن الحياة بدون الشمس صعبة، إن لم تكن مستحيلة، فكيف يمكن للناس أن يزرعوا ويحصدوا بدون أن تطلع الشمس وتنشر ضوئها على أنحاء الأرض، وكذلك بقية الأعمال من تربية المواشي والأعمال التي لا يمكن إنجازها بدون وجود الشمس. وهذه الأسباب هي التي دفعت أكثر الشعوب القديمة أن يعظموا الشمس، ويقدسوها، ويتخذوها إلهاً، لأنها تحسن إليهم. ولأجل هذا قد بيّن الله تعالى لعباده أنه هو الذي خلق الشمس وسخرها للعباد، حيث قال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}﴿النحل: ١٢﴾ وقال: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}﴿الجاثية: ١٣﴾، فلقد سخّر الله تعالى هذه الأشياء كلها لخدمة العباد؛ فهي تقدم الخدمات للعباد مجاناً بدون أي مقابل.. تصوروا لو كانت الشمس ملكاً لدولة ما، وفرضت تلك الدولة المالكة للشمس الضرائب على بقية الدول، مقابل الاستفادة من ضوئها، كم كانت تستفيد تلك الدولة المالكة؟ وكم كان لا بد أن تدفع كل دولة، مقابل الاستفادة من ضوئها؟ وكم كانت حصة كل فرد أن يدفع، مقابل الاستفادة من ضوء الشمس؟ ولكن الله تعالى سخرها، وغيرها، لتقدّم الخدمات للعباد

مجاناً، وبدون أيّ مقابل، وكأن الله تعالى يخاطب العباد ويقول لهم: أيها الناس لقد سخرت لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً؛ تقدّم لكم الخدمات مجاناً وبدون أيّ مقابل، فاعدلوا فيما بينكم، ولا تظالموا.

وخلاصة الكلام أن الشيء الذي لا بد على العباد أن يعلموه علم اليقين، أن الله تعالى لم يطلب منهم شيئاً لنفسه، مقابل ما خلق لهم في السموات والأرض، وما سخّر من الشمس والنجوم والأنهار، بل أمرهم أن يقيموا العدل فيما بينهم، ولا يظلم بعضهم بعضاً. وكذلك قد بيّن الله تعالى لعباده أن نفع إقامة العدل أيضاً يعود إلى الإنسان نفسه، كما قال الله تعالى: {من عمل صالحاً فلنفسه) وأن ضرر الظلم أيضا يرجع إلى الإنسان نفسه كما قال الله تعالى {ومن أساء فعليها}، فلا شك أن إقامة العدل في المجتمع تولد الأمن والأمان والسعادة في المجتمع، وأن الظلم يولد البغضاء والعداوة الاضطراب في المجتمع. وقد وعد الله تعالى أنه سيحاسب عباده يوم الدين بأعمالهم، وهو أرحم الراحمين، وسيحكم بين العباد بالعدالة المطلقة، ولن يظلم أحداً، وكل إنسان سيجزى حسب أعماله.

{إياك نعبد}: قلنا إن العبادة هي بمعنى الطاعة المطلقة مع الخضوع والذل.. إذاً، فلا بد أن تكون هناك أوامر ونواه، حتى يكون للطاعة مفهوم، فالطاعة بدون الأوامر أو النواهي لا معنى لها. وقد أنزل الله تعالى للناس كتاباً بيّن فيه أوامره ونواهيه، وهي كلها لمصلحة العباد. ذكر الله تعالى {نعبد} بصيغة الجمع، فلا بد على المصلّي أن يقرأ بصيغة الجمع، سواء كان منفرداً أم مع الجماعة. إن هذه الصيغة تبيّن لنا أن العبادة ليست بمنحصرة بين العبد والربّ، بل هي تنفيذ لأوامر الله فيما بين العباد، ولا يمكن لشخص واحد أن ينفذ أمراً من أوامر الله تعالى، أو نهياً من نواهيه، بدون التعامل فيما بينهم.. لنضرب مثالاً ليتبيّن الأمر لنا أكثر: يقول الله تعالى: {وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}﴿البقرة: ١٩٥﴾، فكيف يمكن أن ينفق المؤمن، ويحسن، بدون التعامل مع الآخرين؟ فلا بد من التعامل لتنفيذ أمر من أوامر الله. وكذلك يقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}﴿النحل: ٩٠﴾، فهل يمكن للعباد أن يقيموا العدل إن لم يتعاملوا فيما بينهم ؟ وهكذا الإحسان، وبقية الأوامر..

وفي الحقيقة نحن لا نحتاج إلى تأمل عميق لكي نعرف أن تنفيذ الأوامر يحتاج إلى تعامل العباد فيما بينهم، فهو أمر بديهي يعرفه الجميع، وأن الناس يحتاج بعضهم لبعضهم للتعامل فيما بينهم.

{وإياك نستعين}، فلا شك أن من فضل الله وحسنه أنه سمح لعباده أن يطلبوا العون منه..

ثم يذكر المصلّي طلبه من الله تعالى فيقول: {اهدنا الصراط المستقيم}، ذكر الله تعالى {اهدنا} بصيغة الجمع، فلا بد على المصلي أن يقرأها بصيغة الجمع، سواء كان منفرداً في صلاته أم مع الجماعة، فهذه الصيغة تبيّن لنا أن المصلي يطلب الهداية لطرفي المعاملة، لتأثيرهما في المعاملة، وصحتها، فمن الصعب أن تكون المعاملة عادلة وصحيحة بدون تعاون طرفي المعاملة. ولأجل هذا يطلب المصلي، أو المصلون، الهداية بصيغة الجمع. وكذلك يمكن أن يقال إن هذا اعتراف صريح للمصلين بعجزهم، وأنه ليس باستطاعتهم أن يتعاملوا فيما بينهم معاملة عادلة وصحيحة إذا ترك الأمر لهم، فالمصلي يطلب من الله تعالى في صلاته أن يهديهم – وإن كان منفرداً في صلاته- إلى الصراط المستقيم، للتعامل فيما بينهم. ثم يذكر المصلي، أو المصلون، إنعام الله تعالى على العباد، حيث يقولون: {صراط الذين أنعمت عليهم}، فهذا أيضاً اعتراف صريح من المصلين أنهم ليسوا أول الطالبين لهذا الطريق المستقيم، فهناك من أنعم الله عليهم قبلهم. ثم يقرأ المصلي، أو المصلون: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين}، هذه العبارة تدل على أن هناك من وقع عليهم الغضب، وهم ليسوا على الطريق المستقيم، بل ضلوا الطريق المستقيم، ويتعاملون فيما بينهم حسب أهوائهم، فيحلّون لأنفسهم ما يحرّمون للآخرين، ويفضّلون أنفسهم على الآخرين، ولا يراعون حقوق الآخرين.

ولقد سبق أن ذكرنا أن المصلين طلبوا من الله تعالى الهداية في صلاتهم، فهل هناك جواب لطلبهم؟ إذا أردنا أن نعرف جواب طلبهم، فلا بد أن نقرأ بداية (سورة البقرة) بتأمل، وهي تأتي بعد (سورة الفاتحة)، حسب تسلسل السور في القرآن الكريم. يقول الله تعالى في بداية (سورة البقرة): {الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ(٢)}، نقرأ في هذه الآية أن الله تعالى بعدما يصف الكتاب بأنه {لا ريب فيه}، يقول: {هدى للمتقين}، أيْ إنه يرشد المتقين، يعني المتجنبين لحدود الله ونواهيه، إلى كيفية التعامل الصحيح فيما بينهم.

ثم يذكر بعض صفات المتقين، فأول صفة يذكرها الله تعالى هي الإيمان بالغيب، يعني الإيمان بمصدر الوحي، وهو الدستور والمنهج الذي اختاره الله تعالى لعباده، ليتعاملوا فيما بينهم على أساسه. والصفة الثانية هي إقامة الصلاة. والصفة الثالثة هي الإنفاق مما رزقهم الله تعالى، وهو نظام التكافل الاجتماعي..

ولقد بيّن الله تعالى في هذا الكتاب الذي وصفه بأنه {لا ريب فيه هدى للمتقين}، أسس التعامل فيما بينهم. ولا شك أن من يتبع هذا الكتاب، ويعمل بما جاء فيه، لا يمكن أن يتخلف. ولو عمل المسلمون بهدايات وإرشادات هذا الكتاب لما تخلفوا، ولكن - مع الأسف الشديد - افترق المسلمون إلى فرق؛ كل فرقة تأخذ بآراء علمائها ومشايخها، وكأنها وحي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ومع الأسف الشديد - مرة أخرى- أن أكثر علماء هذه الفرق يدافعون عن المستبدين والديكتاتوريين، وكأن الله تعالى أمرهم أن يقوموا بهذه الوظيفة، غافلين أو متغافلين عن أوامر الله، وكأنهم لم يقرأوا هذه الآية الكريمة، التي ذكر الله تعالى فيها الهدف الأساسي من إرسال الرسل وإنزال الكتب، حيث يقول الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}﴿الحديد: ٢٥﴾ وقول الله تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}﴿هود: ١١٣﴾. لا أدعو العلماء أن يحملوا السلاح ويقاتلوا الحكام الظالمين، بل يكفيهم أن لا يدافعوا عن المستبدين والظالمين، ولا يبرروا أعمالهم الإجرامية، وكذلك أن لا يطلبوا من الناس أن يطيعوهم، ويدافعوا عنهم، ولا يخالفوهم.. لقد قال كثير من العلماء للناس إن الخلفاء والسلاطين والملوك هم ظل الله في الأرض، لا تجوز مخالفتهم بأيّ شكل من الأشكال، وكأنهم لم يقرأوا هذه الآية الكريمة، حيث يقول الله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}﴿النساء: ١٠٥﴾، هكذا خاطب الله تعالى خاتم الأنبياء والرسل. فماذا يقول العلماء للسلاطين والخلفاء والملوك، وهم يرون بأعينهم أنهم لا يقيمون العدل، ويمنعون الناس عن إقامته في المجتمع؟!

ذكر الله:

ما دام أن هناك علاقة بين ذكر الله والصلاة، فلا بأس أن نذكر مختصراً من معنى ذكر الله أيضاً. وقبل كل شيء لا بد من تبيين معنى (الذكر) في اللغة العربية، حتى يكون بإمكاننا أن نبني عليه الهدف الأساسي من ذكر الله. فقد ورد في معجم (الصحاح في اللغة): "الذِكْرُ والذِكْرى، بالكسر: خلاف النِسْيانِ. وذَكَرْتُ الشيءَ بعد النِسْيانِ، وذَكَرْتُهُ بلساني وبقلبي، وتذكَّرْتُهُ". ورد في معجم مقاييس اللغة: ذَكَرْتُ الشيء، خلافُ نسِيتُه. ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان. ويقولون: اجعلْه منك على ذُكْرٍ، بضم الذال، أي لا تَنْسَه. خلاصة الكلام أن الذكر هو بمعنى عدم النسيان. وفي حياتنا اليومية عندما يقول شخص لصديقه،

أو لأيّ إنسان آخر: لا تنسنا، فإنه في الحقيقة يطلب منه أن يقضي حاجتهم، ويقوم لهم بأمر ما. وعندما يقال للجندي لا تنس أوامر القيادة، يعني التزم بها، ونفذها. وعندما يطلب من العبد أن يذكر الله، وكأنه يطلب منه أن لا ينسى تنفيذ أوامره، لأنه بمجرد أن ينسى العبد ذكر الله، فإنه يترك تنفيذ أوامره أيضاً، وقد لا يكتفي بعدم تنفيذ أوامره، بل يعصيه أيضاً. فالمطلوب من العبد أن يذكر الله كثيراً، لينفذ أوامره كثيراً ولا يعصه.

ورد في القرآن الكريم أهمية كبيرة لذكر الله، ولكن القرآن لم يحدد مكاناً لذكر الله، وكذلك لم يذكر كيفية محددة وهيئة معينة له، و لم يرد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أيضاً شيء يحدد الهيئة التي لا بد أن يكون عليها الذاكرون، أو المكان الذي لا بد أن يكونوا فيه أثناء الذكر. ويمكن أن يقال إن تحديد المكان، وتعيين الكيفية أو الهيئة، مخالف للهدف الأساسي لذكر الله، لأن المطلوب من المؤمنين أن يذكروا الله في جميع الأحوال، والأماكن، ليصححوا معاملتهم وتصرفاتهم فيما بينهم، ومع الآخرين، ولا يقوموا بما يخالف أوامر الله ونواهيه. وهذه هي بعض الآيات التي تتحدث عن ذكر الله: قال الله تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}﴿الأنفال: ٢﴾. يؤكد الله تعالى في هذه الآية أن المؤمنين، يعني الذين اطمأنت قلوبهم بما أنزله الله على رسله وأنبيائه، وهم مصدقون لما أنزله الله من الوحي بأعمالهم، هؤلاء هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وفزعت، وهم الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، يعني: إطمئناناً وتصديقاً، وهم على ربهم يتوكلون.

وقال الله تعالى:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّـهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}﴿الرعد: ٢٨﴾.. المصدقون لأوامر الله تعالى بأعمالهم، تطمئن قلوبهم بذكر الله، فالمؤمن يطمئن قلبه إذا شعر أنه قد نفذ أوامر الله تعالى. وإذا شعر أنه لم يقم بأوامر الله تعالى وجل قلبه وفزع . نقرأ في الآية الثانية من (سورة الأنفال): {إِذَا ذُكِرَ اللَّـهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، هذه العبارة تبيّن أن الوجل يحدث في القلوب حين يذكر الله، فهذا يدلّ أن قلوب المؤمنين تخاف وتفزع من أنهم لم ينفذوا أوامر الله حق تنفيذه. ثم يقول الله تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}، هذه العبارة تبيّن أن تلك القلوب التي تخاف وتفزع حين يذكر الله، هي التي تزداد إيماناً وتصديقاً حين تتلى عليها آيات الله.

ويقول الله تعالى في الآية الثامنة والعشرين من (سورة الرعد):

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّـهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّـهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.. هذه الآية تبيّن لنا حالة الطمأنينة بسبب ذكر الله، يعني أن المؤمنين تطمئن قلوبهم بذكر الله، لثقتهم بعدالته ورحمته.

فخلاصة الكلام، أن المؤمنين تخاف قلوبهم وتفزع حين يذكر الله، إذا شعروا أنهم لم ينفذوا أوامر الله حق تنفيذه، فهم يخافون ويفزعون من أن يعاقبهم الله بسبب إهمالهم لتنفيذ أوامره، وهؤلاء هم الذين يزداد إيمانهم بتلاوة آيات الله. ومن ناحية أخرى، تطمئن قلوب المؤمنين بذكر الله، إذا شعروا أنهم قد نفذوا أوامر الله حق تنفيذه، وهم يطمعون في رحمته ونعمه.

قال الله تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّـهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}﴿طه: ١٤﴾، هذه الآية تبيّن لنا بوضوح العلاقة بين العبادة وإقامة الصلاة وذكر الله، وكأنهما وحدة واحدة، ولا يمكن الفصل بينهما. وقال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّـهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّـهِ وَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}﴿الجمعة: ١٠﴾، قد يتصور القارئ عندما يقرأ الآية التاسعة من (سورة الجمعة) أن الذكر شيء منفصل عن المعاملات، لأن الله تعالى يقول: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّـهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، فظاهر العبارة يدل على أن هناك فصلاً بين الدعوة إلى ذكر الله، وبين ترك البيع، فلو لم يكن هناك فرق بينهما لما أمر الله بالدعوة إلى ذكر الله وترك البيع. لكن عندما يقرأ القارئ الآية العاشرة بعدها، يتضح له أن الأمر ليس كما تصور، بل لا بد من ذكر الله في جميع الأحوال والأعمال. ولأن الآية العاشرة تبيّن لنا كيفية الدعوة إلى الصلاة يوم الجمعة، وأن الذكر يشمل الصلاة، وأن لها هيئة محددة، فلا بد على المصلي أن يترك كل شيء ما سواها أثناء إقامتها. وفي الحقيقة بمجرد تأمل بسيط يتضح لنا أن الصلاة نفسها ترشد المؤمنين إلى كيفية التعامل فيما بينهم.

وقال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّـهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}﴿الأحزاب: ٤١﴾. هذه الآية تنبّه المؤمنين أن يذكروا الله ذكراً كثيراً. ويقول الله تعالى في آية أخرى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّـهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}﴿الحديد: ١٦﴾. هذه الآية توبّخ المؤمنين من أن يكونوا مثل الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وما آل إليه وضعهم من قسوة القلب والخروج عن أمر الله تعالى. ويصف الله تعالى الذين استولى عليهم الشيطان، فيقول:

{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّـهِ أُولَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّـيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}﴿المجادلة: ١٩﴾. وفي الآية التاسعة من (سورة المنافقين) يخاطب الله تعالى المؤمنين قائلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّـهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}﴿المنافقون: ٩﴾. هذه الآية تبيّن للمؤمنين الأسباب الأساسية التي تلهي المؤمنين عن ذكر الله، وتجعلهم يخوضون مع الخائضين في المظالم والجرائم، فليس بمخفي على أحد أن أهم الدوافع التي تدفع الناس إلى الظلم والتعدي على حقوق الآخرين هو حب الأموال والأولاد، فإن حبّ الأموال والأولاد يدفع الناس ليظلم بعضهم بعضاً، ويغش بعضهم بعضاً، وأن حب الأولاد والأموال يعمي أكثر الناس عن الحقيقة، فلا يفكرون في شيء مثلما يفكرون في مصير أولادهم وجمع الأموال لهم، ولا يهمهم كيفية جمع الأموال ومصدره، فالمهم عندهم أن يجمعوها ويكنزوها لأولادهم، وإن كان على حساب تعاسة الآخرين من أبناء أخوتهم في الإنسانية. وقد ورد في القرآن الكريم في ذم أكل أموال الناس بالباطل، وجمعها، وعدم إنفاقها في سبيل الله، حيث قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}﴿التوبة: ٣٤﴾. هذه الآية تخاطب المؤمنين مؤكدة لهم أن كثيراً من الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل، لم يقل الله تعالى: جميع الأحبار والرهبان، لأن منهم من يتجنب أكل أموال الناس بالباطل، وكان المعروف والمشهور بين الناس أن وظيفة هؤلاء الأحبار والرهبان هي تبيين الحلال والحرام للناس، ودعوتهم إلى سبيل الله، ولم يكن الناس ينظرون إليهم بعين الريبة، بل كانوا ينظرون إليهم على أساس أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولكن القرآن وصفهم بغير ما كانوا يتظاهرون به للناس، فوصفهم بوصف لم يكن معروفاً بين الناس. فكيف يتوقع ممن تكون وظيفته تبيين الحلال والحرام للعباد، أن يأكل أموال الناس بالباطل؟ ولكن - مع الأسف الشديد- إنهم فعلوا ويفعلون!

ومن خلال قرائتنا للتاريخ نرى أن التاريخ أيضاً يثبت ما بيّنه الله تعالى من وصفهم في كتابه، خلافاً لما روّجه رجال الدين عن أنفسهم للناس. فالتاريخ يثبت أن أكثرهم لم يقوموا بأي عمل من الأعمال المفيدة للمجتمع البشري، بل عاشوا على أموال الناس على أساس أنهم يبلغون الدين، ويبينون أحكامه للعباد. ولكن - مع الأسف الشديد- أن أكثرهم لم يقوموا بوظيفتهم، ولم يبينوا الدين حق التبيين، بل وقفوا مع السلاطين والحكام، وبرروا أعمالهم الإجرامية، وبيّنوا للناس أن السلاطين والحكام والخلافاء هم وكلاء الله في الأرض، وأن طاعتهم مفروضة على الناس، ولا يجوز مخالفتهم والاعتراض عليهم، وإن ضربوهم

وأخذوا أموالهم. وخلاصة الكلام إنهم بيّنوا للناس خلاف ما أمر الله بـه مـن إقامـة العـدل، والتضحية في سبيل الله بالمال والنفس، للدفاع عن إقامة العـدل، وضربـوا الهـدف الأسـاسي من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، عرض الحائط، وقلّما ذكروا شيئا من هذا الهدف الأسـاسي الذي بيّنه الله تعالى في القرآن الكريم.

يقول الله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّـاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّـاسِ وَلِـيَعْلَمَ اللَّـهُ مَـن يَنصُـرُهُ وَرُسُـلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّـهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}﴿الحديد: ٢٥﴾. لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أن الهدف من إرسال وإنزال الكتب، هو أن يقوم الناس بالقسط. وكذلك الآيـة تشـير إلى جـواز اسـتعمال القوة ضد الذين يمنعون إقامة العدل، لصدّهم عـن عملهـم الشـنيع. ولكـن - مـع الاسـف الشديد- إن المؤسسة الدينية، المتمثلة في الأحبار والرهبان، وأمثالهم من رجال الـدين، قـد وقفت مع الحكام والسلاطين والخلافاء المستبدين، ومنعت الناس مـن المطالبـة بحقـوقهم المشـروعة، بحجة أن الحكام والسلاطين والخلفاء هم وكلاء الله في الأرض، فـلا يجـوز لأحـد مخالفتهم! هذه المؤسسة التي كانت وظيفتها أن تبيّن الحقيقة للناس، وتـدافع عـن إقامـة العدل، جعلت وظيفتها الأساسية التدخل في أمر الله، أعني الأمور الغيبية التي لا تسمن ولا تغني من جوع، وهي أمور تخصّ الله ولا دخل للبشـر فيها، ولا فائـدة للبشـرية مـن وراء البحث فيها. هذه المؤسسة هي التي حرمت الناس من مطالبتهم لحقوقهم المشروعة منـذ آلاف السنين، وهي التي أضفت على السلاطين والخلفاء والملوك القدسـية، ومنحـتهم حـق الحاكمية، وهي التي حرّفت معنـى الشـورى عـن موضـعه، ومنعـت النـاس مـن المطالبـة بالشورى فيما بينهم، بحجة أن الحكام والسلاطين والخلفاء لا يخطأون، وإذا أخطأوا - عـلى سبيل المحال- فلهـم أجـر مقابـل خطـأهم، كـما لهـم أجـران مقابـل صـوابهم، فـلا داعـي للشورى. فالمؤسسة الدينية لم تبيّن للنـاس شـيئاً غـير مـا يوافـق هـوى السـلاطين والحكـام وأعمالهم الشنيعة. فالمؤسسة الدينية هي التي ادعت أن السـلطان ظـل الله في الأرض، فـلا يحق لأحد أن يهينه، فمن أهانه فقد أهان الله، مع أن الله يخاطب خـاتم الأنبيـاء، ويقـول: {إِنَّـا أَنزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ لِـتَحْكُمَ بَـيْنَ النَّـاسِ بِمَـا أَرَاكَ اللَّـهُ وَلَا تَكُـن لِّلْخَـائِنِينَ خَصِيمًا}﴿النساء: ١٠٥﴾، هذه الآية تنصّ، بشكل واضح لا غبار عليـه، أن النبـي مـأمور أن يحكم بما أراه الله، لا بما يرى هو بنفسه، يعني لا بد عليه أن يتبع الكتـاب الـذي أنزلـه الله تعالى للناس. ومن قبله قد خاطب الله خليله أبا الأنبياء إبراهيم عليه السـلام، حيـث قـال: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}﴿البقرة: ١٢٤﴾، فبعـدما أبلـغ الله تعـالى إبـراهيم عليـه السـلام أنـه

جعله إماماً للناس، طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى أن يجعل من ذريته أيضاً أئمة، فهذا الطلب دليل على أن كون (إبراهيم) إماماً للناس، لم يخرجه من الإنسانية، وهو مثل إي إنسان يريد لأولاده من بعده، ولأجل هذا طلب إبراهيم من الله تعالى أن تكون الإمامة في أولاده من بعده، فقال: {ومن ذريتي}، فكان ردّ الله عليه واضحاً وبيّناً ولا يمكن تأويله، وهو: {لا ينال عهدي الظالمين}. فالميزان في النظام الإلهي هو العدل، وليس النسب، أو أي شيء آخر. الإنسان في النظام الإلهي يقاس بعمله، فإن كان عمله جيداً ومفيداً للمجتمع البشري، فهو جيد، وإن كان عمله سيئاً، فهو مثل عمله سيء.

الفئة الثانية التي بشرها الله تعالى بعذاب أليم في هذه الآية، من بعد الأحبار والرهبان، هم أولئك الذين يجمعون الأموال من الذهب والفضة، ولا ينفقونها في سبيل الله. يمكن القول إن أبرز الذين يمثلون هؤلاء في زمننا هذا، هم ملاك صندوق النقد الدولي، والشركات العالمية الكبيرة العابرة للقارات، بالإضافة إلى جميع الذين يكنزون الأموال، ولا ينفقونها في سبيل الله على الفقراء والمساكين. وليس بمخفي على باحث يبحث عن الحقيقة، أن هؤلاء يمنعون الدواء عن المرضى، الذين يبحثون عن الدواء وهم يصارعون الموت ليبقوا على قيد الحياة، فيجدون الدواء ولكنهم لا يملكون ثمن الدواء.. أليس دواء الجوع الطعام؟ وفقاً لمنظمة الصحة العالمية، فإن الجوع هو أكبر خطر يهدد صحة الإنسان في العالم، و يتجاوز عدد ضحايا الجوع كل عام عدد ضحايا الأمراض الثلاثة مجتمعة، يعني: مرض الآيدز، والملاريا، والسل. و كذلك وفقاً لمنظمة الصحة العالمية، فإن سوء التغذية هو المساهم الأكبر لزيادة معدل وفيات الأطفال في العالم❐

لمحة عن حياة الأستاذ
(صلاح الدين محمد بهاء الدين)
ونتاجاته الفكرية والأدبية والسياسية

د.عبداللطيف ياسين

✍بعد الانتفاضة الكوردية في بداية التسعينيات من القرن المنصرم، وتغير هيكلة السياسة في العراق، وبروز وجوه جديدة على الساحة، لم تكن كوردستان بمعزل عن هذه التغيرات والتحولات، إن لم أقل إنها كانت منبع وبداية التحولات والتغيرات.. كانت التحولات السياسية والضغوطات جميعها تمارس على أرض كوردستان، فأول انتخابات - بعيداً عن متناول الحزب الحاكم في بغداد - جرت في كوردستان، في ١٩٩٢/٥/١٩، وتشكيل أول كابينة وزارية أيضاً كان في كوردستان، وإطلاق اسم أول كيان سياسي، وبنائه، كان أيضاً في كوردستان، إذ أصبحت كوردستان إقليماً شبه مستقل، وتحت رعاية دولية، وبمباركة عالمية..

والحديث هنا عن الوجوه السياسية المؤثرة على الساحة.. فهناك الكثيرون مِمّن كان لهم دور وحضور سياسي، قبل وبعد الانتفاضة عام ١٩٩١، وكانوا معروفين على الصعيدين الداخلي والخارجي، وأصبحوا – بعد الانتفاضة - ذا أثر فعّال وحضور مهيب.. ومن بين هذه التحوّلات السريعة، والكبيرة، والكثيرة، تمّ إعلان حزب جديد باسم (الاتحاد الإسلامي الكوردستاني) في ١٩٩٤/٢/٦.. جديد في كل شيء؛ في اتجاهه، وتصوراته، وشخصياته، وتاريخه، وأسلوب تعامله مع الواقع السياسي.. هو جديد بكلّ ما تحمله الكلمة.. ومن أكثر الشخصيات التي كان لها دور فاعِل ومؤثر في بناء هذا الحزب، وقاد مسيرته لأكثر من عشرين عاماً، الأستاذ (صلاح الدين محمد بهاءالدين)..

وبعد سقوط النظام العراقي (عام ٢٠٠٣) اتسعت دائرة العمل السياسي، وذهب الأستاذ صلاح الدين إلى (بغداد)، وأصبح أحد أعضاء (مجلس الحكم) في عهد (بول بريمر).. وقد ذكره (بريمر) في كتابه، - وقد تناولت هذا الموضوع في مقال مستقل – وقد كتب الأستاذ صلاح الدين بعد ذلك كتاباً بعنوان (محطات سياسية)، وهو الكتاب الذي يُلخّص حياته في تلك المرحلة، وما بعدها.. وبعد هذا أصبح نجم الأستاذ صلاح الدين يلوح في الأفق، بسبب معرفته من قبل الأمريكيين، والتحالف الدولي، والدول الأجنبية الأخرى، ناهيك عن دول الإقليم، حيث العلاقة كانت أكثر نصوعاً، لأسباب نوردها في مكانها.

في المؤتمر السادس (مارس ٢٠١٦) لم يرشح نفسه لقيادة الحزب، واختار المكوث والاعتكاف على التأليف والكتابة. ومضت الأعوام الأربعة، وحان موعد المؤتمر السابع، ورشّح نفسه، وعاد أميناً عاماً.. هذا، بعد أن جلس على كرسيه ثمانية عشر عاماً، واستأنف العمل السياسي، وقاد الحزب تحت شعار جديد في ٢٠١٦/٦/١م، وكانت الأهداف والجهود تسير نحو أهداف ثلاثة :

الأول: الحفاظ على وحدة الحزب، بعد أن تعرّض لهزّات عنيفة، واهتزازات مُربكة، في مسار الحزب، على الصعيد الحركي.

ثانياً: ضم الإسلاميين وجمعهم تحت قبّة واحدة، وعنوان واحِد، بعيداً عن الانحراف والانزلاقات الفكرية، وتجنيب الحركة الإسلامية من الاستدراج إلى دائرة التطرّف والغلوّ والعنف.

ثالثاً: المصالحة الوطنية، ولمّ شمل البيت الكوردي، وتوحيد الصفوف أمام الآخر.

هذه النقاط الثلاثة لا تقل حملاً ووزناً من جبال راسيات، لأنها تتعامل مع سايكولوجية الفرد الكوردي، التي أصبحت عرضة لآلاف الصدمات والاهتزازات والتعرية والمدّ والجزر، حيث اختلطت مع فهم الكوردي للحياة والحرية. ففي جميع النقاط يتعامل الأستاذ مع نفسيّة الفرد الكوردي، بكلّ ما تحمله من الترسّبات الزمنية التي أثقلت كاهله.

أصبح الأستاذ يتعامل مع تاريخ شعبٍ هزّه غدرُ الصديق، وخيانة الأخ، وصدمه الجوعُ على أرضهِ الغنيّة بالثروات، وعبوديته على أهازيج الحريّة المسلوبة، والتبعية على صفيح الاستقلال المزعوم. فالمواطِن الكوردي وجد نفسه - في هذهِ الأجواء المشحونة - مكسور الجناح، مهضوم الحقوق، فاقد الثقة، وقد تلطّخت صورته بألوان غامقة، حتى أنّك لا تجد فرداً كوردياً قد تربّى بمعزل عن هذه الالآم .

ونحنُ إذا بدأنا بدراسة شخصية الأستاذ صلاح الدين، نرى أننا أمام شخصٍ هادئ الطبع، قليل الكلام، والطعام، يزن كلامه، ويقيس خطواتِه، ويبيّن اتجاهه في الجلسات والمجالس والاجتماعات. وكثيراً ما أصف كلماته بأنها لبنات توضع بعضها إلى بعض، ولا تستدرك الصورة إلا في حال إتمام الموضوع. وفي سياقات الحديث، قد يحب أحد جلسائه أن يضيف تعقيباً أو توضيحاً لأمر ما، ولكن يتفاجأ عندما يسمع الأستاذ يضيف أو يبيّن ما دار يخلده.

ودراسة شخصيةٍ كشخصية الأستاذ تفرض علينا، من الناحية العلمية والأكاديمية والتوثيقية، أن نلمّ بجميع الجوانب، بدءاً من النشأة، والدراسة، والبيئة الاجتماعية والفكرية والعلمية والسياسية. ودراسة المحطات التي نزل بمنزلها، كتكملة الدراسة، والهجرة إلى إيران، ولقاءاته مع شخصياتٍ بارزة، ودوره في تربية الإنسان، وبعد ذلك الانتفاضة الكوردية، وإعلان الاتحاد الإسلامي، وإنجازات هذا الحزب في العملية السياسية والاجتماعية والفكرية، وأثر الأستاذ على هذا الحزب.

ولكننا لن نستطيع أن نوفي هذه الجوانب جميعاً حقها، ولذلك سأسعى في هذا المقال إلى التعريف بجانب من جوانب شخصيته، هو الجانب الأدبي. فهو يتميّز بكونه كاتباً مُتمرساً، وله مشوار أدبي، وإنتاجات ثرية، ومؤلفات معمّقة، وفي مجالات واسعة. وفي هذا المقال أستعرض الكتب التي ألفها الأستاذ، وتم طبعها، أو الجاهزة للطبع.

١- مولانا الرومي[i]: لا أعتقد أن هناك - من بين النخبة المثقفة على صعيد العالم - أحداً لا يعلم من هو مولانا الرومي.. وعندما نرى أحد القادة السياسيين للعمل الإسلامي يُؤلّف كتاباً عن حياة شخصية عالميّة كمولانا الرومي، والاتجاه الفكري له، فهذا يدلّ على سعة الثقافة، وعُمق الرؤية، ورقاقة القلب.. فمحور أفكار الرومي تعبير عن إنسانية الإنسان، والغور في أعماقه، والانسياق مع تطلعاته.. فهو الصوفي الإنساني. ولا نستغرب عندما نرى الأستاذ يمضي بعيداً مع آفاق أشعار الرومي - رحمه الله-، حتى أنني كثيراً ما أحس بأني أتعامل مع صوفي، أثناء تعاملي اليومي مع الأستاذ صلاح الدين.

٢- كشكول[ii]: وهو عبارة عن ملاحظات وانطباعات ذاتية فكرية ودعوية وسياسية واجتماعية. وقد كتبه في الفترة التي تلت امتناعه عن ترشيح نفسه في الدورة السادسة للمؤتمر العام للحزب، واعتكف على القراءة والكتابة والتأمّل لمدة أربع سنوات .. وهو - كما جاء في ديباجة الكتاب- يتضمّن الانطباعات الذاتية لمواضيع متفرقة سياسية واجتماعية وفكرية.. وهو يؤكد أن كل ما جاء في الكتاب هو تعبير عن الآراء الذاتية، وأنه يعبّر عن رؤيته، وهو يتوقع وجود مخالفين لما ذكره في هذا الكتاب.

٣- ملا محمدي خورمال: وهو سيرة والد الأستاذ، وهو رجل تمتع بنفوذ اجتماعي، ومكانة علمية، في منطقة حلبجة، وبعض مناطق كوردستان إيران.. ومَنْ لديه أي سؤال أو إشكال في معرفة شخصية الأستاذ، فإنه عند قراءة هذا الكتاب يتوضّح الغبش، ويزول الاستفهام، بالرغم من أنّ الأستاذ قد عاش بعيداً عن أبيه، لأسباب دراسية وسياسية، إلا أنه تأثر به تأثراً بالغاً، ولا يزال الأثر جلياً وواضحاً.

٤- بي زمانان دينه زمان (ونطقت المخلوقات): تاريخ تأليف هذا الكتاب يعود إلى أوائل السبعينيات، إن لم أقل نهاية الستينيات.. يحتوي على عرض سيرة النبي - عليه الصلاة والسلام - على لسان ٣٠ من المخلوقات، ومن زوايا متعدّدة، بعدد الحيوانات المشاركة، والكل يدلو بدلوه في وصف النبي - عليه الصلاة والسلام -، وشمائله.

٥- لةسةر زمانى كياندارن (على ألسنة المخلوقات): في هذا الكتاب الصغير، نوع من الدراسة السيكولوجية والسيوسولوجية، فهو يقوم باستنطاق الحيوانات، معبرين عن الإنسان بكل ما يحمله من النوازع والدوافع والآلام واللذة وتمجيد الذات وطغيان الأنا

على الآخرين وغمطهم. وهذا الكتاب فيه نوع من المحاكمات، والتوثيق، والبرهان التطبيقي، على الذي ذكرناه من نوازع ودوافع.. وهذا ما يجعلنا بدورنا نتلمّس جمال التعبير والدقّة في هذا الكتاب، وتعريف الأستاذ كاتباً وأديباً.. ولو لم تسبق السياسة إلى هذه الشخصية، لعرف أديباً بارِعاً، ولدخل اسمه في سجل الأدباء الكورد، ولكن شغلته السياسة، وأبعدته عن الأدب والإبداع في فنون الكتابة.

٦- سعيد النورسي([iii]): وهذا الكتاب دراسة لجانب مهم من حياة الإمام النورسي، ألا وهو المحاكمات والمرافعات والمطابقات المتنوعة في حياته - رحمه الله -.. وهو مؤشّر آخر على الآفاق الفكرية والدعوية والعلمية والتربوية للأستاذ صلاح الدين.

٧- بةيامةكان، أي: الرسائل([iv]): عبارة عن ١٠٠ رسالة من الرسائل التوجيهية، كإرشاداتٍ عامّة، وتذكرة، وتوجيه، وتعبئة لمسيرة الاتحاد الإسلامي الفكرية والحركية والسياسية وترشيدها.. فالأستاذ صلاح الدين ينظرُ إلى الاتحاد الإسلامي بوصفه منطلقاً فكريّاً وانطلاقة حركية فاعِلة.

٨- أحمد مفتي زاده([v]): الحديث عن هذا العالم والسياسي والفقيه والمفكّر، يعني الحديث عن مرحلتين زمنيتين تحمل في طياتها زمن الشاه وزمن الثورة الإسلامية في إيران. في كلتا المرحلتين كان مطارداً، ومسجوناً فيما بعد.. فأحمد مفتي زاده كان قائدا معروفاً، ورمزاً إسلاميّاً وقوميّاً، برز في إيران أثناء حكم الشاه قبيل الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩. وكان أكثر السنة تأثيراً في إيران، ويعد الزعيم الروحي لأهل السنة.. واشتهر بين الكورد بعد أن أصبح مطارداً من نظام الشاه، لمطالبته بحكم ذاتي للكورد في إيران. وكان للأستاذ صلاح الدين علاقة وطيدة مع هذا الرجل الكبير.. وهنا نستلهم صورة واضحة عن شخصية هذا الرجل، كونه يحتك مع شخصيات عديدة؛ فنرى فيه مولانا الصوفي والأديب، والنورسي المفكّر والرجل القرآني، ومفتي زاده السياسي المناضل والعارف الرباني. ولا عجب عندما نقرأ الكتب التي كتبت عن حياة العلامة مفتي زاده، نرى الجانب الآخر المؤدّي إلى تكامل الصُورة عن شخصية الأستاذ.

٩- محطات سياسية: هذا الكتاب عاش كاتبه في مخاض ولادة عراق جديد. وعاصر فترة حسّاسة من تاريخ العراق، حيث مثلت نهاية حقبة تاريخية، وبداية حقبة أخرى. حقبة بشّرت بمستقبل رُسمت معالمه، واختيرت وجهته. وقد واكب الكاتب هذا التاريخ، كما واكب فترة حكم الحاكم المدني الأوّل للعراق - بعد سقوط النظام العراقي الحاكم - (بول بريمر)، صاحب الكتاب الموسوم (عامٌ قضيتُه في العراق)، وهو كتابٌ جدير بالقراءة

والدراسة، وفَهْمِ ما جاء بين سطوره، وما وراء جمله، فهو المقدمة والخارطة الإيمائية، والإيحائية، لتوجيه العراق في أيامه القادمة..

والكتاب يعبِّرُ عن رؤية الاتحاد الإسلامي الكوردستاني، متمثلاً في شخصية السيد الأمين العام للاتحاد الإسلامي الكوردستاني، وهو - كما واضح من مضمون الكتاب - يحافظ على المنهجية، والوسطية، والاعتدال. فالاتحاد الإسلامي تحدّث - ومنذ زمن ليس بالقليل - عن هذه المفاهيم، قبل وبعد الإعلان، من جانبه الفكري والنظري. وقد حوَّل هذه المفاهيم إلى الواقع التطبيقي، والمعاشي، في مشواره القصير، تقديراً لمن سبقه.. فقد كانت مساحة هذه الحركة مؤطّرة وضيّقة، وكانت تجربة سقوط النظام، وفتح بغداد أمام القادة الكورد، ومن ضمنهم الأستاذ الأمين العام، تجربة جديدة.. لقد أصبح لدى الاتحاد الإسلامي الكوردستاني مساحة أكبر لممارسة هذه المفاهيم وتطبيقها، فقد كان إنجازاً آخر مِنَ الإنجازات التي حقّقها الاتحاد الإسلامي الكوردستاني منذ إعلانه إلى سقوط النظام، وبعد سقوط النظام أصبحت الساحة أكثر مساحة ونشاطاً، وكان من الطبيعيّ أن يقوم الاتحاد الإسلامي الكوردستاني بأداء دور أكثر فاعلية وإيجابية، وعلى جميع الأصعدة.

هذا عرضٌ سريع ومقتضب لبعض مؤلفات الأستاذ صلاح الدين، وله كتب غيرها، وأخرى تحت الطبع، أرجو أن تسنح لي الفرصة لعرضها في مقام آخر..

* * *

عندما ننظر إلى كتب التاريخ عن الحركة الكوردية، نجد أن الكثير قد كتب عن شخصيات كوردية، كالأستاذ مام جلال، والأستاذ عزيز محمد، والأستاذ مسعود البارزاني، وغيرهم، ممن أفضوا إلى ربهم، وممن لا يزال على قيد الحياة. ولكن الأستاذ صلاح الدين، لأسباب موضوعية وذاتية نرى شحاً في ذكر اسمه، وذلك - كما قلت - لأسباب موضوعية، كونه شخصية إسلامية تربوية دعوية فكرية.. ومن جانب آخر، طبعه الميال إلى السكوت والهدوء، وتربيته الأسرية، كل هذا أسهمَ في بناء هذه الشخصية. ومع أنني لم يكتب لي السفر معه إلى البلدان المجاورة، أو غيرها، إلا أن رفاق سفره أكّدوا - وعن طريق التواتر - أنه شخص مرحب به، فمثلاً عندما زار إيران رُحب به بين الكورد السنة بحفاوة بالغة، وكذلك بين الشخصيات الإيرانية الثقافية والفكرية والعلمية، الشيعية والسنية.. وكذلك كان حاله في الجمهورية التركية، كان مرحباً به، على الرغم من وجود عتاب لأنه كان أحد الذين قادوا مسيرة الاستفتاء، ومع هذا كانت مكانته محفوظة بين الأتراك. نستطيع أن نقول: - ومن خلال وظيفتي في المكتب، ومشاركتي في كثير من الجلسات، واستقبال الوفود

- إن له شخصية قوية وهادئة في طرح الصورة عن الواقع، ومن ثم طرح وجهة نظره في مسألة ما، وثم آلية التعامل مع المسألة المذكورة، والمقابل يترقّب وينتظر كلماتِه وجمله❐

الهوامش:

١- محمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي البكري (بالفارسي: جلال الدين محمد بلخي 604) (هـ 672 - هـ 1273 - 1207= م)، عرف أيضا باسم مولانا جَلَال الدِّين الرُّومي، شاعر، عالم بفقه الحنفية، والخلاف، وأنواع العلوم، متصوّف (ترك الدنيا والتصنيف)، كما يقول مؤرخو العرب. وهو عند غيرهم: صاحب المثنوي المشهور بالفارسية، وصاحب الطريقة المولوية، المنسوبة إلى (مولانا) جلال الدين. ولد في (بلخ)، في أفغانستان، وانتقل مع أبيه إلى (بغداد)، في الرابعة من عمره، فترعرع بها في المدرسة المستنصرية، حيث نزل أبوه. ولم تطل إقامته، فقد قام أبوه برحلة واسعة، ومكث في بعض البلدان مدداً طويلةً، وهو معه، ثم استقرّ في (قونية) سنة 623هـ في عهد دولة السلاجقة الأتراك. وعرف جلال الدين بالبراعة في الفقه، وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس، بعد وفاة أبيه سنة 628 هـ ثم ترك التدريس، والتصنيف، والدنيا، وتصوّف سنة 642 هـ أو حولها، فشغل بالرياضة، وسماع الموسيقى، ونظم الأشعار، وإنشادها. تركت أشعاره، ومؤلفاته الصوفية - والتي كتبت أغلبها باللغة الفارسية، وبعضها بالعربية - تأثيراً واسعاً في العالم الإسلامي، وخاصة على الثقافة الفارسية والعربية والأردية والبنغالية والتركية. وفي العصر الحديث، ترجمت بعض أعماله إلى كثير من لغات العالم، ولقيت صدًى واسعاً جداً، إذ وصفته الـ(بي بي سي) سنة 2007 م بأكثر الشعراء شعبية في الولايات المتحدة. حين وفاته عام 1273م، دفن في مدينة قونية، وأصبح مدفنه مزاراً إلى يومنا. وبعد مماته، قام أتباعه، وابنه (سلطان ولد)، بتأسيس الطريقة المولوية الصوفية، والتي اشتهرت بدراويشها، ورقصتهم الروحية الدائرية، التي عرفت بالسماح والرقصة المميزة.

ii- طبعة ٢٠١٧.

iii- سعيد النورسي المعروف بـ(بديع الزمان النورسي)، وهو عالم مسلم كوردي، من عشيرة أسباريت (١٨٧٧ - ٢٣ آذار ١٩٦٠)، أحد أبرز علماء الإصلاح الديني والاجتماعي في عصره. ولد في قرية (نورس) ببلاد الكورد، في فترة (الخلافة العثمانية). لقد مرّت حياة بديع الزمان سعيد النورسي بطورين، أو كما كان يفضل أن يسميهما: مرحلة (سعيد القديم)، ومرحلة (سعيد الجديد).

iv- طبعة ٢٠١٨.

v- العلامة أحمد مفتي زاده (١٩٣٣-١٩٩٣)، كان أحد المفكرين والساسة الدينيين السنة المؤثرين بين الكورد في إيران. عرف بدوره القيادي في مطالبته بحقوق الكورد القومية، وحقوق السنة الدينية، في إيران، أثناء الثورة الإسلامية في إيران. قاد مفتي زاده إحدى التشكيلات السياسية الكوردية الأساسية الثلاث في إيران، أثناء الثورة الإسلامية. ولد في عائلة متدينة عريقة، وكان والده وعمه من أكابر علماء الدين السنة في كوردستان إيران. هذا، وقد فشلت مفاوضات مفتي زاده مع النظام الإسلامي في إيران، وانتهت المفاوضات بإصدار السلطات أمراً باعتقاله، ومجموعة من قادة الحركة التي كان يقودها. توفي مفتي زاده بعد فترة قصيرة من إطلاق سراحه عام ١٩٩٣، بسبب التعذيب، وسوء المعاملة، اللذين تعرّض لهما أثناء فترة اعتقاله.

مملكة اللّه على الأرض

د.سعد سعيد الديو جي

✍ جاء الأنبياء كلهم لتطبيق شرع الله، وتعبيد الطريق نحو التوحيد، و نبذ الشرك، وتنقية النفوس من الحسد والبغضاء والقسوة والظلم، ونشر المحبة والأخوة، والتسليم لله رب العالمين ولحكمه، وفي هذا يقول تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام}١٩ آل عمران.

و كما يقول المطران (عبد الأحد داؤد)، والذي أسلم عن قناعة تامة، بعد قراءاته العميقة للعهدين القديم والجديد، قبل أكثر من مئة عام، وفي كتابه الشهير (محمد في الكتاب المقدس): فإن الإسلام لا يعني إلا السلام، فالإسلام ليس إلا دين الله، وإنه أيضاً مملكته الدنيوية، وفيه سمو عال للبشر، من خلال بشرية الأنبياء، وهو تكريم عظيم. ويؤكد (داؤد)، في كتابه آنف الذكر، بأن محمداً (ص) هو الذي ختمت به الرسالات، وإنه هو الذي بشر به كل الأنبياء لإرساء هذه المملكة، ومن خلال نصوص وجمل واضحة أراد الأحبار والكتبة إخفاءها بكل السبل، ولم يفلحوا.

ومن هذه الفكرة، فإننا سننظر للأمر من زاوية أخرى، حيث ارتبطت فكرة تأسيس مملكة الله على الأرض، في التوراة، ارتباطاً دموياً ووحشياً بظهور (مخلص موعود)، أو (مسيح)، من نسل داؤد (ع) يعيد أمجاداً مزيفة نبتت داخل العقلية اليهودية، وينتقم انتقاماً رهيباً من أعداء اليهود، ثم يؤسس هذه المملكة في صهيون، ويبني هيكلاً للإله (يهوه)، حيث يسكن معهم إلى أبد الآبدين، حيث "تنفجر المياه في البداية، وتتدفق الجداول في الصحراء، ويتحول السراب إلى واحة، والأرض الظمأى إلى جداول .... ويرجع إليها مفديو الرب، ويقبلون إلى صهيون مترنمين، يكلل رؤوسهم فرح أبدي، وتغمرهم الغبطة والسرور، و يهرب الحزن والأنين للأبد. ٧-٩، ٣٦ أشعيا".

فمسيح اليهود المنتظر لا شأن له ببقية الأمم إلا بالقدر الذي ينتقم منها، فيقول الرب - على لسان منتظره الموعود -: "انتظروني لأني عزمت في اليوم الذي أقوم فيه كشاهد أن أجمع الأمم، وأحشد الممالك، لأسكب عليهم سخطي واحتدام غضبي ..... في ذلك اليوم لن يلحقكم العار من جراء ما ارتكبتم من أعمال تمردتم بها علي ..... إن الرب ملك إسرائيل في وسطك، فلا تخشى شراً فيما بعد. ٨-١٦، ٣ صفنيا".

و كما ترى فهذه المملكة الموعودة لا علاقة لها بنشر الفضيلة والسلام.

رفض اليهود عيسى المسيح (ع) كمنقذ من الضلال والفساد، لأنهم لم يفهموا مملكة الله من خلال أسفارهم إلا كونها تأتي بعد الانتقام من أعداء بني إسرائيل، ولهم وحدهم، كما رأينا في النصوص أعلاه.

و من المعلوم أن المسيحية ولدت في رحم اليهودية، واستقت منها معظم أصولها، ومنها فكرة المخلص المنتظر، ومملكة آخر الأيام، ولكن ببعض الاختلافات، مع بعض الرتوش الخرافية، والخيالات الرهيبة، وأفكار سوداوية لا مثيل لها، تتوافق مع فكرة المسيح الإله.

ودعوة الانتقام لها جذوروها الواضحة في الأناجيل، فالمسيح - حسب الأناجيل – يقول: "ما جئت لأرسي سلاماً، بل سيفاً. فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، و الكنة مع حماتها، وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته. ٣٥ ، ١٠متى"، وفي مكان آخر يقول: "فإن هذه الأيام أيام انتقام، يتم فيها كل ما قد كتب. ٢١،٢٢ لوقا".

والمسيح الذي حاول اليهود صلبه، هو الذي سيرجع ليؤسس المملكة الألفية السعيدة قبل يوم الدينونة، وهو إله، وابن إله، ولكن يسبق نزوله ظهور شخص اسمه (الأمين الصادق) "عيناه كلهيب النار، وثوبه مغموس بالدم، ويخرج من فمه سيف حاد ليضرب به الأمم، ويحكمهم بعصا من حديد، ويدوسهم في معصرة شدة غضب الله، القادر على كل شيء. ١٢-١٦، رؤيا يوحنا".

إن هذه الأفكار لا وجود لها مطلقاً في القرآن الكريم، ومبدأ الانتقام لا وجود له في أحداث الساعة، التي لا يسبقها تأسيس مملكة سعيدة مثالية، على غرار ما في اليهودية والمسيحية، ولكنه موجود بالقدر الذي يعاقب الله به المجرمين والقتلة والأشرار والذين يستكبرون على الناس ويستعبدونهم، في أي زمان ومكان، وليس لأسباب قومية، أو لانتماءات عرقية. ولذلك يرد المبدأ في هذا السياق، كقوله تعالى: {وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} ٧٨-٧٩ الحجر.

واسم الإسلام لا ارتباط له باسم شخص، أو اسم إله، كما عند معظم الأديان، ولا تعني الكلمة حرفياً إلا السلام، والاستسلام للخالق (جل شأنه)، وهو يشمل كل من اتبع شرع الله: {وأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُون} ١٨٧ النحل، حيث لا يعني السلم إلا السلام والاستسلام لله.

فالله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، لا لينتقم ويدمّر، ولكن رحمة للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} ١٠٧ الأنبياء، وكما يقول (داؤد) - رحمه الله -: "فإن هذا السلام هو السلام الروحي، وهو عبارة عن طمأنينة في القلب، وراحة في الضمير، يمنحه الله تفضلاً ونعمة لأولئك المؤمنين القلائل الذين لهم قدم صدق عنده في التقوى والحياة الروحية". ويجعل العفو عند المقدرة من خير الأمور: {وإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} ١٤ التغابن، وقوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} ١٩٩ الأعراف. وإن كان لا بد من العقوبة، فهو يقول: {وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِين} ١٢٦ النحل. ولهذا تبدأ صلاة المسلم بالحمد والثناء لله رب العالمين، وتنتهي بكلمات السلام.

إن تأسيس مملكة الله على الأرض، بمقاييس على الطريقة التوراتية والإنجيلية، يخالف تماماً المبدأ القراني الذي يشير لقيام الساعة والناس بين مؤمن وكافر، فلن يكون هنالك أناس مثاليون بالكامل، كما لن يكون هناك عصاة بالكامل، وهذه سنة الله في خلقه بالاختلاف: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} ١١٨ هود، و هي قاعدة لا شذوذ عنها إلى أن تقوم الساعة.

إن أصغر مملكة مثالية تنعم بالسلام، هي التي ينشئها المسلم بداخله، ومن مجاميعها ينشأ مجتمع ينعم بالسلام، ولكنه لن يكون مثالياً أبداً. وهذه هي مملكة الله على الأرض.

وأما المملكة المثالية، فهي بعد قيام الساعة، في جنات النعيم: {ونزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}٤٣ الأعراف.

ومملكة الله الصغيرة الفردية، يستطيع المسلم تكوينها حتى خارج المجتمع المسلم، ويكون بها قدوة ومثالاً لغيره، خصوصاً عندما يضع سيرة الرسول (ص) نصب عينيه.

هذه هي رسالة الإسلام بإرساء مملكة الله، ولذلك فلم يعد هنالك حاجة لأشخاص معينين لإكمال رسالة الإسلام التي جاء بها محمد (ص): {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}٣ المائدة، ولا حاجة لأشخاص لينتقموا من هذا وذاك، فكل الناس حسابهم عند الله. وإذا أيقنّا بمبدأ الاختلاف، فالحلول موجودة، والرسالة محفوظة، والدين مصان. وبذلك، كان وسيبقى محمد (صلى الله عليه وسلم) هو المنتظر الموعود لكل الأمم، ورسالته هي خاتم الرسالات، فمن تبعه كان من مملكته، ومن عصاه خرج من رحمة الله، وعلى الله حسابه، وفق شرعه.

و قد أراد عيسى (ع) تبليغ هذا الأمر لليهود، ولكنهم لم يفهموه؛ علواً واستكباراً: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـذَا سِحْرٌ مُّبِين} ٦ الصف.

و يؤكد المرحوم (داؤد) بأن مملكة الله على الأرض عبارة عن مجتمع قوي من المؤمنين، مسلحين بالإيمان، وكما لا يعتدون على أحد، فإنهم لا يقبلون الذل والخنوع من قبل أعداء الله ودعاة الفساد والرذيلة والمستكبرين. فمملكة الله على الأرض قد أرساها محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهو القدوة في كل شيء، لأنه كان معصوماً، ولا يوجد بعده أي شخص معصوم حتى يصحح مسار الحياة والدين، وإنّ وضع الأمر بالإطار السياسي للمسلمين فقط، يعد خطأ فادحاً، تأثر به المسلمون من الإسرائيليات. والله من وراء القصد❐

التكنولوجيا وبصماتها في عالم السياسة

عمار وجيه

كثيراً ما تكون نظرتنا لدول ما قبل التكنولوجيا سطحية. نصفهم بأنهم كانوا في أغلبهم دولاً قائمة على الاستبداد، من دون أن نمنح لأنفسنا وقتاً للتفكير والتحليل.

فنحن اليوم في عالم إذا (فبرك) فيه أمريكي صورة، أراد فيها تشويه سمعة الجيش التركي، وصل الخبر في دقائق إلى أردوغان ومستشاريه، وانطلقت الماكنة الإعلامية الجبارة لتفعل فعلها في إبطال السحر.

وبعيداً عن تكنولوجيا السلاح والاستخبارات والرصد وما إلى ذلك، لنتناول في الأقل نوعين من التقنيات لم تكن موجودة في الدول الإسلامية الخمس: الراشدية والأموية والأندلسية والعباسية والعثمانية (إلا في آخر عهدها)، وهي الاتصالات والمواصلات. لا خدمات برق، ولا نت، ولا طائرة تطير بجناحيها.

وعلى ذلك، أرجو أن نطلق العنان للمنطق، ونضع أنفسنا بدل حكومة بني العباس مثلاً. وعندما نقول إنه لم يكن ثمة (واير ولا تاير) فماذا يعني ذلك؟ يعني أن الاتصال مع الولاة أو قادة الجيوش في الشرق أو الغرب سيكون في مدى أسابيع أو أشهر، وليس ثوان أو دقائق. وبالتالي، سيترتب عليه جملة أمور، منها:

١- إعداد وتأهيل قيادي من الطراز الأول، لتتعزز الثقة بالقيادة المدنية والعسكرية.

٢- إعداد إيماني وفكري وتربوي للدعاة والعلماء المحيطين بالقادة والمتواجدين مع الجيش والشعب، كي يتم الحفاظ على روح الرسالة الإسلامية.

٣- لا مركزية عالية، وتفويض في كثير من القرارات، لأن التواصل بعيد زمنياً. بمعنى أن الولايات أقرب إلى الفيدراليات.

٤- تبني سياسة القوة الصلبة أكثر من الناعمة، لضبط شؤون الدولة. فالقوة الناعمة بحاجة إلى حراك دؤوب متواصل، قد يتعذر على مثل تلك الدول في ذلك الوقت.

٥- الحفاظ على هيبة السلطان والاستمرار في تعزيز ثقة الشعوب بالأسرة الحاكمة، لأنها لا تملك إعلاماً مرئياً ولا مسموعاً، بل منابر وأحاديث مجالس.

٦- إبقاء الحكم الوراثي، رغم أنه لم يكن مثالياً، لكنه أهون من الفوضى. فقد يكون في ولاية من الولايات، أو مِصْر من الأمصار، من هو أحق برئاسة الدولة أو الخلافة، لكن كيف يسوّق في ظروف تستحيل فيها الانتخابات؟ فلا اتصالات ولا مواصلات سريعة.

٧- أغلب التغيرات كانت قائمة على فلسفة الانقلابات الدموية، التي يصعب أن تجد بديلاً سلمياً لها. فمع الوقت تنشأ بين المعارضة وبين السلطة فجوات كبيرة تقرب أحياناً من حوار الطرشان. المعارضة ترى الفساد يزداد، والأسرة الحاكمة ترى التمسك بالسلطة ديناً، وهو في كثير من الأحيان هوى وتمسك بالكرسي. أيضاً لأنه لم يكن سهلاً استخدام السلطة الرابعة لممارسة الضغط وإيجاد رأي عام معارض وقادر على إجبار الحاكم بأن يتخلى عن السلطة.

٨- الرسل من وإلى السلطان يتأخرون في إيصال الرسائل، ما قد تفقد قيمتها المعلوماتية أو يتعرض الرسول إلى الخطف أو يتم تزوير الرسالة. وكلها وقائع حصلت. اليوم ربما يكتب (ترامب) تغريدته وهو مستلقٍ على فراشه، ما تلبث أن تبلغ الآفاق في غضون ثانية واحدة .

وهناك استنباطات أخرى وأخرى...

ولا أزعم أن كل ما ذكرت دقيقٌ مئة بالمئة، فلست مؤرخاً ولا أستاذاً في العلوم السياسية. إنما هي أفكار، أهم ما فيها أن لا نخوض في رفع أو خفض فلان وعلان من الحكام أو القادة الذين عاشوا قبل عصر التكنولوجيا، من دون أن نفكر ملياً ونضع أنفسنا بدلاً عنهم.

بصراحة، نحن نتعجل كثيراً في اتهام الحكام السابقين بأنهم كانوا قتلة، أو جَزَّارين، من دون أن نسأل: لماذا قتلوا؟ وهل كان ثمة بديل لإخماد فتنة ما؟

هذا ليس دفاعاً وإنما إعادة قراءة للتاريخ، بوضع اعتبار الفرق في الإمكانات والموارد❐

(كنز ربا)

الكتاب المقدس للصابئة المندائية

د. أكرم فتاح سليم

كثير من الباحثين لدراسة الأديان والفرق والطوائف، يكتبون عن نشأة وتاريخ وعقائد وفلسفات أديان العالم، وفرقهم، وأنواع عباداتهم، وطقوساتهم، بصورة مفصلة، ولا يتحدثون كثيراً حول محتوى كتبهم المقدسة، إن كان لهم كتاب. وليس المقصود من ذلك شرح وتوضيح أهمية ما ذكر في بطون هذه الكتب، بل الاطلاع على مواضيعها، ودراستها، ونقدها، وما هو موافق للقرآن الكريم، وما هو مخالف له.

(كنز ربا) كتاب ديانة الصابئة المندائية، الذين يعتقدون أن النبي (آدم) عليه السلام هو أول نبيّ أرسل إليهم، وأن (يحيى) عليه السلام آخر أنبيائهم. وهم يعيشون في جنوب شرق

العراق، وكذلك في جنوب غرب إيران، ويتمركز وجودهم على ضفاف الأنهار الجارية، لممارسة عباداتهم؛ من التعميد والوضوء وغيرها..

ومعنى (كنز ربا) الكنز العظيم، وهو يحتوي على مفاهيم وكلام الرب العظيم، وتعاليمه إلى الإنسان. وهذا الكتاب لم يكتب في عصر معين، بل كتب وجمع في عصور مختلفة، واحتوى على تعاليم وحكم وقصص الأنبياء والمعلمين الأوائل للمندائية. ومعروف أن كلمة (كنز) في اللغة تدل على النَفَاسَة والكتمان.

كذلك يحتوي هذا الكتاب على جميع صحف الأنبياء والآباء الأوائل للمندائية، وهم (آدم، وشيتل، وسام، ويهيا يوهنا)، وكذا على الأسفار المتعلقة بخلق الله للعوالم النورانية، والأكوان، والأرض، وتاريخ شرعة الحياة الفطرية في معرفة البشر للرب العظيم، ومجموع النبوءات عما سيحدث في العالم، منذ خلقه حتى المنتهى. كما يحتوي على الشرائع الإلهية، والتعاليم الروحية، والنصائح الدينية والأدبية، التي تناسب جميع البشر في كل الأزمنة، والمدونة بطرق وبأساليب مختلفة، من نثر وشعر وتاريخ وقصص وحكم وأدب وتعليم ووعيد وفلسفة وأمثال..

ويعتبر (كنز ربا) مصدر الإيمان المندائي، والغذاء الروحي للمتهيمنين (المؤمنين). فيه كل ما يختص بالإيمان، والحياة، والتعاليم الروحية، التي تنير المعرفة والمحبة في الإنسان، حسب قولهم.

ينقسم (كنز ربا) إلى قسمين-:

1. كنزا يمينا (الكنز اليمين)، ويحتوي على التعاليم والوصايا والتحذيرات، وعلى قصص الخلق والتكوين والنشوء، وكذلك على صحف آدم، وشيتل بن آدم، ودانوخت، وعلى قصص الملائكة.
2. كنزا سمالا (الكنز الشمال)، يحتوي هذا القسم على مجموعة من التراتيل والقصص الخاصة برجوع وعروج النفس إلى موطنها الأصلي، الذي نزلت منه (المادنهورا – عالم النور)، ويسمى أيضاً (كنزا اد هيي)، أي (كنز الحي، أو الحياة). ويطلق مصطلح (بيت كنزي) على المكتبة الحاوية على الكتب الدينية المقدسة، أي: بيت الكنوز. والكلمة موجودة في العربية، والسريانية، والعبرية، وتأتي في اللغة بمعنى (الكثير). ومصطلح (كنزا) يأتي في عدة معان، منها: الأفكار المثالية، الكتب الدينية، الكنوز الفكرية، الطقوس، الصلاة، والأدعية، الأسرار الإلهية، وتطلق أيضاً مجازياً على عقل الإنسان، لأنه كنز.

كتب هذا الكتاب بلهجة آرامية شرقية أصيلة، وهي ما تعرف عندهم باللغة المندائية. لكننا سنلاحظ وجوداً حالياً للغة الآرامية في قرى (جبعدين)، و(صيدنايا)، و(معلولا)، السورية.

قراءة الـ(كنزا ربا) مصدر الغذاء الروحي للمندائيين. وعلى المرء المندائي أن لا يدع الحاجات المادية، أو الأفكار الشيطانية، تمنعه من قراءته. فيجب عليه أن يعود نفسه على أن يقرأ فصلاً من (كنزا ربا) يومياً، إلى أن يصبح بذلك عادة مألوفة لديه.. وبالطبع ليست القراءة لوحدها كافية، بدون الفهم الصحيح، المقرون بالفعل والعمل الإيجابي.. وهذا ما سوف يساعده بالتأكيد، ليصبح تلميذاً أميناً ومخلصاً للحياة.. فثباته في حياة الحي العظيم (مسبّح اسمه) يأتي عن طريق قراءته لكلمته، وتعاليمه، وحفظ وصاياه، والعمل بموجبها في حياتنا..

وقد ترجم هذا الكتاب، في أول الأمر، إلى اللغة الألمانية، على يد العالم البروفيسور (ليدز بارسكي)، وأيضاً إلى اللغة العربية مؤخراً، كما ترجم قسم منه إلى اللغة الإنكليزية.. ولا يحرّم الصابئة ترجمة الـ(كنز ربا) إلى اللغات الأخرى، بل يقولون إن ترجمته واجبة على المؤسسات المندائية كافة.. ويبقى كتاب (كنز ربا)، المخطوط باللغة المندائية الآرامية، موضع التقديس الأول عندهم، والمرجع في اتخاذ الأحكام الدينية المندائية.

وهم يقولون بأن عظمة هذا الكتاب، عندما يقرأ، ويفسر، وينشر نوره على الناس، ليفهموا معنى الرب، وتوحيده، وعلاقتهم بالحياة، وكذلك ليعرفوا أول من وحّده، وعبده، ويفهموا المعاني الإلهية والإنسانية العظيمة، التي يتكون منها الكتاب المقدس للمندائيين. فالديانة المندائية ليست منغلقة، بل هي تدعو للتبشير والدعوة بين الناس، وهم ملزمين دينياً بنشر عقيدتها بين الأمم، وبتعريفهم بشريعتها، وكتابها الذي تقدسه.

مقطع من مناجاة (كنز ربا):

"معظّم هو النور السامي
إني نشأت من عالم النور
منك أيها المقام النوراني"

يمتلك المندائيون عدداً من الكتب، غير الكتاب الرئيسي الـ(كنز ربا)، لكن ليست جميع كتبهم مقدسة ودينية وإلهية، فمنها: التاريخية، والعلمية، أو التراتيل، وأناشيد

دينية، وغيرها، كتبها علماء دين كبار (ريشمي وناصورايي – رؤساء أمة وعلماء بالدين)، ومن هذه الكتب ما يلي-:

1. دراشا إديهيا: ويحتوي هذا الكتاب على حكم ومواعظ وتعاليم النبي (يهيا يوهنا) مبارك اسمه، وعلى قصص حوله أيضاً.
2. سيدرا اد نيشماثا: ويضم قصص هبوط النفس في جسد آدم، ويحتوي أيضاً على مجموعة كبيرة من التراتيل والأناشيد، التي تتلى في طقسي: المصبتا (التعميد)، والمسخثا (الارتقاء).
3. حران كويثا: ديوان يتحدث عن نقاط مهمة في التاريخ المندائي.
4. القلستا: كتاب يضم تراتيل وأناشيد ترنم في مراسيم الزواج المندائي.
5. ترسر الف شيالة: وهو عبارة عن ديوان (درج) يتألف من سبعة أجزاء، يتناول أخطاء الكهانة الطقسية، وكيفية معالجتها، إضافة إلى بعض القوانين المندائية، وبعض الأسئلة والأجوبة حول الفلسفة واللاهوت المندائي.
6. نياني اد رهمي: كتاب خاص بالأدعية والصلوات، الرسمية وغير الرسمية.
7. نياني اد مصبتا: يضم تراتيل وشرح لطقس المصبتا (التعميد).
8. هناك مجموعة من الدواوين التي تهتم بمختلف المواضيع المندائية، وأهمها: الفلسفة والميثولوجيا المندائية❐

---

* أكرم فتاح سليم/ مدرس مساعد بجامعة دهوك.
ماجستير في العقيدة – جامعة أم درمان الإسلامية – السودان
عنوان الرسالة: (**أساليب الحجاج في القرآن الكريم**)
ماجستير في الفلسفة - جامعة لندن للعلوم الإنسانية - بريطانيا
عنوان الرسالة: (**الإلهيات والطبيعيات في فلسفة ابن رشد**)
دكتوراه في مقارنة الأديان – جامعة أم درمان الإسلامية – السودان
عنوان الرسالة: (**الأديان وأثرها في التعايش السلمي في العراق – دراسة مقارنة**)
دكتوراه في الفلسفة - جامعة لندن للعلوم الإنسانية - بريطانيا
عنوان الرسالة: (**أساليب الحجاج الفلسفية بين أبي حامد الغزالي وابن رشد**)

النشاطات:
باحث أكاديمي في مركز بشكجي للدراسات الإنسانية – رئاسة جامعة دهوك
رئيس قسم الشريعة والقانون – جامعة لندن للعلوم الإنسانية منذ عام ٢٠١٢م

المنصات الإعلامية والإلكترونية.. والمستقبل المظلم

صالحة علام

✍ توظيف منصات إعلامية مدربة، ومدفوعة الأجر، للقيام بحملة تشويه متعمدة لكل ما هو مخالف لتوجه سياسي أو استراتيجي معيّن، من الأشياء القديمة التي عرفها العالم في الحروب والخلافات السياسية التي تظهر هنا أو هناك.. ولعل أقدمها تلك المنصات التي استخدمتها الحركة الصهيونية العالمية في حربها ضد العرب والفلسطينيين، والتي تمّ عن طريقها إبراز الكيان الصهيونى وكأنه جنّة الديمقراطية على الأرض، فيما ظهر العرب والفلسطينيون ككائنات بدائية همجية تسعى لتدمير الإنسانية والمدنية والقضاء على حركة التطور الذى يشهده العالم.. وهي الاستراتيجية التي نجحت نجاحاً باهراً في ترسيخ تلك المفاهيم المغلوطة، في أذهان الغرب تحديداً، سواء على مستوى النخب السياسية الحاكمة، أو على مستوى الرأي العام فيه، والذي لا يزال يتعامل معنا حتى اللحظة من خلال تلك الرؤية القاصرة، دون تبديل أو تغيير .

الاحتذاء بالصهاينة

دفع نجاح التجربة الصهيونية النخب الحاكمة في دول الشرق الأوسط إلى الاحتذاء بها، والسعي لتطبيقها، بكافة تفاصيلها الدقيقة، ليس على صعيد مواجهة الخلافات والمشاكل الخارجية، وتشويه الأعداء المتربصين بالأوطان، وإنما في مواجهة المعارضة الداخلية، التي

ترفض الممارسات الديكتاتورية لتلك النخب الحاكمة في دولها.. حيث بات لكل نظام من أنظمة المنطقة منصاته الإعلامية الناطقة باسمه، المسوّقة لسياساته، والمؤيّدة بقوة لكافة تصرفاته وأفعاله – حتى وإن كانت تندرج ضمن خانة العمالة والخيانة – وإظهارها على أنها أعمال وطنية بحتة، تصب في صالح أمن الوطن وسلامة مواطنيه .

تلك المنصات الإعلامية، التي يعتليها دوماً زمرة من ضعاف النفوس أصحاب المصالح المادية، وراغبي التمسح في أحذية السلطة والمنتمين لها، الباحثين عن النفوذ والقوة، أصبحت تمثّل أهمية كبرى للمستفيدين منها، ومموليها، والقائمين عليها، وحتى العاملين بها، الذين لا ناقة لهم في الأمر ولا جمل، سوى ارتباط مصدر دخلهم باستمراريتها في أداء المهام المنوطة بها، حتى وإن كانت تبيع الوهم للبسطاء من أبناء الشعب. لذا تجدهم يدافعون عنها، وعن ما يبث من خلالها، بكل ضراوة.

اللجان الإلكترونية

ومع التقدم التكنولوجي، وظهور العديد من وسائل التواصل الاجتماعي، تحولت تلك الوسائل إلى أداة جيدة في متناول قوى المعارضة، لمواجهة النخب الديكتاتورية، وتعرية أكاذيبها أمام الرأي العام، الذي أضحى مهتماً بمتابعة ما يحدث، وما يُكشف عنه من المسكوت عنه أو المستور عليه، في مواجهة أكاذيب التسلط الإعلامي الذي تمارسه السلطة الحاكمة.. وهو ما اضطر تلك النخب الحاكمة لتوظيف الوسائل نفسها – أي وسائل التواصل الاجتماعي - للرّد على المعارضين، حيث ظهر على الساحة مؤخراً ما أصبح يعرف باسم (اللجان الإلكترونية)، التي أوكل لها مهمة الرد على المعارضين، وتوجيه السباب والشتائم لهم، واتهامهم بالخيانة والعمالة والتآمر على الوطن، ورموزه الوطنية.

إعلام شعبي

اللجان الإلكترونية تلك تحولت بين ليلة وضحاها إلى الوسيلة الوحيدة الأكثر ملائمة وقدرة على التعاطي مع جموع المواطنين، على اختلاف مشاربهم الثقافية، ومستوياتهم الاجتماعية.. ولهذا الغرض تمّ توظيف آلاف العاطلين عن العمل، إلى جانب عدد من أصحاب الفكر والقلم، المؤيدين لهذا الطرف أو ذاك، واستخدامهم في تسويق الأفكار، وتمجيد السياسات، وتشويه الأطراف الأخرى، التي تخالفهم الرأي والمنهج، وإظهار تلك اللجان الناشطة في هذا العالم الافتراضي كإعلام شعبي ينقل بدقة نبض الشارع، ويتبنى وجهة نظر الرأي العام، ورؤيته للأحداث، بعيداً عن الإعلام الرسمي، أو الموجه، دون رقابة

عليه على الإطلاق، مما حول الأمر إلى ساحة قتال بين كافة أطراف العملية السياسية، حيث أصبح لكل طرف مجموعته التي تحمل لوائه، وتدافع عن مواقفه، وتتبنى وجهات نظره، وتروّج لما يقول ويزعُم ، حتى وإن كانت مجرد مجموعة من الأكاذيب، أو الأوهام ، فيما الرأي العام في العالم الحقيقي يتابع بشغف تفاصيل تلك المعارك، ينحاز إلى هذا حيناً، وإلى ذلك أحياناً أخرى، وتحول الأمر إلى ما يشبه دوري كرة القدم الذي يلعب فيه أكثر من فريق، ويتابعه الملايين بدقة بالغة وبشغف ما بعده شغف، حيث لم تعد النتيجة مهمة، بقدر أهمية ما تكشفه أحداث المباراة من حقائق، وما تسقطه من أقنعة عن وجوه وشخصيات طالما احترمها الناس، وأثنوا عليها، ووصفوها بالشرف والوطنية .

الغريب في الأمر أن هذا التطور دفع بعدد لا يستهان به من الإعلاميين، والصحفيين، والنخب المثقفة، غير المحسوبين على أي طرف من الأطراف، إلى الدخول في غمار الصراع الدائر على وسائل التواصل الاجتماعي، وتبني إحدى وجهات النظر المطروحة، بل والتعصب لها، والدفاع عنها بشدة، وتسفيه الآراء المعارضة لوجهة النظر تلك، تحت دعاوى وحجج متباينة من جانبهم، حتى أصبح التعصب هو سمة التعاطي في كافة القضايا الوطنية المصيرية، التي لا تحتمل جدالاً، ولا تحتاج نقاشاً .

التعصب الأعمى

المنحى الذي اتخذته تلك الفئة المستنيرة، أوجد تياراً شعبياً أكثر منها تعصباً، وأشد حدة، في مواجهة الأمور، حيث أصبح الجميع بلا استثناء خبراء استراتيجيين، وناشطين سياسيين، ومفكرين، تتملكهم رغبة محمومة في قيادة الأمور، وتوجيه دفتها، وفق رؤيتهم الخاصة، التي تبلورت من خلال ما يتلقونه من معلومات، هي - في الأغلب - كاذبة.. رؤية خاطئة يمجدونها، ويتعصبون لها، تعصب الأعمى الذى لا يرى، ولا يعترف إلا بما يعتقده هو ، أو كمن يشجع فريقاً لكرة القدم يراه دوماً هو الأفضل، ولا فرق لديه إن كان فريقه بالفعل جديراً بالفوز، أو يستحق الخسارة، مما زاد حالة التشنج الشعبي، وساهم في اتساع هوة الفرقة، وكرّس حالة الانقسام بين أبناء الوطن الواحد، الأمر الذي يجعلنا قاب قوسين أو أدنى من مرحلة انفجار داخلي، من شأنه أن يطيح بكل المفاهيم والقيم والمبادئ التي ترتكز عليها حياة الأوطان، انفجار ستتناثر معه أشلاء المستقبل الذي نعول عليه من أجل التغيير للأفضل الذي نطمح إليه جميعاً، وسيحوله من مستقبل مشرق، إلى مستقبل مظلم، بل ومجهول العواقب❐

ابتلاء المؤمنين..

رشاد محمود

إلهي كَفَاني عِزّاً ... أنْ تكونَ لي ربّاً
وكَفَاني فخراً أنْ... أكونَ لكَ عَبْداً
أنتَ لي كما أُحِبّ... فوفِّقني إلى ما تحبّ

إنَّ الابتلاء على الإيمان أصلٌ ثابت وسنة جارية في ميزان الله، لكي يعدّ الله نفوساً صهرتها الشدائد والمصائب، وتخلّت عن شوائب القلب، لأجل أن تكون القلوب طاهرة وصافية وخالِصة لله. ولذلك، فإنَّ ابتلاء المؤمنين من طراز راقٍ، لأنه يتعامل مع روح سمت بالإيمان، وتعلّقت بالله، وأذلّت نفسَها مطيعة لأمره، ورفعت كلمة الحقّ واعتزَّت بها، فهان كلُّ شيء لديها، فلا تحابي ولا تراهن ولا ترضى بأنصاف الحلول، ولا تلتقي مع مبادئ الجاهلية وأوثانها وشركها، لأنها عرفت الإسلام عقيدةً وتشريعاً وسلُوكاً، ورأت الجاهلية انحرافاً وزيغاً وضلالاً وظلمات بعضها فوق بعض.

وبالابتلاء ينكشف صنف المسلمين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وسرت العقيدة في قلوبهم سريان الدم في الجسد، فكانت دفقاتها حماساً وحُبّاً وصخرة عاتية أمام المحن والشدائد، تجسَّدت صورتهم بعزوفهم عن مغريات الحياة وجواذب الأرض والشهوات من مالٍ ومنصب وجاه وزينة ومتاع، وعرفوا ببصيرتهم أنها فتن ليختبر الله أهلها، ليتبيَّن له من يحسن العمل في الدنيا ليستحقَّ نعيم الآخرة. قال الله تعالى: [إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا](الكهف: ٧)، فأصبحُوا في الدنيا رجال الآخرة، لا تجزعهم مصيبة، ولا تبطرهم نعمة، ولا يغريهم منصب ولا سُلطان، لا يرضون بالذلّ والهوان لأنفسهم أو لإخوانهم، ولا يحنون جباههم إلاّ لله، لأنهم عرفُوا المصير أنَّه الموت، وصدق رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم): (لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه). عاشوا عزيزي النفس، لأنَّ الله كتب العزَّة له ولرسوله وللمؤمنين، فلماذا لا يتمسَّكون بها؟ تمسَّكوا بالحقيقة

والجوهر، وابتعدوا عن القشور وسفاسف الأمور. بتلك الأرواح السامية، والهِمم العالية، كانوا يعيشون، ولا يخافون في الله لومة لائم، وقوة طاغٍ، وسلطانَ فاجر.

إنَّ المؤمنين المخلصين هم الذين يثبتون في المصائب والشدائد، وعند الفتن والابتلاء، لأنَّها سنَّة الحياة. قال تعالى: [أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ](العنكبوت: ٢-٣). والمؤمن يشعرُ بالسعادة والفرح عند الابتلاء، لأنَّه يعرف حقيقة نفسه، وعظمة إيمانه بمقدار ما يفتن به. روى الترمذي عن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول اللّه (صلّى الله عليه وسلّم): أيّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: (الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه وما عليه من خطيئة). ولكنّ حال أكثر المسلمين يرثى لها وهم ينصهرون في أوضاع المجتمع، وينحدرون نحو الهاوية، ويتجرّعُون مرار الجاهليّة ولا يسيغونه.

فلننظر إلى سيرة الصحابة والمؤمنين السابقين كيف فتنوا في دينهم في كلّ زمان، وزلزلوا، ولكن أوضاع الجاهليّة ضاقت عليهم بما رحبت، ولجأوا إلى اللّه واستفاءوا تحت ظلّ رحمته. وتلك عائلة آل ياسر، وهي تتجرَّع آلام سياط مشركي قريش وطغاتها دون مبالاة، فيمرّ الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) فيقول: (صبراً آل ياسر، إنَّ موعدكم الجنَّة). إنّه الصبر على الفتنة، وتحمّل المشاق وطول الأناة والدأب على العمل ودوام المثابرة، لأنَّ ذلك قاموس الحياة. قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ](آل عمران: ٢٠٠). روى عثمان عن صهيب الرومي (رضي الله عنهما): لَمّا أردت الهجرة من مكة المكرّمة إلى النبي (صلّى الله عليه وسلّم) قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً. فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عنّي؟ فقالوا: نعم. فدفعتُ إليهم مالي فخلّوا عنّي، فخرجتُ حتى قدمت المدينة، وبلغ ذلك النبي (صلّى الله عليه وسلّم)، فقال: (ربح صهيب، ربح صهيب). إنَّه خسر ماله، وفارق وطنه، ولكن ربح مرضاة الله، وربح الحسنات، بهجرته إلى الرسول (صلّى الله عليه وسلّم). وهذا سيدنا بلال الحبشي يعذَّب في صحراء مكة تحت لهيب شمس الصيف، ويُلْقَى عليه الصّخر، ويقذف بأقذع السباب وبأقبح النعوت، وهو ساكن ثابت لا يعبأ بهم ولا يلتفت إليهم، كأنَّ الأمر لا يعنيه وهو يردِّد: "أحد، أحد، والله لو أعلم كلمةً أغيظ لكم منها لقلتها". تلك صور بسيطة ترسُم لنا انتصار الإيمان على فتن الدنيا جميعاً❐

الفرعونية العالمية

صالح شيخو الهسنياني

أركان الطغيان من الاستبداد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإعلامي والديني تتجلى في الظاهرة الفرعونية، وكل طاغية أو مستبد له نصيب من هذه الظاهرة العالمية، بأي اسم كان.

الحضارة الغربية التي تنادي بالعدل والمساواة والحرية والديمقراطية، لها نصيب وافر وعريض من الفرعونية العالمية، لممارستها النفاق في تعاملها. فهي تغض الطرف عن المجازر والمذابح والانتهاكات في العالمين العربي والإسلامي – وقد تكون هي صانعة ومدبرة ومؤججة نيران المعارك والحروب لمصالحها - حيث يقتّل ويشرد مئات الآلاف، والملايين، على أيدي الأنظمة الدكتاتورية، وتتماطل في التعامل مع الأحداث، بينما تملأ العالم ضجيجاً إذا انتهكت حقوق كلب أو قط في بلدانها.

لقد أصبحت الفرعونية ظاهرة عالمية تتكرر وتتجدد في أمكنة وأزمنة مختلفة، وإن تغيرّت الشخصيات والسيناريوهات والمخرجون. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [النازعات:١٥-١٧].

الإيدز السياسي:

يقول الدكتور (فؤاد البنا): "عندما تظهر عاهة في الجسد، دون أن تجد اليد الحانية التي تمتد إليها، فإنها تتطور مع الزمن حتى تصبح مرضاً مزمناً، ويمكن أن يستفحل هذا المرض، ويستبد بالجسم، ويصيبه بالعجز، عندما يتحول مع طول المدى إلى (سرطان). ومهما كانت بداية هذا المرض، في الرأس أم في الجسد، فإنه ينتقل إلى سائر الأعضاء. والاستبداد السياسي هو الاسم القديم للسرطان، غير أنه لا يصيب جسم الفرد فقط، كالسرطان، وإنما يصيب جسد المجتمع بكامله، بعقله وقلبه وروحه وجسده، برأسه وأعضائه وحواسه، بخلاياه وعروقه. وعندما يصل الجسد إلى هذه الحالة، فإنه يفقد المناعة الذاتية، ويسلب كل إمكانات المقاومة، وهذا هو الإيدز السياسي الذي أضفى على كل ممارسات الطغاة والمستبدين مسحة من الإنسانية الظاهرة، والديمقراطية المصطنعة".

خصائص الفرعونية العالمية

من خلال ملاحظة خصائص الفرعونية العالمية، وسماتها، في القرآن الكريم، نرى أنه يتولد في محاضنها كل فكرة خبيثة؛ وكل خُلُق مذموم وهدّام؛ وكل أسلوب من خلاله يطيل عمر الاستبداد والطغيان والاحتكار، والتي بها يزداد إذلال واضطهاد الشعوب، واستنزاف قدراتها وثرواتها.. وكل ذلك قد يأتي باسم الإصلاح، ونشر الحرية والسلام، وتحسين مستوى المعيشة والتعليم، ورفع دخل الفرد، ومحاربة الفقر والأمراض، لتقنن لها القوانين، وتوضع الدساتير، وتعقد المؤتمرات، وتجتمع البرلمانات، لإعطاء هذا الاضطهاد والاستبداد صفة الشرعية والقانونية، أمام أنظار العالم، والجماهير الساذجة.. أما على أرض الواقع، فتكون النتائج على خلاف ذلك تماماً.

ومن هذه العلامات:

1- التفكير التعويضي أحادي الرؤية:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فرعون بكلامه هذا يحجر على عقول أتباعه، ويمنع عنهم التفكير الصحيح، وحتى الاستماع للدين الجديد، طالما - باعتقاده - أنه يمتلك سبل الوصول إلى سبيل الرشاد. يقول (سيد قطب) في تفسير الآية: "هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة. تأخذه العزة بالإثم. ويرى في النصح الخالص افتياتاً على سلطانه، ونقصاً من نفوذه، ومشاركة له في النفوذ والسلطان ... إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً، وأعتقده نافعاً.

وإنه لهو الصواب والرشد، بلا شك ولا جدال! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب؟! وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟"!..

ويمتاز هذا النوع من التفكير، الذي يسميه الدكتور (خالص جلبي) بـ (العقل النقلي)، بثلاث صفات:

- تمرير الأفكار دون مناقشة، حيث يتحول العقل إلى وعاء يضم كمّاً فوضوياً من الأفكار، دون نسق معرفي.
- تكرار الأفكار دون تمحيص، حيث تتشكل الدوغمائية (العقيدة المتصلبة). وتعني: حمل أفكار متضاربة تصل إلى درجة التناقض، دون شعور حاملها بذلك.
- تبرير الأفكار والدفاع عنها حتى الموت، حيث تتشكل العقلية أحادية الرؤية، التي ترى الكون من خلال منظار بلون خاص، مبني على التطرف؛ فالوجود أبيض أو أسود، والبشر هم إما في خانة طاهر مقدس، أو دنس حقير، معنا أو ضدنا، والنشاط الإنساني يقوم ليس على تحرير العقل، بل اصطياد الأتباع.

فمع العقل النقلي تنمو الحافظة، ويزداد التقليد، يشتد التعصب، ويتعمق اتجاه العنف، يتحنط العقل، ويتوقف النمو، يتعطل التطور، وتصبح الحياة مستحيلة؛ بسبب تشكل طريق ذو اتجاه واحد، لا مجال فيه للمراجعة".

هكذا غابت الحرية، وحوربت، "وحين تغيب الحرية – ربما – لا يتحول الناس إلى مجانين، ولكنهم يفقدون النظرة الصائبة للأمور، فنرى الفرد في تمام وعيه وإدراكه، بينما الجموع تبدو غائبة عن الوعي؛ لأنها تفقد وسيلة التفاهم بين الأفراد في مجتمع أخرس، له صفات القطيع، لا تجمعه سوى إرادة الراعي، الذي يحاكم بعصاه من يتجرأ فيفكر، أو يسمح لعقله أن يتحرك، لأن الراعي يرى أن حركة العقل أخطر من تحرك وحدة الدبابات.. ولذلك فهو لا يقبل أن يستخدم القطيع عقله، لمجرد التفكير في تأييده، إلا بإذنه، حتى لا يتعوّد أفراد القطيع على التفكير؛ فيفقد الراعي سلطانه ".

2- التآمر والتهديد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

إنه التآمر العالمي الخفي، وغير المباشر أحياناً، على الشعوب النائمة، والمستضعفة، والمنادية للعيش بحرية وكرامة، باسم العدالة والمساواة والعمل على محاربة الإرهاب

ومكافحة الفساد، وباسم الإخلال بالأمن القومي أو الوطني.. وحتى التآمر على الشعوب المتيقظة، أو المتحضرة، باسم الحفاظ على الأمن العالمي، والحروب القادمة والمتوقعة، وأحقية التجسس الفضائي، والكوارث الكونية القادمة، التي فيها نهاية العالم، التي يثيرونها بين الفينة والأخرى، لتعيش هذه الشعوب على هاجس الخوف والدمار باستمرار، لذا يشغلونها بالانحلال الأخلاقي والمرح والترف والمسابقات..

يقول (سيد قطب): "ويبدو من قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى﴾.. أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة- من ناحية الرأي- كأن يقال مثلاً: إن قتل موسى لا ينهي الإشكال. فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه، واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له، وللدين الذي جاء به، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع، وإعلانهم سبب إيمانهم، وهم الذين جيء بهم ليبطلوا عمله ويناوئوه.. وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسّ في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له، ويبطش بهم. وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه! ويكون قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.. رداً على هذا التلويح! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كانت تبجّحاً واستهتاراً، فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله- عليه السلام- ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ؟!! أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد، عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح، في وجه الحقّ الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث، لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطق واحد، يتكرر، كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان، على توالي الزمان، واختلاف المكان. والقصة قديمة، مكررة، تعرض بين الحين والحين"..

3- الاستحياء العالمي للنساء:

قوله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة:٤٩].

وقوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧].

وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ يَسْتَحْيُونَ ﴾: يستفعلون، من الحياة، أي: يستبقونهن. والاستحياء: الإبقاء حيّاً. واستفعل فيه، بمعنى: أفعل، استحيا وأحيا. وقيل: طلب الحيا، وهو: الفرج .

وكان بنو إسرائيل قد عانوا من قبل- في إبان مولد موسى- مثل هذا التنكيل الوحشي من قرعون، وملئه، كما يقول الله تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً، يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ، يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ..

إنه الطغيان في كل مكان، وفي كل زمان. لا فرق بين وسائله اليوم، ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام ..

لأن الأبناء هم العدة، والنساء عادة شأنهن مبنيّ على الحجاب، وعلى الستر. وفي إبقاء المرأة، وقتل الرجل، إذلال للرجال؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء .

والإفساد أن تأتي على الصالح بذاته، فتفسده. فمن الفساد إذن قتْل الذُّكْران، واستحياء النساء؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع. واختار قَتْل الذكْران، لأنهم مصدر الشر بالنسبة له، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ، ولا خوفَ منهن؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة، وللاستذلال .

4- تشكيل جماعات القتل والتعذيب:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩].

يَسُومُونَكُمْ: يولونكم. ويقال: يريدونه منكم، ويطلبونه. ومنه يقال: سامه خطّة خسف: أولاه إياها .

وهو من مساومة البيع. وقيل: سامه: كلّفه العمل الشاقّ. وقيل: معناه يعلمونكم، من السّيماء، وهي العلامة. وقيل: يرسلون عليكم، من: إرسال الإبل المرعى .

قال تعالى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٤].

هذا يدل على أن الصلب، وقطع اليد والرجل من خلاف، كانت عقوبة متأصلة عند الخلق، تلقفوها من شرع متقدم، فحرّفوها، حتى أوضحها الله في ملة الإسلام، وجعلها أعظم العقوبات لأعظم الإجرام .

إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم. ومعنى القطع من خلاف، أنه قطع من كل شق عضواً خلاف ما قطعة من الآخر، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى، وهو أول من قطع من خلاف، وصلب .

والفرعونية العالمية تعرض اليوم "صور محاولة اغتيال فلان وفلان، بينما قناصتهم يصوّب سلاحه نحوي ونحوك، فهم لا يريدوننا أحياء أو أموات، بل يريدوننا أحياء بأفكار ميتة!! وصواريخهم تدك ما أنشأنا من مبان، لكن عيونهم على ما نشأنا عليه من قيم.. ليس قصدهم البنية التحتية، إنما يريدون بنيتنا نحن.. قد يخيل إلينا أن هدفهم النهائي هو النفط.. وليس لهم من هدف إلا السائل الخام الذي يجري في عروقنا، والذي يمكن أن يحمل رسالة الإسلام..

إن المؤامرة هنا ليست نظرية، وليست افتراضاً، وليست وجهة نظر.. إنها الواقع المحبوك الذي نعيشه، والذي يحاصرنا من كل الجهات، إنها اليقين الذي نقطع به، في عالم مليء بالافتراضات والاحتمالات والمتغيرات".

وتصل تداعيات الاستبداد السياسي إلى العلاقات السياسية مع الداخل والخارج، حيث يعمد الفساد إلى تبديل المواقع، وتقوم علاقة المستبد مع شعبه على الشدة، بينما تلين قناته مع الآخرين، يستخدم القوة مع الشعب، والضعف مع الأعداء، يعتبر الأولياء غرماء، والغرباء أولياء، يستخدم مع أبناء جنسه السلاح لأتفه الأمور، ومع الآخرين فلسفة السلام في أعقد القضايا، يتعامل مع أبناء شعبه كرعية يمتلكهم، ومع قيادات الآخر كرعاة يمتلكونه.

لقد أنزل الله تعالى الحديد فيه بأس شديد، ومنافع للناس. وفي ظل هذه الأنظمة المستبدة تكون المنافع للحكام، ومن يقفون خلفهم وأمامهم، ومن يسوقونهم ويقودونهم، بينما يصبح البأس من نصيب المحكومين، وعلى وجه الخصوص الشرفاء منهم. وهي قسمة ضيزى، يزيد من وقعها الدامي على حسّ الشرفاء، رؤية الشعب يموت بآلات الحديد السلطوية، بينما أزلام الاتّجار السياسي يصوغون بألسنة حداد بيانات النعي والشجب والاستنكار نهاراً، ثم يذهبون في الليل ليخطبوا ود الحكومة، ويعرضوا على قادتها الزواج، ولو بخاتم من حديد!!

5- تشكيل الجماعات والحكومات الموالية والضعيفة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

ومعنى العلو هنا الكِبر، وهو المذموم من العلو المعنوي. ومعناه: أن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره، ليس يساويه أحد. فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحقّ من دين، أو شريعة، أو رعي حقوق المخلوقات معه، فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح، وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته، وإرضاء هواه. وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهاً، وأنه ابن الشمس.

والشيع: جمع شيعة. والشيعة: الجماعة التي تشايع غيرها على ما يريد، أي تتابعه وتطيعه وتنصره.

ومن البلاغة اختياره هنا، ليدل على أنه جعل أهل بلاد القبط فرقاً ذات نزعات، تتشيع كل فرقة إليه، وتعادي الفرقة الأخرى، ليتم له ضرب بعضهم ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة، ليأمن تألبهم عليه. وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو، ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة.

أما فرعون، فقد جعل الناس طوائف، ثم يسلِّط بعضها على بعض، ويُسخِّر بعضها لبعض. ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف، له مَلْحظ عند الفاعل، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف، ويشغل بعضها ببعض، فلا تستقر بينهم الأمور، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه، ويهزّ عرشه من تحته، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

واليوم تستخدم الفرعونية العالمية التيارات الفكرية بمنطق الاستفادة والمنفعة السياسية البحتة.. وتمنع "الفكر من فهم الواقع، وفهم الممارسة الاجتماعية، فهماً موضوعياً وسليماً، يساعده على التحكم بهما، والسيطرة عليهما، ومن ثم يفرض عليه العيش في نزاع دائم لا مخرج منه، ويحبس عليه في دائرة الجدل المجهض والمسدود، وتصبح وظيفة الحوار هي إعادة إنتاج هذا الشقاق الشامل في الوعي والمجتمع، وترجمته في الفكر، أو عكسه عكساً أميناً، بحيث يعطي لكل فريق من المتخاصمين الصورة العدوانية والهمجية التي يرغب في امتلاكها عن الآخر، كي يستطيع - شعورياً وعقلياً - الاستمرار في الحرب الباردة والساخنة ".

6- تشويه الدعوات الإصلاحية لإثبات حكمه :

تشويه الدعوات الإصلاحية، ورميها بـ(المكر)، أسلوب فرعوني قديم، الغرض منه صرف أنظار وتوجهات الناس عن ما في الحكم، وسياساته، من أخطاء وهشاشة في الحكم والتدبير. لذا كان أسلوب المكر والخداع والمماطلة والكذب، أساليب يعتمدها الحكام الفاسدون للتضليل على الرأي العام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٢٣].

المكر: صرف الإنسان عن مقصده بحيلة. وهو نوعان: محمود، ويراد به الخير. ومذموم، يقصد به الشر.

والمكر فعل يقصد به ضر أحدهم، في هيئة تخفى عليه. أو تلبيس فعل الإضرار بصورة النفع.

لقد كان فرعون في مأزق وحرج، ويريد أن يخرج منه؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا انتصار الحق، وكذب ادعائه، وهو لا يريدهم أن يتشككوا في ألوهيته، فينهدم الصرح الذي أقامه على الأكاذيب؛ لذلك اتهم السحرة، فقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ... ﴾.

7- محاولة التشكيك بالربوبية – نشر الإلحاد:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:٤٩-٥٠].

إنه لا يريد أن يعترف بأن ربّ موسى وهارون هو ربّه، كما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾، فهو يسأل، موجهاً الكلام إلى موسى، لما بدا له أنه هو صاحب الدعوى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى﴾، من ربّكما الذي تتكلمان باسمه، وتطلبان إطلاق بني إسرائيل؟ فأما موسى- عليه السلام- فيردّ بالصفة المبدعة المنشئة المدبرة من صفات الله تعالى: ﴿قالَ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾.. ربّنا الذي وهب الوجود لكل موجود، في الصورة التي أوجده بها، وفطره عليها، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمده بما يناسب هذه الوظيفة، ويعينه عليها. وثم هنا ليست للتراخي الزمني. فكل شيء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعي الفطري للوظيفة التي خلق لها، وليس هناك افتراق زمني بين خلق المخلوق وخلق وظيفته. إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته، فهداية كل شيء إلى وظيفته، مرتبة أعلى من خلقه غفلاً..

8- إثارة دفائن الماضي:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه:٥١-٥٢].

ما شأن القرون التي مضت من الناس؟ أين ذهبت؟ ومن كان ربّها؟ وما يكون شأنها، وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟ ﴿قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾..

بهذا أحال موسى ذلك الغيب البعيد في الزمان، الخافي عن العيان، إلى ربّه الذي لا يفوت علمه شيئاً، ولا ينسى شيئاً. فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كلها، في ماضيها، وفي مستقبلها. والغيب لله، والتصرف في شأن البشر لله .

ويجوز أن يكون المعنى: أن فرعون أراد التشغيب على موسى، حين نهضت حجته، بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذاب، بمناسبة قول موسى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]، فإذا قال: إنهم في عذاب، ثارت ثائرة أبنائهم، فصاروا أعداء لموسى، وإذا قال: هم في سلام، نهضت حجة فرعون، لأنه متابع لدينهم. ولأن موسى لما أعلمه بربّه، وكان ذلك مشعراً بالخلق الأول، خطر ببال فرعون أن يسأله عن الاعتقاد في مصير الناس بعد الفناء، فسأل: ما بال القرون الأولى؟ ما شأنهم، وما الخبر عنهم؟ وهو سؤال تعجيز، وتشغيب.

وقول موسى في جوابه: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ [طه:٥٢]، صالح للاحتمالين؛ فعلى الاحتمال الأول: يكون موسى صرفه عن الخوض فيما لا يجدي في مقامه ذلك، الذي هو دعوة الأحياء، لا البحث عن أحوال الأموات، الذين أفضوا إلى عالم الجزاء، وأن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله، لأنه لم يبعث بذلك .

9- المغالاة بالاحتفالات:

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩].

فقوله: يوم الزينة، تعيين للوقت. وقوله: وأن يحشر الناس، تعيين للمكان، وقوله: ضحى، تقييد لمطلق الوقت.

والضحى: وقت ابتداء حرارة الشمس، بعد طلوعها.

ويوم الزينة كان يوم عيد عظيم عند القبط، وهو يوم كسر الخليج، أو الخلجان، وهي المنافذ على النيل، لإرسال الزائد من مياهه إلى الأراضي البعيدة عن مجراه للسقي، فتنطلق المياه في جميع النواحي التي يمكن وصولها إليها، ويزرعون عليها.

وزيادة المياه في النيل هو توقيت السنة القبطية، وذلك هو أول يوم من شهر (توت) القبطي، وهو (أيلول) بحسب التاريخ الإسكندري، وذلك قبل حلول الشمس في برج الميزان بثمانية عشر يوماً، أي قبل فصل الخريف بثمانية عشر يوماً، فهو يوافق اليوم الخامس عشر من شهر تشرين (سبتمبر). وذلك مبني على حساب انتهاء زيادة النيل، لا على حساب بروج الشمس. واختار موسى هذا الوقت، وهذا المكان، لأنه يعلم أن النصر سيكون له، فأحب أن يكون ذلك في وقت أكثر مشاهدة، وأوضح رؤية.

-10 إعداد الحيل، وإخفاء المكايد:

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه:٦٠].

والتولي: الانصراف، وهو هنا مستعمل في حقيقته، أي: انصرف عن ذلك المجلس إلى حيث يرسل الرسل إلى المدائن، لجمع من عرفوا بعلم السحر.

ومعنى جمع الكيد: تدبير أسلوب مناظرة موسى، وإعداد الحيل لإظهار غلبة السحرة عليه، وإقناع الحاضرين بأن موسى ليس على شيء.

وهذا أسلوب قديم في المناظرات: أن يسعى المناظر جهده للتشهير ببطلان حجة خصمه، بكل وسائل التلبيس والتشنيع والتشهير، ومبادأته بما يفت في عضده، ويشوش رأيه، حتى يذهب منه تدبيره.

فالجمع هنا مستعمل في معنى إعداد الرأي، واستقصاء ترتيب الأمر. أي: جمع رأيه وتدبيره الذي يكيد به موسى. ويجوز أن يكون المعنى: فجمع أهل كيده، أي: جمع السحرة. والكيد: إخفاء ما به الضر، إلى وقت فعله.

-11 جمع الموالين لتدبير الانقلاب على الشرعية:

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه:٦٤].

أطلق الجمع على التعاضد والتعاون، تشبيها للشيء المختلف بالمتفرق. وسموا عملهم كيداً، لأنهم تواطئوا على أن يظهروا للعامة أن ما جاء به موسى ليس بعجيب، فهم يأتون بمثله، أو أشد منه، ليصرفوا الناس عن سماع دعوته، فيكيدوا له بإبطال خصيصية ما أتى به. ودبروا لإرهاب الناس، وإرهاب موسى وهارون، بالاتفاق على أن يأتوا - حين يتقدمون لإلقاء سحرهم – مصطفين، لأن ذلك أهيب لهم.

ولم يزل الذين يرومون إقناع العموم بأنفسهم، يتخيرون لذلك بهاء الهيبة، وحسن السمت، وجلال المظهر. ما قصدوه من تآمرهم بأن الفلاح يكون لمن غلب وظهر في ذلك الجمع. فـ (استعلى) مبالغة في علا، أي علا صاحبه وقهره.

وقوله: ﴿مَنِ اسْتَعْلَى﴾ أي: طلب العُلو على خَصْمه.

-12 إنشاء قنوات للدعاية للطاغية، ومنهجه:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾ [طه:٦٣].

يبدو أن استعداء فرعون لقومه على موسى وهارون، جاء بنتيجة، ونالت حيلته من نفوسهم؛ لذلك يُردِّدون نفس كلام المعلم الكبير فرعون، فيتهمون موسى وهارون بالسحر.

لا يستطيع الطاغية البقاء لفترات طويلة، إلا إذا قام بعمليات تزييف لوعي المستعبَدين، وإعادة تشكيل هذا الوعي ليقبل منظومة الاستبداد، دون أن يحتاج إلى الإفراط في استخدام القمع الأمني، الدي ربما يكلفه ثمناً سياسياً أو اجتماعياً كبيراً. ومن ثم تُشكل أجهزة الإعلام الجناح الآخر لبقاء الطاغية، وبخاصة في المجتمعات التي لا تملك عقلية نقدية تزن بها الأمور، فيقوم الإعلام الموجه بدور كبير في تسهيل عمليات الإيحاء والاستلاب والاستهواء لأفراد تلك المجتمعات .

كأن الإعلام هنا يقوم بالدور الذي قام به من قبل سحرة فرعون، فهم يسحرون أعين الناس، ويزيفون وعيهم، ويحتلون إدراكهم، ويوجهونه لخدمة مصالح الطاغية، الذي يستغل أدواته المؤثرة في صياغة الرأي العام، وصناعته، والتأثير في خياراته وتوجهاته، من خلال الإلحاح والتزييف، وتسليط الأضواء على أشياء بعينها، وإطفاء الأضواء في مناطق ومساحات أخرى، بهدف خلق الصورة المطلوبة لتزييف الوعي وتوجيه الإرادة. ولا ينجو من هذا التأثير إلا قلة من الذين يحتفظون بقدرتهم على الرؤية من خارج إطار القطيع، ولديهم القدرة على الاحتفاظ بإدراكهم دون تلوث أو تشويه أو تزييف.

لقد أصبح الإعلام المسموع، والإعلام المرئي، والإعلام الإلكتروني، من أهم القنوات قوة في التأثير على الرأي العام، والتفنن في التوجه لمختلف عناصر المجتمع، وفئاته. الأول، لأنه يصل إلى جميع الفئات. والثاني، لأنه أكثر قوة وفاعلية في إحداث التغيير، وجذب المشاهد. والثالث، لأن المشاهد أو القارئ ينجذب إليه باختياره. واستطاعت هذه القنوات أن تقتل الوعي النقدي في المشاهد؛ ليصبح في حالة تلقٍ سلبي لكل ما يراه أو يقرأه، فتتكون لديه عادة الاكتفاء بالمشاهدة أو القراءة السطحية، وفي أقصى تقدير: التحسر على ما يحدث، والدعاء على من يفعلون، والغضب ممن يسكتون.

فعندما يكون الحدث إسلامياً – مثلاً -، يقوم الإعلام المضاد بما يلي:

- التهوين من شأن الحدث.
- قطع الصلة بين أفراد الحدث والواقع الاجتماعي.
- إعلان أنهم ليسوا على شيء.
- المزايدة على أصحاب الدعوة.
- خلط أوراق جميع التيارات والحركات الإسلامية في سلة واحدة.
- التهجم على رموز ورجالات الدعوة، وأحياناً التهجم على ثوابت الإسلام.

- الاستهزاء والسخرية من الفكر الإسلامي، واتهامه بالرجعية والتخلف.
- التعمد على عدم التفرقة بين الحركات الرافضة للعنف، والحركات الداعمة له.
- اتخاذها فرصة لإثارة الأحقاد، وإشعال نار الفتن، بين الجماعات الإسلامية.
- تسويق أفكار مسمومة، وهدامة، مدعومة بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، عن طريق علماء محسوبين على السلطة الحاكمة، بها يبررون اضطهاد الطاغية، ويدعمون حكمه.

-13 إحداث صراعات وفتن بين علماء السلطة ودعاة الإصلاح:

قوله تعالى: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:٦٣].

والطريقة: السُنة والعادة، شبهت بالطريق الذي يسير فيه السائر، بجامع الملازمة... وأرادوا من هذا إثارة حميّة بعضهم غيرة على عوائدهم، فإن لكل أمة غيرة على عوائدها وشرائعها وأخلاقها. ولذا، فرعوا على ذلك أمرهم، بأن يجمعوا حيلهم، وكل ما في وسعهم أن يغلبوا به موسى .

-14 محاولة السيطرة على الانتماءات العقائدية:

قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١].

فمع الخيبة التي مُنِي بها، ما يزال يتمسك بفرعونيته، وألوهيته، ويهرب من الاستخزاء الذي حاق به، يريد أن يعطي للقوم صورة المتماسك الذي لم تُؤثّر فيه هذه الأحداث، فقال: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْءَاذَنَ لَكُمْ﴾، فأنا كبيركم الذي علّمكم السحر، وكان عليكم أنْ تحترموا أستاذيته، وقد كنت سآذنُ لكم.

-15 الاستكبار:

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ﴾ [القصص:٣٩].

أي: تكبروا دون حق، وبغير مبررات للكِبْر، فليس لديهم هذه المبررات؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمَته ذاتية فيه، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير، فلا تتكبر بها، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه. والمتكبّر في الحقيقة ناقصُ الإيمان؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير حق.

16- العلو في الأرض:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٤].

في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها. وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله: علا في الأرض، لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر.

ومعنى العلو هنا: الكبر، وهو المذموم من العلو المعنوي. ومعناه: أن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره، ليس يساويه أحد. فالعلو مستعار لمعنى التفوق على غيره، غير محقوق لحقّ من دين، أو شريعة، أو رعي حقوق المخلوقات معه. فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح، وتجنب فساد وضر، وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته، وإرضاء هواه. وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهاً، وأنه ابن الشمس .

17- إضعاف المعارضة:

قوله تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص:٤.[

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية ﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وتكبر وتجبر، وجعل أهل مصر شيعاً، كل طائفة في شأن من شئونه. ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم، وأبيهم يعقوب، ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد، وإنكار ألوهية فرعون، والوثنية الفرعونية، جميعاً.

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطراً على عرشه، وملكه، من وجود هذه الطائفة في مصر، ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها، وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف، فقد يصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة، التي لا تعبده، ولا تعتقد بألوهيته، تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال، واستذلالهم، وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب. وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم، عند ولادتهم، واستبقاء الإناث، كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم. وبذلك تضعف قوتهم، بنقص عدد الذكور، وزيادة عدد الإناث، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب.

18- الإبادة الجماعية:

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص:٤].

وروي أنه وكّل بالحوامل من نسائهم، قوابل مولّدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل، ليبادر بذبح الذكور، فور ولادتهم، حسب خطته الجهنمية الخبيثة، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء، لا ذنب لهم ولا خطيئة. (في ظلال القرآن: (٢٦٧٧/٥).

إنه الطغيان في كل مكان وفي كل زمان. لا فرق بين وسائله اليوم، ووسائله قبل عشرات القرون والأعوام!..

والقوي حين يملك القدرة على الضعيف، لا يشد الخناق عليه شدًّا ليفتك به؛ لأنه يعرف ضعفه، ويستطيع أن يناله في أي وقت. لكن لو كان الخصم أمامك قويًّا، فأنت ترهبه بالقوة، حتى يخضع لك. وهنا يقول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون، وغالبون، ولن يستطيع قوم موسى أن يفلتوا منهم. ويؤكد فرعون: سنقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم؛ لأن الأبناء هم العدة، والنساء عادة شأنهن مبني على الحجاب، وعلى الستر، وفي إبقاء المرأة، وقتل الرجل، إذلال للرجال؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء .

-19 الفساد في الأرض باسم الحرية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

الفساد سوس الحضارات، وداؤها، وأنها الهالكة، والقاصمة. وأنها لم تكن في أمة إلا وسار بها إلى الهاوية، لأن من ثمارها الاستبداد والاستعباد، وفي هجيرهما "تتحول الحرية من نعمة لكل الناس إلى حِكر على فرد، تحيط به عصابة.. وتتحول الكرامة من أعز ما يعتز به الإنسان، إلى منحة من الطاغية للمستعبَدين.. ويضيع الأمن؛ ليقض الخوف مضجع كل فرد وأسرة، ويمارس زبانية الطاغية قتل الإنسان: بالتجويع تارة، ويمنعه من ممارسة حريته الفكرية تارة أخرى"..

فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة:

المفسدة الأولى: التكبر والتجبر، فإنه مفسدة نفسية عظيمة، تتولد منها مفاسد جمة؛ من احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم، وسوء معاشرتهم، وبث عداوته فيهم، وسوء ظنه بهم، وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل، سوى ما يرضي شهوته وغضبه. فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم، وراعيهم، كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم، والاجتراء على دحض حقوقهم، وأن يرمقهم بعين الاحتقار، فلا يعبأ بجلب الصالح لهم، ودفع الضر عنهم، وأن يبتز منافعهم لنفسه، ويسخّر من استطاع منهم لخدمة أغراضه، وأن لا يلين لهم في سياسة، فيعاملهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته. فهذه

الصفة هي أم المفاسد، وجماعها، ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها، ثم أعقبت بأنه كان من المفسدين.

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيعاً، وفرّقهم أقساماً، وجعل منهم شيعاً مقربين منه، ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك، وذلك فساد في الأمة، لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده، متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم، بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة، فيحلوا محل الآخرين. وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض، فيكون بعضهم لبعض فتنة.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته، فيجعلها محقرة، مهضومة الجانب، لا مساواة بينها وبين فرق أخرى، ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين إن لها من الحق في الأرض ما لغيرها، لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها.

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم، أي: يأمر بذبحهم.

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي: يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل، إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء، فتصلحن لما تصلح له النساء، وهو أن يصرن بغايا، إذ ليس لهن أزواج.

-20 التسرع بتنفيذ إعدامات بمحاكمات هزلية:

الطاغية عندما يحاصر بالحق والحقيقة، يقوم بارتكاب المجازر باسم حماية أمن الدولة، وتصدر محاكمه أحكام القتل والإعدام، جزافاً، بجلسة أو جلستين، أو حتى من دون محاكمة، بتهم مصطنعة، من دون السماح حتى بحقّ الدفاع عن أنفسهم، ويعطون لأنفسهم الحق في التعدي على شريعة الله، باسم مكافحة الإرهاب، لحشد التأييد الدولي.

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه:٤٥].

والفرط، هو: التسرّع بالأذى للوهلة الأولى. والطغيان أشمل من التسرع، وأشمل من الأذى. وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرج من أحدهما، أو كليهما.

ويفرط معناه: يعجل ويسبق. يقال: فرط، يفرط، من باب: نصر. والفارط: الذي يسبق الواردة إلى الحوض للشرب. والمعنى: نخاف أن يعجل بعقابنا بالقتل، أو غيره من العقوبات، قبل أن نبلغه ونحجه.

والطغيان: التظاهر بالتكبر. أي نخاف أن يخامره كبره، فيعد ذكرنا إلهاً دونه، تنقيصاً له، وطعناً في دعواه الإلهية، فيطغى، أي: يصدر منه ما هو أثر الكبر، من التحقير والإهانة. فذكر الطغيان بعد الفرط، إشارة إلى أنهما لا يطيقان ذلك.

فالمعنى إذن: ﴿يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ [طه:٤٥] يتجاوز الحدّ، وربما عاجلنا بالقتل، قبل أن نقول شيئاً، فيسبق قتلُه لنا، كلامنا له.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يطغى﴾ [طه:٤٥] فلا يكتفي بقتلنا، بل ويخوض في حَقِّ ربنا، أو يقول كلاماً لا يليق، كما سبق له أن ادَّعى الألوهية.

-21 الاستهزاء والسخرية من المنادين بالإصلاح:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف:٤٦-٤٧].

﴿إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ﴾.. شأن الجهال المتعالين! والضحك: كناية عن الاستخفاف بالآيات والتكذيب..

-22 السيطرة على الثروات، ومقدرات الأمة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١].

نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في ناديه، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس. ومعنى هذه الحجة، التي نادى بها، أنه أراد أن يبين فضله على موسى، إذ هو ملك مصر، وصاحب الأنهار والنعم، وموسى خامل، متقلل، لا دنيا له، قال: فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم، لما ترك الأمر هكذا .

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعلياً بباطله، قد غرّه ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: ألَستُ المالك لذلك، المتصرف فيه؟ ﴿وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين. ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض. وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

إن ملك مصر، وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه.. والجماهير المستعبدة المستغفلة يغريها البريق

الخادع القريب من عيونها، ولا تسمو قلوبها، ولا عقولها، إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد.

-23 التنادي بالخيرية، وإهانة الآخرين:

إهانة المعارضين، والتقليل من شأنهم، واحتقارهم، والاستهزاء بهم، شأن يمارسه الطغاة للستر على عيوبهم، والتغني بهذه العيوب، وإظهارها للملأ على أنها إنجازات، وهي في مصلحة الوطن والمواطن!!

وثم ينادون بالخيرية صباح مساء، كأنهم ملائكة معصومون من الخطأ، لذا لا بد أن يبجلون ويقدسون: بالتهديد والقتل؛ أو بالترغيب والترهيب؛ أو بالتزوير والغش؛ أو بالخداع والسرقة؛ أو بالنصب والاحتيال؛ أو.. لأنهم أصحاب الشرف العالي..

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢].

﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجمرة، وذلك أنها كانت أحدثت في لسانه عقدة، فلما دعا في أن تحل ليفقه قوله، أجيبت دعوته، لكنه بقي أثر كان البيان يقع منه، لكن فرعون عيّره به. وقوله: ﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ يقتضي أنه كان يبين .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكاً، ولا أميراً، ولا صاحب سطوة ومال مشهود. أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين؛ شعب إسرائيل. أما قوله: ﴿وَلا يَكادُ يُبِينُ﴾ فهو استغلال لما كان معروفاً عن موسى، قبل خروجه من مصر، من حبسة اللسان.. وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون، الذي له ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحته، خيراً من موسى- عليه السّلام- ومعه كلمة الحق، ومقام النبوة، ودعوة النجاة من العذاب الأليم.

ومقصوده: تصغير شأن موسى في نفوسهم، بأشياء هي عوارض ليست مؤثرة، فانتقل من تعظيم شأن نفسه، إلى إظهار البون بينه وبين موسى، الذي جاء يحقر دينه، وعبادة قومه إياه، فقال: أنا خير من هذا. والإشارة هنا للتحقير.. أراد أنه غريب ليس من أهل بيوت الشرف في مصر، وليس له أهل يعتز بهم.

-24 التمجّد بالبريق الخادع:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣].

والإلقاء: الرمي، وهو مستعمل هنا في الإنزال، أي: هلا ألقي عليه من السماء أساورة من ذهب، أي: سوّره الرب بها ليجعله ملكاً على الأمة.

والسوار: حلقة عريضة من ذهب، أو فضة، تحيط بالرسغ.. وقد كان من شعار الفراعنة لبس سوارين، أو أسورة، من ذهب، وربما جعلوا سوارين على الرسغين، وآخرين على العضدين. فلما تخيل فرعون أن رتبة الرسالة مثل الملك، حسب افتقادها أمارة على انتفاء الرسالة.. فإن لم تلق عليه أساورة من ذهب، فلتجيء معه طوائف من الملائكة شاهدين له بالرسالة.

والمعنى: هلا ضم إليه الملائكة، التي يزعم أنها عند ربه، حتى يتكثر بهم، ويصرفهم على أمره ونهيه، فيكون ذلك أهيب في القلوب. فأوهم قومه أن رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد❐

الهوامش:

- فقه النصر والتمكين، الصلابي: (ص٤٧٧)، بتصرف، دار ابن كثير.
- في ظلال القرآن: (٥/٢٧١٩-٢٧٢٠).
- التحرير والتنوير: (١٧/٣٤).
- لسان العرب: (١٠/١٤٧)؛ تاج الصحاح: (٤/١٤٩٣).
- أحكام القرآن: (١١/٢٧٧).
- لسان العرب: (٨/٤٢٥).
- في ظلال القرآن: (٥/٢٩١٤-٢٩١٥).
- في ظلال القرآن: (٤/٢٢٤٧-٢٢٤٨).
- الخواطر: (١٤/٨٧٠٨-٨٧٠٩).
- التحرير والتنوير: (١٥/١٨٨).
- في ظلال القرآن: (٤/٢٣٧٢).
- الخواطر: (١٥/٩٥٠٢- ٩٥٠٤).
- الخواطر: (١٥/٩٥٠٢- ٩٥٠٤).

مرافئ

حلبجة.. جراحات لم تندمل

د.يحيى عمر ريشاوي

تعود بي ذاكرة الحزن والمآسي في وطني إلى ما قبل ثلاثين سنة، حين أغارت طائرات بلدي! على مدينتي (حلبجة)، وذلك على مرأى ومسمع من العالم المتحضر والصامت!! فقبل ٣٠ سنة أفاق العالم على وقع خبر جريمة إنسانية مروعة، حين أضاف النظام البعثي إلى سجل جرائمه المتكررة في الإبادة والتقتيل والتهجير جريمة أخرى، لا بحق عدوه إيران، ولا بحق غريمته إسرائيل - والتي قصفت العاصمة بغداد في وضح النهار - ولا بحق الدول التي أوقعته في فخ حرب دامت لأكثر من ثمان سنوات! وإنما بحق مواطنين ضحايا، مسالمين، جريمتهم الوحيدة: هويتهم الكوردية والإسلامية.

ويبدو أن حظ هذه المدينة المنكوبة من الظلم والتهميش لم ينته بزوال النظام البعثي، فلم تمض سوى خمس سنوات حتى تكررت مأساة الاقتتال الداخلي من قبل الأخوة الأعداء! فكان نصيب هذه المدينة مرة أخرى القصف والدمار والحصار والتهجير، والتي لا تزال آثارها شاخصة حتى هذه اللحظة! وصدور قرار تحويل هذه المدينة إلى محافظة رابعة في الإقليم (في الوقت الضائع) لم يشف جراحاتها، وزائر حلبجة اليوم في (٢٠١٨/٣/١٦) لا يحس بأي معلم من معالم محافظة حقيقية بمعنى الكلمة.

وربما تدني نسب مشاركة مواطني حلبجة عاماً بعد عام في المناسبة السنوية التي تقام لهذه الذكرى الأليمة، دليل واضح على هذا الإحساس بالتهميش. وحين تخاطب الساكنين في هذه المدينة، يسردون لك قائمة طويلة بالقرارات المؤلمة والمهمشة – بكسر الميم- لمطالبهم وحقوقهم الطبيعية، ولسان حالهم يقول: وظلم ذوي القربى أشد مضاضة من وقع الحسام المهند !

والأشد من هذه وتلك، وبالرغم من أن حكومة بغداد لا تريد حتى الآن التعامل مع هذه المدينة كمحافظة رقم (١٩) في العراق، ولم تخصص ميزانيات للتعويض والإعمار، و(حلبجة) ليست مسجلة في المفوضية العليا المستقلة للانتخابات كمحافظة مستقلة، وغيرها من قرارات الغبن والتهميش، تجد المسؤولين العراقين يتقاطرون على هذه المدينة في (٣/١٦)، ويعتلون المنابر، ويتنافسون في توجيه الكلمات، والخطابات المنمقة، والتي إن لم تزد من وطأة الحالة النفسية لأهالي هذه المدينة، فإنها لا تغني ولا تسمن من جوع، ومن تهميش!

يكفي قارئ هذه الكلمات زيارة واحدة لهذه المدينة المنكوبة، بمعنى الكلمة، حتى يرى بأم عينيه هذه الصورة المفرطة في التشاؤم، والتي تؤكد - بحق - أن جراحات هذه المدينة لم تندمل، ولا أمل بأن تندمل في المدى القريب، وحسبنا الله ونعم الوكيل❐

ثقافة

- الهاربون دائماً ..	أحمد الزاويتي
- إلى أين تأخذنا أيها الشاعر؟	منير خلف

الهاربون دائماً..

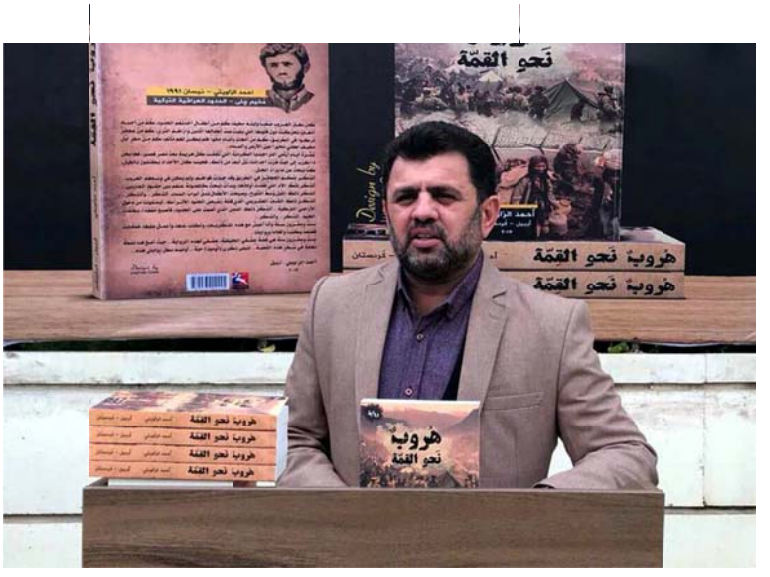

أحمد الزاويتي

✍ليس كل هروب هزيمة!!.. هكذا كان هروبنا المليوني ربيع عام ١٩٩١ نصراً جلب للكورد من المكتسبات ما لم تجلبه ثورات وانتفاضات.. أجمع عليه الكورد، فهربوا، بمختلف طبقاتهم، وأفكارهم، وأحزابهم، شعباً ومسؤولين، فقراء وأغنياء..

لأول مرة يجتمع الكورد على كلمة سواء بينهم؛ الهروب نحو المجهول، مهما كانت النتيجة!

هزّ ذلك ضمير العالم، ليجتمع (مجلس الأمن الدولي) - لأول مرة - بحق الكورد، فيقرر في الخامس من نيسان من عام ١٩٩١ القرار ٦٨٨، لتكون نتيجته كيان كوردي معترف به، وهو ما نسميه حالياً بإقليم كوردستان العراق.

لم يستطع الجيش العراقي اجتياح ذلك الكيان، وإلغائه! فحتى (صدام حسين) عندما دخل عام ١٩٩٦ بهيله وهيلمانه (أربيل)، انسحب منها – فوراً - بطلب أمريكي.. وعندما جاء (حيدر العبادي) منتصراً من حرب (داعش)، ليجتاح إقليم كوردستان، وقف عند الحدود التي حددها القرار ٦٨٨، ولم يأخذ غير المناطق التي هي خارج تلك الحدود، في اليوم الأسود؛ السادس عشر من اوكتوبر عام ٢٠١٧.. هذا ما قصدته بالتحديد (هروبٌ نحو القمة)، كعنوان لروايتي التي صَدرت أواخر عامنا الماضي ٢٠١٧.

القصة:

الرواية هي قصة (أوميد)، في الخامس والعشرين من عمره، واسمه يعني الأمل – رمز التفاؤل بالمستقبل - يواجه مع عائلته المؤلفة من: زوجته (كانيك) (بمعنى: العين= النبع) – رمز العطاء -، وطفلاه: (بهيفان) (بمعنى: المعزّي) – رمز النكسات والمأساة - عمرها سنتان، و(سرهلدان) (بمعنى: الانتفاضة) – رمز الثورة والانتصارات - عمره أسبوعان..

يواجه (أوميد) مع عائلته الهروب واللجوء إلى الحدود التركية، ضمن الهجرة المليونية عام ١٩٩١، هرباً من تقدم الجيش العراقي نحو كوردستان، لسحق انتفاضة الكورد المندلعة في ٥ مارس آذار من عام ١٩٩١ وحتى الثلاثين من الشهر نفسه.

أخرج المنتفضون مؤسسات السلطة والجيش من مناطقهم، بعد خسارة الجيش العراقي معركة الكويت، وانسحابه منها، بداية عام ١٩٩١.. يعود الجيش ليعيد السيطرة على المحافظات الكوردية: دهوك، أربيل، والسليمانية.. فيهرب شعب بكامله، خشية أن تطاله أحداث سيئة الصيت وقعت لهم، كقصف حلبجة بالأسلحة الكيمياوية، وكذلك عمليات الأنفال (وهي أحداث مهولة، عاشها شعب كوردستان عام ١٩٨٨).. بعد عشرة أيام من السير على الأقدام، وفي ظروف مناخية قاسية، يموت طفلا أوميد: بهيفان وسرهلدان، وزوجته كانيك، فيَصِل هو وحده (مخيم جَلي)، الذي كان يتجه إليه غالبية اللاجئين.. هذا هو ملخص قصة تاريخ الكورد عندما يفقدون كل شيء؛ العطاء (كانيك)، والمآسي (بهيفان)، والانتصارات (سرهلدان)، لا يفقدون الأمل بالمستقبل (أوميد)..

الحدث

الرواية تعرض من خلال قصة هذه العائلة، الحدث الرئيس، وهو المأساة التي وقعت بسبب الهروب، إضافة إلى مقاطع مهمة من التاريخ الكوردي خلال المائة سنة الأخيرة، والمظالم التي تعرض لها هذا الشعب في كل من تركيا والعراق وإيران، في مناسبات مختلفة،

ذلك عندما يعود (أوميد)، بعد ست وعشرين سنة ليتعقب الطريق الذي هربوا فيه من مدينتهم في دهوك يوم ٣١ من مارس آذار ١٩٩١، ويستمر حتى ١٠ من نيسان/ابريل ١٩٩١، حتى يصلوا مخيم جَلي على الحدود التركية العراقية.

عودة (أوميد) لتعقب طريق الهروب هذا، هو ليوم واحد، في ٣١ مارس/ آذار من عام ٢٠١٧.. يمر فيه بسيارته حتى الحدود التركية، وأثناء مروره يستذكر تفاصيل الأحداث التي وقعت حينها، التي وقعت له، أو التي وقعت لغيره، وكان هو شاهداً عليها، أو التفاصيل التي سمعها من الناس، ليضمها الراوي في هذه الرواية.

المكان

إذن مكان الرواية الرئيس هو طريق الهروب من دهوك باتجاه الأراضي التركية، لكن في ثنايا ذلك تتداخل أماكن كثيرة أخرى، حيث يستغل الراوي روايته ليتذكر كل ما يرى له علاقة وبطريقة ما بأحداث الرواية، فيكون ذلك المكان جزءاً من أماكن الرواية. فكل رقعة كوردستان، التي تبدو للراوي أنها لا تنتهي، هي مكان للرواية: فإذ تنتهي الحدود العراقية لتبدأ حدود الدولة التركية؛ فإن كوردستان لا تنتهي ولا تبدأ، بل تتمدد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، هناك أينما تولّي وجهك فثمة كوردستان.

الزمان:

أما الزمان، فرغم أنه زمنين رئيسين:

– ٢٤ ساعة من يومي الحادي والثلاثين من مارس/ آذار، والأول من نيسان/ أبريل من عام ٢٠١٧، الزمن الذي يعود فيه (أوميد) بعد ست وعشرين سنة، ليتذكر تفاصيل هرويهم

– زمن الهروب الذي بدأ في الحادي والثلاثين من مارس/ آذار، واستمر حتى العاشر من أبريل نيسان، سنة ١٩٩١..

لكن هناك أزمنة أخرى مختلفة تدخل في الرواية، تمتد إلى مائة سنة، حيث يستغل الراوي الرواية ليأتي بأحداث مختلفة ومتشعبة لها علاقة - بطريقة من الطرق - بالحدث الرئيس الذي يحدث، وهو الهروب..

الأسلوب:

الرواية واقعية تاريخية، لكنها تمزج بين نظريتين:

– الرواية من كونها واقعاً مستمداً من الخيال..

– الرواية كخيال مستمد من الواقع..

حتى درجة أن كل ما يذكر الراوي من أحداث هي حقيقية ووقعت فعلاً، ومنها ينطلق الراوي ليطلق العنان للخيال، لتصنع العالم الخاص بالرواية.. الأحداث واقعية، وكذلك الشخصيات، لكن هناك مزج يحصل بين الأحداث وبين الشخصيات.. كمثال؛ فأوميد - مثلاً- يستخدمه الرواي ممثلاً عن كل الهاربين الذين تجاوزوا المليون في ذلك الحدث العظيم، في الوقت الذي أوميد هو شخص واحد.. لهذا يعطي الراوي الحرية لنفسه ليدخل في شخصية أوميد شخصيات كثيرة، ويمنحه أحداثاً حقيقية، أوسع بكثير من مدى الحدث الحقيقي الذي عاشه أوميد بنفسه في الهروب.

قصة كتابتي لهذه الرواية:

منذ ست وعشرين سنة أكتب في هذه الرواية! منذ زمن وقوع الحادثة ٣١/آذار/ ١٩٩١ إلى ١٠/نيسان/١٩٩١، وحتى عندما انتهيت منها في نوفمبر من العام الماضي ٢٠١٧.

كلما حاولت مراجعتها كنت أعيد صياغتها، كنت أكتب فصولاً دون أن أختمها، كنت أغيّر في الشخصيات، أجدّد فيها، أضيف وأنقص، حتى في شخصية البطل الرئيس (أوميد)،

بل حتى في عنوان الرواية.. وبقيت كل تلك المراحل التي تطورت فيها روايتي هذه محفوظة عندي؛ منذ مرحلتها الأولى، والتي كانت عبارة عن مذكرات بسيطة أكتبها كأحداث تقع أثناء هروبي كـ (أحمد الزاويتي) مع الهاربين، تلك المذكرات كتبتها على قصاصات ومسودات، ثم سردتها في دفاتر خاصة، هي ما أصبحت المادة الخام الرئيسة لهذه الرواية. ثم بدأت الخاطرة الأدبية، لتعمل عليها وتبنيها وتصنعها، وينطلق الخيال في ذلك العالم الخاص (المادة الخام).

بداية كنت أخرج قصصاً من ذلك الخام، ومن ثم تأتي مرحلة الرواية، التي بدأت بالتحديد عام ٢٠٠٠. ثم بدأت أراجعها كلما رأيت الفرصة إلى ذلك، بل كلما شدّني الشوق إليها، حتى خطر ببالي أن أجهزها للنشر بطابعها الحالي.

ما بعد الطبع:

لم أتوقع النجاح الذي حققته الرواية في هذا الوقت القصير، وهو ٤ أشهر بعد طبعها، حيث تفاعلت معها المؤسسات الأدبية في كوردستان العراق.. فألقيت حولها وعنها ثلاث مؤتمرات في (اتحاد الكتاب الكورد) في كل من دهوك وأربيل، إضافة إلى مؤتمر في (جامعة سوران).. وعُرض عليّ، من قبل أطراف مختلفة، للقيام بترجمة الرواية للغات الكوردية والتركية والإنكليزية، وكذلك طبعة ثانية خاصة لمصر والدول العربية، من قبل مركز القاهرة للدراسات الكوردية، وكذلك عرض عليّ تحويلها لفلم سينمائي. كل ذلك لا يزال البحث فيه مستمراً.

الهدف من الرواية:

توثيق ذلك الحدث التاريخي العظيم، أدبياً وعربياً.. فالرواية توثيق، مثلما هي أدب، خاصة إذا كانت تاريخية واقعية كروايتي هذه. وفي ذلك أهمية كبيرة من كونها حاجة كوردية عربية مشتركة؛ ففي الوقت الذي لم يستطع الجانب الكوردي إيصال قضيته الى الجمهور العربي، لا كسلطة، ولا كسياسيين، ولا أحزاب، تأتي هذه الرواية لتوصل هذه القضية، بهدوء الكتاب المعهود، للقارئ العربي؛ الذي سيعرف - من خلال هذا الكتاب - مرحلة تاريخية مهمة لهذا الشعب، وجزءاً مما وصل إليه الأدب الكوردي المصاغ عربياً❐

إلى أين تـأخذنا أيها الشاعـر ؟

منير خلف*

✍الشعرُ غذاءُ القلبِ الذي لا يمكن من دونـه أن ينـبض، وهـو هـواء الـروح الـذي لا بديل عن تجليات نسائمه الزّرقِ لمواصلة طريق الحياة. إنـه الـوردة التـي تأخـذنا بصـوت رحيقها إلى عوالم الكشف، وجبْر ما تكسّر مـن فخّـار أمنياتنـا. إنـه النـداء الطويـل الممتـدّ امتدادَ البصر، واتساعَ رقعة الحزن، وهـو الحـارس الوحيـد لأرض أحلامنـا، وجغرافيـة دمنـا المهدور .

هو الذي يجعلك تشعرُ أنّ رؤوسَ أصابع يـديك تنـزفُ طيـوراً مـن ضـوءٍ أخضـرَ.. وأن المطر لا يهطلُ إلا ليكون بديلاً عن قطراتِ رُطبٍ من قمرٍ تنتظره قلوبٌ عاشقةٌ، وأيادٍ مـن غمام.

ولأنه الشعر، الـذي لا يمكـن إلا أن يكـون شـعراً، حاولـتُ أن أصـغيَ إلى صـوت قلبـي، وأستفتيَهُ عن ضرورة النهوض بهذا الكائن الذي سمّتْهُ اللغةُ: شين الشهد، وعين العين، وراء حربٍ، أبت إلا أن تعترضَ بين حاء حنون، وباء غريب، فلم يخذلني وهو يومئ إلى الشعراء، الذين ربما أكون واحداً من جلدة سلالتهم، وبصمة حريقهم المستمرّ. ولا أبرّئ نفسـي مـن سوءتها الأمارة بالألم، حين يأخذنا الحرف إلى ما لا انتماء لحاسته المتجهـة صـوب أرض غـير ذي قلقٍ، فرأيتُني أصرخُ ربّما على غيرِ عـادةِ مَـنْ آثـرَ الاحتفـاءَ بمـا اسـتُهلك مـن مألوفـات المعاني وزخرف الكلام، وألفيتُني قاصداً جوارَ الآخر المقابلِ لقابض جمرة الشعر.. إلى قـارئ لا يمكـن للشـاعر مـن دونـه إلا أن يلغـيَ نفسـه وحقيقـة وجـوده، كونـه المـتمِّمَ الـرّئيسَ لاستمرارية عَلَقَـةِ فعله الإبداعي، المزيّن لعملية إجهاض تاء التأنيـث، حـين تعـثُّرِ صاحبـِها

على باب القصيدة، ولكي يكون للشعر مستقبلٌ، وكي يصبح كالرغيف السّاخن الذي تتلقّفه الأيدي، ويصيرَ كخبرٍ عاجل يُنعشُ الروحَ، لا بد للشاعر أن يُحسّن أثاث غرفته، وأن ينهض بكلماته بعيداً عن الرتابة والتكرار والجمود.

فعندما يدعوك إلى غرفة حالته الشعرية، التي كاد أغلب شعرائنا أن يفقدوها، أو فقدوا سند تمليكها، لأن جيوب أرواحهم باتت متخمة بالإفلاس.. عندما يدعوك إلى غرفته المنشودة، التي زخرف فيها نقوش قصيدته المعلنة، وأشهر في أرجائها دفء الكلمات، وحميمية صورها الطازجة، وتفاعلها، وتناغمها مع الفكرة التي كانت سبباً في إطلاق عصافير المعنى من قفص التقليد، وتحليقها في فضاء الغرفة الجديدة.. الغرفة التي تنعشك، وتنسى أنك في زمان ومكان محددين.. عندما يقدّم لك صاحب البيت الشرعي، والشعري، ما لذّ من فكر، وطاب من روح.. عندما يمنحك مفاتيحه المسحورة، التي كتب بها قصيدته، وهي بين أنامل شهيتك، ولا تطيق انتظار التهامها بالحواس التي لم تعهد أن تستعملها من قبل، ليس لأنك لم تكن تمتلكها، وإنما لكونها يائسة وغافلة عن شجونها، وهي الراقدة أبداً في هشيم الذات، وبئرها المعطلة.. عندما يمنحك تلك المفاتيح النادرة، كي تفتحَ بها أبواباً لم يطرقها قلبك، وتحلّقَ في فضاءات لم يكن بإمكانك أن تكتشفها لولاها، واعلم أن من مهام الشعر العظيمة أن ينهض بأسرار أعماقك، وأن يأخذ بيدك إلى حيث لم تذهب قط، فكيف لا يكون ضرورياً ؟؟ وكيف لا يكون له مستقبل؟؟

عندما يهبك كروم قلبه.. ونبضاتِ جرحه.. ويكون حارساً على شرودك عنه، وعن معارج قصيدته الحافلة بموائدَ لم تخطر على قلب قارئ، ولم تمتدّ إليها يدُ عابرٍ، وهو يبحث عن غزال المعنى في كِناسِ الفكرة المستنفرة..

عندما يفرش أمامك نكسته مع الحياة.. نكسته المفجعة، التي تؤرّخ غموضاً غير مقصودٍ في تضاريس الألم، وتهدي بعضَ الضالين إلى مشارب الإبداع، وقواريرها، التي من خضرةٍ وطيور ماء، وحولها يواقيتُ من حبقٍ وجلّنار .

عندما تشعر أنك لا تحارب ظلك.. ولا تقتفي أنهار عزلتك.. عندما تخرج من نفسكَ لتقف أمامها، أو لتتصفّحها أمامكَ.. عندما تنبسُ روحكَ بما لم تكن قادراً على جلبه من ذاتكَ، أو ذاتها، أو غافلاً عنهما.

عندما تحلّق معه بجناحيه.. ويؤرّخ لحظتكَ المشرقةَ.. ويحدّدُ وجهتكَ التي لا تنتمي إلى أية جهة ألْفَتَها من قبل، ولم تشمّ في ربوعها عبق الحياة وياسميناتها.

عندما يُبعدكَ عنكَ ليقرّبَكَ منك.. كي تصل إلى أسوار حكمتـه، وفواجـعَ لم تجرّبهـا بعـد خيولٌ محنتك.

عندما يسحبك من حرير قلبكَ.. ويغطي بـردك العنيـد.. وأنـت تجفّـف ثيـابَ روحـك، وتلمّ شتاتك، تدفّئ أوصالك في حضرة قصيدته التي من نارٍ وهناء.. في قرّ شتاء لا مثيل له في قسوة غربة الشعر عن الشاعر، ونضارة الكلمات وهي تفـرّ مـن تـابوت القـواميس.. في حضرة قصيدته تنسى أنك أنتَ.. تقرأ روحـك في عينيـه.. وتنظـر بنبراتـه إلى أفـقٍ يسـوّرك بأنفاسه.. ويعالج سقمكَ بمداد صوته .

ومن غير رقيب لم يطلقْ حرّاسُ سمعكِ أية طلقة نحـو كلماتـه، كونهـا نابعـة مـن بـين رياحين قلبه.. فأفسحتَ المكان لتدخل القصيدة ـ العروسُ ـ بكامل بهائها وأنوثتها.. بكامل تجلّياتها.. وبكل ما فيها.. لتدخل إلى مملكة قلبك.. ولتحلّ على عرشه.. كي تسودَ أنتَ .

تأشيرةُ دخولها إلى بلاد قلبك، كانت بصماتِ حزنه.. ونواح روحه.. ودموع قلبه.. كانت صدق حروفه، واحتراق فؤاده.. كانت دماء معانيه، وأيائل أفكاره.. كانـت أزاهـير إيقاعـه.. ومطر خيباته.. وكانت خصوبة الحياة.. ويباسَ أبنائها الطويلَ، وقسـاوة قلـوبهم... كانـت.. وكانت .. وكانت مرآتك .

تدخل القصيدة إلى قلبك، لتسبح أنتَ في فلكها.. لأن صاحبها أنتَ، ولأنك لم تكن سواه.

فيا أيها الكريـم !.. يا أيها الشاعر ـ **الشاعر** ـ أفضْ علينا بركاتِ حزنـك، ونعـيمَ بكائـك.. أدخلنا إلى محراب عطرك.. وبارك لنا مقامنا بين كشـوفات أسرارك، وسـحر كلماتـك، ليصـير الشعر حاجة كالماء والهواء، ولا نخشى على انقراضه، كما نخشى على كل شيء جميل .

إن كنتَ أنت، فلا تجرح ثقافتنا.. ولا تشوّه ملامح معرفتنا نحـن ـ المـاكثين ـ عـلى شـفا هاوية من عدم وهباء.

لا تدعْنـا خارج غرفتك.. خارجَ فهمنا لكَ.. أو حبّك لنا، حتى لا نتجمّد.. ولا نتحـوّل إلى هياكلَ من صقيع التقليد، ولئلا نموتَ عطشاً، ونحن نمدّ أيدينَـا أمام صـدأ التكـرار وأصـنام الغموض.

كن معنا، ولا تكن علينا، ليظلَّ ذلـك النسـغُ في المسـتقبل البعيـد، زادَنـا الكامـلَ الـذي نواجهُ به تصحُّرَ العالم❐

* شاعر وأديب كوردي سوري. مواليد ١٩٧٠، الحسكة.

قراءة في كتاب

- حماة الأيوبية: دراسة سياسية حضارية	د.عماد الدين خليل
- كتـــاب دار الاعتماد البريطانية وتكوين الحكم الوطني في العراق	عبدالرزاق الحمداني
- قراءة في كتاب التعليم الديني بين التجديد والتجميد	د. مصطفى عطية

حماة الأيوبية:

دراسة سياسية حضارية

٥٧٠ -٧٤٢ هـ / ١١٧٤- ١٣٤١م

للدكتور علي نجم عيسى

أ.د. عمادالدين خليل

تغطي مرحلة الحروب الصليبية قرنين من الزمن، وتمتد في المكان لكي تشمل الجزيرة الفراتية، والشام، وفلسطين، ومصر.. وقد أتاح لها هذا الامتداد في الزمن والمكان،

أن تنطوي على خبرات خصبة في السلب والإيجاب، وعلى المستويات كافة: عسكرية وسياسية واجتماعية وحضارية.

وقد ترك هذا كله الباب مفتوحاً لعشرات من الموضوعات التي يتناول الواحد منها هذه الحلقة أو تلك، فيما أتاح للباحثين، وطلبة الدراسات العليا، فرصاً واسعة لاختيار الموضوعات البكر والمناسبة.

وهكذا راحت المكتبة التاريخية تشهد دفقاً لا ينضب من البحوث والدراسات والمؤلفات ورسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه، وكلّها تمتح من هذه البئر السخية، التي لم ينضب أو يشح ماؤها يوماً.

وتأتي رسالة الأخ الدكتور (علي نجم عيسى)، التي بين أيدينا ، والتي حصل بها على الماجستير في التاريخ الإسلامي، لكي تضيف جهداً قيّماً آخر، إلى ما يمكن تسميته باطمئنان (مكتبة الحروب الصليبية)، فضلاً عن كونها تنتمي إلى ما اصطلح عليه المؤرخون بـ (تاريخ المدن)، أو (التاريخ المحلّي)، وبذلك تضيف رصيداً طيباً للسياقين معاً.

وتواريخ (المدن) و(الإمارات المحلية)، عرفها مؤرخونا منذ عهود مبكرة، في مجال الكتابة التاريخية. وقد نشأت أول ما نشأت - كما يؤكد دارسو نشأة علم التاريخ عند المسلمين - بدافع من النقاش المستمر الذي شهدته مدن العالم الإسلامي، ضمن إطار الدولة الواحدة، حيث أخذ المؤرخون يعدّدون ويستعرضون، كلّ مناقب ومزايا المدينة التي عاش فيها، ونهل من معارفها، وراح المثقف المسلم يقرأ عن مناقب بغداد، أو البصرة، أو الكوفة، أو دمشق.. وهكذا.. ورغم بعض المبالغات التي مارسها أولئك المؤرخون في كتاباتهم، فقد جاءت تواريخهم تلك معبّرة عن مدى الحيوية والمرونة التي تميزت بها الحياة الإسلامية، ومدى التنافس الإيجابي الذي كان يشحذ عقول الناس إلى مزيد من العطاء والإنتاج والتطور. هذا فضلاً عن أن تلك التواريخ قدمت لنا مصادر على درجة كبيرة من الأهمية للمؤرخ الحديث، لما تضمنته من جزئيات وتفاصيل وجوانب حضارية لا يمكن بحال أن نعثر على عشر معشارها في التواريخ العامة الشاملة.

وفي المرحلة التالية، عندما ضعف مركز الدولة، وأخذت المدن والأقاليم تنفصل وتحصل على استقلال كامل أو جزئي، في سياستها وإدارتها، ازدادت تلك التواريخ المحلية عدداً وخصباً، وازداد التنافس بين مؤرخي كل بلد عمقاً، وأخذت تنثال المصنفات الخاصة بمدن وأقاليم وإمارات تنتشر على أراضٍ شاسعة، تحدّها من الشرق بلاد الصين، ومن الغرب بحر الظلمات. وما هذه التصانيف في الحقيقة إلاّ صورة من صور (الإيجابية)، التي تميّزت بها ظاهرة التنوع التي رافقت نشوء الإمارات والدويلات الإسلامية.. فلو أن كل

مؤرخ حرص على تدوين تاريخ مدينته، أو الإمارة التي يعيش فيها، لغطّت تصانيفهم معظم مساحات تاريخنا، ولوجد الباحث المعاصر أمام عينيه سيلاً من المصادر التي تضمّ الكثير الكثير، مما لا يمكن أن يعثر عليه في التواريخ العامة. فلا ريب أن الذي يكتب عن مساحة مكانية وزمانية محددة، يرتبط بها بأكثر من رباط، يكون أكثر قدرة على الإلمام بالتفاصيل والجزئيات، من ذلك الذي يكتب عن تواريخ لا يحدّها مكان أو زمن محدود.

ونحن - إذا نظرنا فقط إلى التواريخ المحلية، في الفترة التي تقع هذه الرسالة في دائرتها - لطالعتنا أسماء مؤلفات عديدة لابن الأثير، والفارقي، وابن العديم، والأربيلي، وابن واصل، والبنداري، والعماد الأصفهاني، وأبي شامة، وابن قاضي شهبة، وابن تغري بردي، والمقريزي، والحنبلي، والدواداري، والسخاوي، وابن الشحنة، وابن شداد، وابن القلانسي، وابن المستوفي، والأزدي.. وغيرهم.

وليس لباحث أن ينكر ما في بعض هذه التواريخ من (إقليمية)، نجد ملامحها السيئة واضحة في مظاهر المبالغة، والتحيّز، وعدم التزام الموضوعية. لكن الفوائد التي جناها، ويجنيها، البحث التاريخي، من هذه المؤلفات، تطغى – ولا شك - على مآخذ كهذه، يمكن للمؤرخ المعاصر أن يتجاوزها، لا سيما وقد توافرت أمامه معلومات متكاملة تتيح له المقارنة والترجيح، والرفض أو التسليم.

هذا فضلاً عن أن أبحاثاً (محددة) كهذه، تقدم لنا نماذج خصبة عن التطور الذي طرأ على أسلوب البحث التاريخي لدى المسلمين، حيث أخذوا يتجهون من كتابة التواريخ العامة، صوب مصنفات تتناول جوانب محددة من تاريخ الإسلام السياسي والحضاري، وتنصبّ على مدينة، أو إقليم، أو إمارة محدودة بحدود مكانية أو زمنية ، وهو المنحى نفسه الذي تنحاه الأبحاث الأكاديمية الحديثة، التي تسعى - قدر الإمكان - إلى تحديد موضوعاتها، والابتعاد عن تلك التي تضيّع الباحث بامتدادها الزمني أو المكاني، وتفقده - بالتالي - القدرة على التركيز والاستقصاء والإلمام وعمق التحليل.

تتناول الرسالة التي بين أيدينا، والتي تحمل عنوان: (حماة الأيوبية: دراسة سياسية حضارية) (٥٧٠-٧٤٢هـ/١١٧٤-١٣٤١م)، معطيات التاريخ السياسي والحضاري لمدينة (حماة) في عصرها الأيوبي، الذي يتجاوز القرن ونصف القرن ، عاصرت خلاله الغزوتين الصليبية والمغولية (التترية)، فضلاً عن منظومة من الممالك، ودويلات المدن الأيوبية، والمملوكية، ولعبت دوراً ملحوظاً في الوقائع السياسية والعسكرية لهذه القوى.

وقد تناولت الرسالة هذا الدور بتفاصيله كافة، مستقصية، محللة، وأضافت إليه فصلين موسعين من التاريخ الحضاري لحماة في مرحلة البحث، تناول أوّلهما تخطيط المدينة وتطورها العمراني ، وبحث ثانيهما في الحياة الثقافية.

والفصلان يعكسان بحق، جهداً ملحوظاً في استقصاء المفردات المبعثرة في المصادر المختلفة، ولّمها في سياق واحد، تتضح معه تماماً صورة النشاط العمراني والثقافي لهذه المدينة. وإن كان المرء يتمنى، من أجل إتمام الموضوع، أن لو أضيف إلى هذين الفصلين، فصول ثلاثة أخرى تستكمل معها الجوانب الحضارية كافة ، ألا وهي: النظم الإدارية، والنشاط الاقتصادي، والحياة الاجتماعية. وقد يبرّر المؤلف غياب هذه الفصول بشحة المادة التاريخية عن هذه الجوانب، وربما انعدامها، لكن جهداً كالذي بذله في الجانبين المذكورين، والذي يعكس قدرة متميزة على التقاط المفردات، كان يمكن أن يعين الباحث على المضي قدماً في بناء الفصول الثلاثة الأخرى.

هوامش الرسالة، وقائمة مصادرها، ومراجعها، بما فيها المخطوطات، واستقرار المؤلف في حماة حيناً من الدهر، والنتائج التي خلص إليها، في دراستيه السياسية والحضارية، توحي بقوة يد الباحث على الأداء، وتنبئ بأنه سيواصل الطريق لتقديم المزيد.

عرفت الأخ الدكتور (علي نجم عيسى) باحثاً جاداً، ومحققاً رصيناً.. ولدى حصوله على الدكتوراه لم يلق القلم جانباً، كما فعل ويفعل الكثيرون من خرّيجي الدراسات العليا، وإنما شمّر عن ساعد الجد، معتقداً – بحق- أن الحصول على الشهادة هو بداية الطريق.. وراح يشتغل في ساحتْي التأليف والتحقيق، الأمر الذي تمخّض عن عدد من الإنجازات التي تحسب له، والتي يمكن أن تكون درساً لزملائه في ضرورة (الاستمرار)..❐

كتـــــاب

دار الاعتماد البريطانية

وتكوين الحكم الوطني في العراق

(1920 – 1932)

دراسة تاريخية سياسية

عرض : عبد الرزاق الحمداني

إن موضوع (دار الاعتماد البريطانية)، **أو** ما يعرف بشكل غير رسمي بـ(دار المندوب السامي البريطاني)، من المواضيع ذات الأهمية الكبيرة، سيما وأن الدراسات التي تناولت السياسة البريطانية في العراق، قد تجاهلت طبيعة ودور وتشكيلات هذه المؤسسة، التي

تعد - بحكم نصوص لائحة الانتداب والمعاهدات العراقية البريطانية - السلطة البريطانية العليا في العراق، التي تتحكم باتجاهات الإدارة، رغم وجود مؤسسات للحكم الوطني، فكانت صلاحيات المعتمد البريطاني أعلى من صلاحيات الملك، رغم أن دوره قد حدد بكونه مستشاراً للملك .

والذي يزيد من أهمية الموضوع، وصعوبته في الوقت نفسه، هو أن الدار أسهمت بشكل مباشر في بناء مؤسسات العراق الإدارية والعسكرية والدستورية والاقتصادية والاجتماعية، بل إن دورها يمثل - بصريح العبارة - تاريخ العراق، بكل اتجاهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، في مرحلة الانتداب، فضلاً عن عدم وجود تصور واضح ومحدد عن طبيعة تشكيلاتها وماليتها وموظفيها .

وكانت الدار تمسك بمقدرات العراق، بحجة أنها مؤسسة شرعية مسؤولة عن تنفيذ التعهدات الدولية في العراق، وعليها تقديم التقارير الدولية عن سير الإدارة إلى لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم.

وكتاب (دار الاعتماد البريطانية وتكوين الحكم الوطني في العراق ١٩٢٠-١٩٣٢م/ دراسة تاريخية سياسية)، من تأليف الأستاذ الدكتور ياسين طه ظاهر، مكون من (٤٣١) صفحه من الورق الأبيض حجم (B5)، وغلافه كارتون باللون القهوائي الفاتح، وعناوين الكتاب مكتوبة بالنسخ المطبعي، صدر في بغداد، وطبع في مكتب أحمدالدباغ للخدمات الطباعية / بغداد - باب المعظم، والطبعة بتاريخ (١٤٣٢هـ-٢٠١١م)، ويحمل رقم الإيداع (٢٣٦٦) لسنة ٢٠١١ في دار الكتب والوثائق ببغداد.

يتألف الكتاب من تقديم للأستاذ الدكتور نوري عبد الحميد خليل/ أستاذ متمرس/كلية التربية/ بن رشد/جامعة بغداد، ومقدمة، وسبعة فصول، وخاتمة تضمنت الكثير من الاستنتاجات ذات الأهمية.

اهتم الفصل الأول بنشأة الوجود الرسمي البريطاني في العراق، أو ما يعرف بالتمثيل الدبلوماسي، الذي بدأ من تأسيس المقيمية البريطانية في بغداد(١٧٩٨) م، وانتقل إلى دار الحاكم المدني العام بعد الاحتلال البريطاني لبغداد آذار سنة ١٩١٧، وإلى دار الاعتماد بعد فرض الانتداب سنة ١٩٢٠ .

تناول الفصل الثاني التشكيلات الإدارية والتنظيمية والمالية للدار، مبتدئاً بتحديد موقعها وتوسيعها، ثم انتقالها إلى بنايتها الجديدة في الكرخ (السفارة البريطانية حالياً) في (الصالحية)، مع متابعة تطور تسمية هذه الدار، والمعلومات التي توافرت عن المعتمدين البريطانيين، وموظفي الدار، ممن كان لهم دور في القضايا المطروحة على الساحة العراقية تلك الفترة .

وكرس الفصل الثالث لمتابعة واجبات ومهام الدار، ووسائلها في تعزيز سلطاتها، ودور الاستشارة البريطانية في تأكيد تبعية العراق لبريطانيا، التي جعلت سلطة الملك والوزراء مقيدة بموافقة ومشورة المعتمد. وكان من مظاهر سلطتها: مراسم توديع واستقبال المعتمدين، التي أضفت عليهم طابعاً من التعظيم والمهابة. فضلاً عن دراسة وسائل سلطة الدار، وأدواتها في الحكم .

أما الفصل الرابع، فقد تناول دور الدار في تشكيل مؤسسات الحكم الوطني، بالكيفية والإخراج اللذين اعتمدتهما الدار لكي تحكم في الخفاء، بعد أن كانت تحكم بالعلن. إذ تناول دراسة الدوافع الأساسية لتشكيل هذه المؤسسات، وتحليل طبيعة دورها في تشكيل الحكومة المؤقتة، وتمثيلها للعراق في مؤتمر القاهرة، واختيار (فيصل بن الحسين) ملكاً على العراق، وتأسيس الجيش العراقي، وتطوير وتشكيل المجلس التأسيسي، وتشريع الدستور.

واهتم الفصل الخامس بدراسة علاقة الدار بمؤسسات الحكم الوطني، والرأي العام، في العراق، لتأكيد حقيقة أساسية، هي حالة تبعية هذه المؤسسات للدار، وليست علاقة التكافؤ بينهما، وهي: البلاط، ومجلس الوزراء، ومجلس الأمة. واهتم أيضاً بموقف الدار من الأحزاب السياسية، والعلاقة بينهما وبين الجمهور العراقي .

وفي الفصل السادس تمت دراسة دور الدار في القضايا الاقتصادية والاجتماعية، إذ كان هذا الدور شاملاً وواضحاً، وتضمن دراسة المشاريع الاقتصادية التي طرحتها الدار، والقوانين التي أسهمت في إصدارها، والسياسة المالية والنقدية والاقتصادية التي اختطتها الدار في العراق، والتي ظلت نافذة المفعول حتى بعد انتهاء الانتداب، فضلاً عن دراسة الجوانب الاجتماعية المتعلقة بالتعليم والقضاء والصحة.

وتابع الفصل السابع دور الدار في وضع المرتكزات الأساسية للسياسة الخارجية العراقية، وعلاقاتها بالأقطار العربية والأجنبية، ودورها في دخول العراق عصبة الأمم، وتحرّره من الانتداب البريطاني .

الانتداب وتطور تسمية دار الاعتماد البريطانية :

لم يستمر التمثيل الدبلوماسي البريطاني في العراق على تسمية واحدة، بل كان يتحول من تسمية لأخرى، ففي سنة ١٧٩٨ كانت الممثلية البريطانية تعرف بـ(المقيمية)، ويقال للممثل: المقيم. وفي سنة ١٨٨٠ أصبحت تعرف بـ(المفوضية)، وكان للمفوض مساعدان: أحدهما للشؤون القضائية، والآخر لشؤون الدخل. وبعد الاحتلال البريطاني للعراق، أصبح ممثل بريطانيا يعرف بـ(الحاكم المدني العام). وأول من شغل هذه الوظيفة (برسي كوكس)، ثم سافر لتسنم منصبه الجديد: وزيراً مفوضاً في طهران سنة ١٩١٧. وبعد قيام ثورة العشرين التحررية، عاد (كوكس) للعراق، لتسلم منصبه، باسم المندوب السامي تارة، والمعتمد السامي، تارة أخرى. وقد ساد مفهوم (المعتمد)، ودار الاعتماد، بسبب رفض العراقيين لكلمة (الانتداب)، التي كانت تعني بالنسبة إليهم استعماراً في صيغة جديدة .

وقد نصت لائحة الانتداب البريطاني على العراق، على "أن العراق دولة مستقلة، تقبل المشورة الإدارية والمساعدة التي يقدمها المنتدب". وكان الممثل البريطاني، في بداية الانتداب، يعرف بالمخاطبات الرسمية باسم (المندوب)، أو (المعتمد السامي) High commissionel، وتعني com" عضو لجنة، أو مندوب، أو معتمد، أو مفوّض، والذي يعدّ - بموجب مفاهيم الانتداب - مستشاراً لملك العراق، ولكنه يمثّل - من الناحية العملية، ومن وجهة نظر بريطانيا-: (الموظف الرئيس لضمان تنفيذ الالتزامات التي أخذتها حكومته على عاتقها، ما دامت محتفظة بمسؤولية الانتداب).

وفي بداية تلك المرحلة كان يطلق على دائرة المعتمد السامي: (دار المندوب البريطاني)، أو (دار الانتداب البريطاني). ونظراً إلى أن كلمة (الانتداب) كانت مكروهة من العراقيين، تحوّلت التسمية إلى (دار الاعتماد)، و(المعتمد السامي)، في المراسلات كافة بين الدار والحكومة العراقية (ص ٤١) .

خلاصة البحث :

أدت دار الاعتماد البريطانية دوراً حيوياً في توجيه الشؤون العراقية، والهيمنة عليها، طوال مرحلة الانتداب. وكان موقعها السيادي يأتي من كونها ممثلة لسلطة الانتداب، ومسؤولة عن تحقيق التطور والتقدم للعراق أمام عصبة الأمم، لهذا احتفظت بحقها في التدخل بالشؤون الداخلية، وإدارة علاقات العراق الخارجية، بشكل مطلق، وأن يقبل الملك نصيحة ومشورة المعتمد السامي في كل الشؤون، بغضّ النظر عن أهميتها، بل إن الدار تدخلت حتى في اختيار أعضاء سكرتارية الملك، وليس رئيس وزرائه فحسب.

وهكذا كان دور الدار، كما اتضح من البحث، هو المحافظة على مصالح بريطانيا، وليس مصالح العراق.

إن قواعد السياسة البريطانية التي التزمت الدار بتنفيذها، هي التي وردت في برقية (تشرشل) إلى (كوكس)، بعد تتويج (فيصل) ملكاً على العراق: فما دام العراق قد كلّف بريطانيا مبالغ كبيرة، يبقى لفيصل أن يقبل نصيحة المعتمد السامي، وأن يعتمد في إدارة شؤون العراق على المستشارين والموظفين الذين هم جزء من موظفي الدار. وهذا يعني أن مصدر القرار، وتنفيذه، يكون بيد الدار، وليس بيد الحكومة العراقية. بعبارة أخرى: إنها الجهة التي تملك مظاهر سلطة القرار. ويمكن القول إن الدار كانت دولة متكاملة المؤسسات، تشمل اختصاصاتها كل مجالات الإدارة والمالية والسياسة والاقتصاد والمجتمع. ويتضح من خلال بعض المؤشرات الآتية، حقيقة هذا الدور:

١.كانت الدار هي الجهة العليا الوحيدة المسؤولة عن شؤون العراق، وعن تنظيم علاقاته الخارجية، وكانت تتصرف على أساس "أن العراق هو مجرد تجمعات عشائرية، وليس له حق الأداء بإقامة علاقات خارجية".

٢.أعطت المعاهدات والاتفاقيات سلطات واسعة للدار. فقد جعلت قرارات السلطة التنفيذية (مجلس الوزراء) مقيدة بسلطة الدار، وموافقتها، ويطلب المعتمد السامي - وهو ما حصل في حالات كثيرة - من الملك الإمساك عن التصديق عليها، فضلاً عن أن الدار وضعت نظاماً للرقابة على عمل الحكومة، وذلك من خلال المستشارين والموظفين البريطانيين، بحيث لا يكون عملهم استشارياً حسب، بل هو استشاري وتنفيذي، لتحقيق السيطرة على السلطتين التشريعية والتنفيذية .

٣. أسهمت الدار في إيجاد مؤسسات ضعيفة البناء، ووزارات سريعة التغيير، وأحزاب خفيفة الوزن. وعملت على إضعاف الحركة الوطنية، ومحاربتها. وكانت سياستها في التطور، تقوم على ما وصفته (مس بل) في قولها، الذي نقله (ساطع الحصري): (التدرج، أو سياسة ياواش ياواش) .

٤.وعنيت الدار في عدم إيجاد تواصل بين أبناء المجتمع. فكانت تعمل على إخافة الأقليات من القومية العربية، فضلاً عن عزل العراق عن محيطه العربي، حيث قامت بإيجاد نمط جديد من الحدود المصطنعة بين هذه الأقطار .

٥.أدت سياسة الدار؛ العشائرية والاقتصادية، للإضرار بمصالح العراق، فقد أسهمت في خلق المنازعات العشائرية حول الأراضي والمياه، وفي خلق الإقطاعيات الكبيرة، واتّباع

سياسة الموازنة بين العشائر وأهل المدن، وربط امتيازات شيوخ العشائر بموقفهم في دعم سياسة الدار.

أما الجوانب الإيجابية في عمل دار الاعتماد البريطانية، فهي:

١.أسهمت بشكل كبير في تعريب النظام، وتأسيس الملكية، فلم يكن هناك قبل الانتداب البريطاني إدارة وطنية في الحكم. لهذا كان دور الدار كبيراً في تثبيت حدود العراق الحالية، وتكوين مؤسساته الحكومية على النمط الغربي .

٢. إن تأسيس العرش والدستور قد حدد شكل الحكومة في العراق بعض الوقت، ولكن ظل التساؤل قائماً في داخل دارالاعتماد، وهو: ما مساحة الأراضي التي يمكن أن تكون تحت سلطة الحكومة؟ ففي الوقت الذي أمسكت الدار بيديها مباشرة إدارة المنطقة الشمالية، أسهمت بشكل إيجابي وكبير في حسم موضوع الموصل لصالح العراق .

٣.لقد أكدت الدار على وحدة التراب العراقي، حينما رفضت دعوات أهالي البصرة للانفصال وتكوين (دولة) تحت الإشراف البريطاني، وإلحاقها بالهند، فضلاً عن عدم السماح لكوردستان العراق بالانفصال، واعترافها بأنها جزء حيوي من العراق وتاريخه وجغرافيته، وبأن علاقة الكورد بالعراق تختلف عن علاقتهم بدول الجوار. وكانت مع منح الحكم الذاتي ضمن العراق، وبما يجعل الكورد يتمتعون بحقوقهم الثقافية والقومية، ليس إلا!!! بعد ذلك استخدمت القوة العسكرية ضد كل دعوة للانفصال، ونظرت من وجهة مصالحها السياسية إلى "أن علاقة كوردستان بالعراق حيوية، لأنها ستكون حاجزاً مهماً ضد تركيا، وحافزاً لأيّ امتداد خارجي".

4. نعطي الحق، من خلال هذه الدراسة، لدور الدار للسياسيين العراقيين، الذين نظروا إليها على أنها (المربي القدير)، وعلى أن رجالها (بناة الدولة)، كما وصفتهم (فيب مار)، وأنهم أسهموا – بحقّ - في ذلك، رغم أن هدفهم كان - وهو شيء طبيعي - حماية مصالح بريطانيا، والحفاظ عليها، ورغم أن مؤسسات الدولة التي أوجدها كانت مظهرية، ولكنها مثلّت الأساس وقاعدة البناء في العراق المعاصر.

اعتمد البحث على مصادر متنوعة، منها: الوثائق البريطانية غير المنشورة، التي تحوي وثائق وزارتي الخارجية والمستعمرات، ولا سيما تلك الوثائق المتعلقة بالمخاطبات بينها وبين الدار، والوثائق المنشورة الخاصة بالتقارير الدورية التي رفعتها الدار إلى لجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم.

أما وثائق مقر الطيران البريطاني في العراق، فقد تضمنت المخاطبات والتقارير التي رفعتها الاستخبارات البريطانية في العراق إلى الدار. وأفاد البحث من بعض الوثائق الفرنسية، ولا سيما تقارير القنصلية الفرنسية في بغداد.

وقدمت الوثائق العراقية غير المنشورة، والمحفوظة في دار الكتب والوثائق، مادة مهمة للبحث، وبخاصة وثائق البلاط الملكي، وكذلك الوثائق غير المنشورة التي تضم مقررات مجلس الأمة.

وأفاد البحث من الصحف، وكتب المذكرات، وبخاصة مذكرات السياسيين الذين عاصروا تلك المرحلة، وكذلك كتب الموظفين المستخدمين تحت إدارة المعتمد البريطاني، والحكومة العراقية، وكذلك كتب السيد (عبد الرزاق الحسني)، وفي مقدمتها: (تاريخ الوزارات العراقية)، وكتب (المس بل)، و(لونكريك)، و(فوستر)، و(ايرلاند)، والتي تضمنت الإشارة إلى التشكيلات الإدارية للدار، وكشف أسماء الموظفين البريطانيين العاملين في الدار. فضلاً عن بعض الكتب الأجنبية الأخرى، والمقالات الصحفية المنشورة باللغة الإنجليزية، والتي أمدت الدراسة بمعلومات مفيدة.

ومن الجدير بالذكر أن الاستاذ الدكتور طه ياسين ظاهر(مؤلف الكتاب) من مواليد الحلة (١٩٤٩)، تخرج من كلية الآداب /جامعة بغداد (١٩٧٢)، وحصل على شهادة الماجستير من الجامعة المستنصرية (١٩٨٤)م، وحصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من كلية التربية – بن رشد/جامعة بغداد (١٩٩٤) م، وساهم في العديد من المؤتمرات والحلقات النقاشية داخل وخارج العراق. أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في كلية التربية /بن رشد، والتربية - بنات /جامعة بغداد، ومعهد التاريخ العربي. رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب والألسن/ جامعة ذمار اليمنية (١٩٩٨-٢٠٠٠)م . رئيس قسم التاريخ في كلية التربية للبنات /جامعة بغداد (٢٠٠١-٢٠٠٣)م❐

(قراءة في كتاب)

التعليم الديني وقضايا العصر

قراءة في كتاب التعليم الديني بين التجديد والتجميد

للدكتور طه جابر العلواني

د. مصطفى عطية جمعة جودة
Mostafa_ateia123@yahoo.com
Mostafaateia@gmail.com

هذا الكتاب يجمع في نصه، وطريقة تأليفه، بين: السرد الشخصي لمسيرة حياة أحد علماء الأمة الإسلامية، المبرزين في العصر الحديث، وهو الشيخ (طه جابر العلواني)، وكذلك لمحات عن تكوينه العلمي والفكري، ومسيرته المهنية ما بين أقطار العالم الإسلامي، وبلدان العالم الغربي. وهو - أيضا - يشمل الكثير من الرؤى، والإشارات العلمية، والتربوية، والرؤية المستقبلية للتعليم الديني في العالم الإسلامي، بجانب طرح رؤية واسعة شاملة لمستقبل التعليم الديني الإسلامي، وسبل التجديد فيه.

فيمكن القول إنه كلام نظري، يطرح تصوراً معيناً عن قضية التعليم الشرعي في جامعاتنا ومعاهدنا، على امتداد أقطار العالم الإسلامي، بقدر ما هو عصارة تجربة عملية، قام بها المؤلف نفسه، وأراد عرضها في خلاصة عملية مباشرة للقارئ المسلم، كي يطلع على مزايا التعليم الديني في طرائقه التقليدية القديمة، والتي ظلت متوارثة في بقاع العالم

الإسلامي على امتداد قرون، وبين السبل الحديثة، التي نادى - ولا يزال ينادي - بها المتغربون والعلمانيون، ويتهمون العلوم الشرعية بأنها سبب كل جمود أصابنا، بل هي سبب لنكبتنا وتراجعنا الحضاري، ومن ثم ينادون بتنقيحها، وقد يشتطون فيطالبون بإلغائها، إلا القليل منها.

ينبئنا الشيخ، في مقدمة الكتاب، بجملة من الهموم التي شعر بها، وكانت دافعة له لتأليفه الكتاب. حيث يؤكد أن أمتنا لا حل لها إلا بالعودة إلى الإسلام: شريعة وهدى وتربية، فبه - وليس بغيره - سينصلح حالها حديثاً، مثلما بنت حضارتها وثقافتها عليه قديماً، مؤكداً أن النظام المعرفي الإسلامي به آليات التغيير والتجديد والمراجعة والتدقيق، مثلما فعل أبو حامد الغزالي، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وغيرهم، في مؤلفاتهم، التي واجهوا به شطحات بعض الفلاسفة والمناطقة، وقدموا ردوداً كثيرة وعديدة على المستجدات في عصورهم. وأن المطالبات بالتجديد، في هذا العصر (بعد ١١ سبتمبر)، تقف وراءها أجندة غربية، معلومةٌ أهدافها وأغراضها، وتسعى لفرض هيمنة أو تصور على بنية العلوم الشرعية، وتأويلاتها([1]).

صحيح أن زمن تأليف الكتاب يعود إلى سنوات، وتجربته تمتد إلى عقود ولت، ولكن يبدو أن الهموم الملحة فيه لا تزال تستعرّ في ساحتنا الثقافية، في وقتنا الحالي، بل ونفاجأ بأنها كانت جزءاً من الصراع الفكري، منذ مطلع القرن العشرين. وهذا معناه أن المعركة قديمة جديدة، طروحاتها واحدة، وشعاراتها متشابهة، وآلياتها متجددة، لأنها ببساطة تتصل بعقيدة أمتنا، والمكون الأساسي لهويتها، ألا وهو الإسلام.

[1]) المقدمة ، ص٢ ، ٣ .

مداخل قراءة الكتاب:

سيكون نهجنا في قراءة هذا الكتاب نابعاً من رؤية مختلفة، نوعاً ما، عن المراجعة المألوفة، التي تتضمن عرض أبرز الأفكار المطروحة، ومناقشة مدى إضافتها العلمية لنا، وحاجتنا الفعلية لها، ومن ثم سبل تطبيقها، والاستفادة منها. أما رؤيتنا، فإنها نابعة من طبيعة الكتاب ذاته، وبنيته، فالكتاب مكتوب بسرد حكائي ذاتي، يشمل الكثير من الرؤى المبثوثة في ثناياه، ومن ثم انتهى بتقديم تصور لتعليم ديني عصري، يمكن تطبيقه والاستفادة منه، فهو جامع بين النظر والعمل، الشخصي والعام، الكلي والجزئي. ناهيك عن استعراضه لحال التعليم في جامعات إسلامية، ومعاهد شرعية، في أقطار عدة، بدءاً بالكتاتيب، مروراً بالمساجد، وانتهاء بالجامعات.

لذا، فإننا سنقرأ هذا الكتاب وفق مداخل عديدة، سنتناولها في محاور:

التكوين العلمي، والمقارنة المباشرة :

يحدثنا المؤلف عن بداية تلقيه العلوم الشرعية في طفولته بمدينة الفلوجة بالعراق، من خلال حفظه القرآن الكريم، وتعلّم أسس الشريعة، ومبادئها، في مدرسة بلدته، مقابل خمسين فلساً شهرياً، تعطى للشيخ المعلم، وقد تقدم الأسرة بعض الهدايا، من المطعومات أو الفاكهة، إلى الشيخ.. فيقدر أن التكلفة الفعلية لمثل هذا النوع من التعليم، لا تزيد عن (١٥) دولاراً في العام.. فلما دخل إلى المدرسة الابتدائية، ألحقوه بالصف الثاني الابتدائي، بعد اختباره، ليستمر في التعليم، بجانب دراسته على يد الشيخ عبد العزيز السامرائي، في مدرسة أو غرفة ملحقة بالمسجد، في مدينة الفلوجة، حيث تطوع الشيخ، واختار أكثر الأبناء ذكاء وحرصاً على التعليم، من أبناء البلدة ، وكان يقول لآبائهم: سنأخذ واحداً من أبنائك للدين، ونترك الباقين للدنيا. واتبع الشيخ معهم منهجاً تربوياً وتعليمياً، مدته ثلاث سنوات، يبدأ من صلاة الفجر، وينتهي بصلاة العشاء، كل يوم، يتعلم فيه الطالب العلوم الإسلامية بشكل مركز. والأهم أن هذا البرنامج كانت تقدمه وزارة الأوقاف، في زمنهم، لمدة اثني عشر عاماً، ولكن الشيخ السامرائي كان يعلمه في ثلاث فقط، مع التربية الصالحة: خلقاً وتهذيباً([٢]). وقد تمّ تعيينه إماماً وخطيباً بوزارة الأوقاف، بعد اجتيازه اختبار الوزارة، نتيجة تفوقه وتمكنه العلمي، وتتلمذ على يدي الشيخ السامرائي.

فلما ذهب إلى بغداد، ليواصل مشواره العلمي، تتلمذ على أيدي أربعة من كبار علماء عصره، منهم: مفتي العراق الشيخ قاسم القيسي، والعلامة أمجد الزهاوي، شيخ العرب

[٢]) ص٩، ١٠، ١١

والأكراد، المشهود له بالتبحر والفقه لأبعد الحدود، والشيخ عبد القادر خطيب مسجد أبي حنيفة في بغداد([٣]). ثم التحق بكلية الشريعة في الأزهر الشريف بالقاهرة، لمواصلة دراساته العليا. فلما ذهب إلى القاهرة، للدراسة في الأزهر الشريف، بعد نجاحه على أكثر من (٦٣٠) متقدماً لنيل البعثة، درس في كلية الشريعة عام ١٩٥٤م، ليصادف مرحلة التحول في الأزهر الشريف، عبر محاولات نظام عبد الناصر في جعل الأزهر مؤسسة دينية مصرية (أقلمة الأزهر)، مبعداً عنها العلماء ذوي الأصول غير المصرية، مثل عميد كلية الشريعة وقتها، الفلسطيني الأصل: الشيخ عيسى منون، وشيخ الأزهر نفسه، ذي الأصل التونسي: محمد الخضر حسين، الذي خطب باكياً في المتظاهرين ضده، بأنه لم يفرق طيلة حياته بين مسلم وآخر، فكيف يفرق بين الطلاب المصريين وغيرهم ؟ ومن ثم جمع أوراقه، وغادر المشيخة مستقيلاً([٤]). وقد استمر المؤلف في دراسته، في مرحلة الماجستير، بعدما عاد إلى العراق، وعمل إماماً وخطيباً لأحد المساجد. وبدأت نظرته تتسع وفقهه يتعمق، ومن ثم دعمها في مرحلة الدكتوراه، وانتقاله للتدريس في الجامعات السعودية([٥]) .

نلاحظ هنا أن الشيخ قد تأسس علمياً وفق المنظومة التقليدية، الموروثة منذ القدم في التعليم الشرعي، حيث جمع ما بين التلقي الشفاهي، والحفظ للقرآن والمتون، في الخلوة / الكتاب، ثم العلوم المكثفة في مدرسة المسجد، جامعاً بين التربية والعلم، والتتلمذ اليومي على يدي عالم جليل. ومن هنا، ندرك أن المنظومة القديمة فيها أسس مهمة، علينا الانتباه إليها، وأهمها: التلقي الشفاهي الصحيح، واستخدام آليات الحفظ، والتربية، وتصحيح اللسان، وتجويد الكلام.

وطيلة صفحات الكتاب، نلمس مقارنة المؤلف بين التعليم الديني التقليدي، والتعليم الديني التجديدي، فهو في ثنايا الكتاب يؤكد على حسن مخرجات التعليم التقليدي، رغم بساطة تكلفته، عبر الكتاتيب أو الخلاوي، التي هي أرخص مدرسة على وجه الأرض؛ تحفّظ القرآن الكريم، وتعلّم مبادئ القراءة والحساب والفقه والسيرة النبوية وما شابهها، وكل مستلزماتها شيخ يعلم؛ زهيد الأجرة، أو يكون محتسباً لوجه الله تعالى، ويمكنه أن يعلم الصغار في أي مكان: حلقة في مسجد، غرفة صغيرة، في الخلاء المفتوح، في الحقول، أو الساحات وسط البيوت، فالعملية التعليمية كلها تقوم على جهد معلوم

[٣]) ص١٣

[٤]) ص١٦

[٥٥]) ص٢٤

واحد([٦]). أما المرحلة الثانية، فتكون في مدارس المساجد، وبها نظام تعليمي يعتمد على الشيخ أيضاً، في حلقة من حلقات العلم، وضمن تراتبية ومناهج وكتب معلومة، والشيخ يعطي إجازة للطالب، تمكنه من مواصلة الدرس. وتطورت مدارس المساجد لتكون جامعات ومعاهد، مثل: الأزهر في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في المغرب، والمساجد والحوزات في العراق([٧]).

وكانت المرحلة الثالثة في حياة الشيخ، هي مشاركته الفاعلة في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن، حيث يحدثنا عن نشأة وتكوين هذا المعهد، بصحبة ثلة من خيرة علماء الأمة (منهم: إسماعيل الفاروقي، يوسف القرضاوي، جمال عطية، عبد الحليم أبو شقة، وغيرهم). وقد تأسست فكرة المعهد على الانتقال إلى التأمل في أسباب تراجع الأمة الإسلامية حضارياً، وأدرك أنه لا بد من وجود فكر (أزمة الأزمة)، والانتقال بالاجتهاد من دائرة الفقه، إلى دائرة الحالة الفكرية والنفسية للأمة كلها، ودمج الإبداع فيها، ومناقشة قضية المنهج والمنهجية من منظور إسلامي، من أجل أن يتضافر الفقيه مع العلماء في إخراج الأمة من نكبتها، وهذا يحتاج إلى التبحر في العلوم الاجتماعية والنفسية، وأيضاً العلوم الفلسفية والطبيعية. واتسعت دائرة العلماء المشاركين في المعهد، والممثلين له، في مختلف البلدان المسلمة، ومن ثم اتسعت الأفكار، وتحديد مجالات الأزمة، ومنها بالطبع أزمة التعليم الديني ([٨])، التي كانت في قلب الفكر والعمل والأمل.

أيضاً، كانت عين المؤلف تقارن بين سلوك وشخصيات علماء الشريعة من الأجيال القديمة، وأيضاً من الأجيال المتأثرة بروح العصر الحديث. وقد عرض شخصية شيخه الأول، وهو الشيخ عبد العزيز السامرائي، الذي رفض الغلو الصوفي أو السلفي، ولكنه كان يتشدد في بعض الآراء والفتاوى، مثل: رفض ارتداء البدلة الإفرنجية، والإلزام بإطلاق اللحية، فهو فرض في رأيه، ووجوب النقاب على النساء. وكانت له جهود مشكورة مع أهل بلدته، في رفض المبالغة في المهور، وإطلاق الرصاص في الأعراس، وعدم الإكثار من مجالس العزاء، وما يصاحبها من تكلفة باهظة مادية، وما زال بأهل البلدة حتى أقلعوا عن مختلف البدع الشائعة وقتئذ([٩]).

---

[٦]) ص٥، ٦.
[٧]) ص ٦، ٧
[٨]) ص٢٥-٢٨
[٩]) ص١٢-١٤

أما مشايخه في بغداد، فكانوا أكثر انفتاحاً، غير ممانعين للزي الإفرنجي، ويعللون ذلك أن الملابس قضية شكلية، فالكردي يلبس البنطال مثلاً، لأنه يناسب الطبيعة الجبلية التي يعيش فيها ([١٠]) .

الوعي الناقد بالواقع، وانعكاسه على الفتوى، والتعليم الشرعي:

لقد كان المؤلف واعياً بانعكاس السياسة على تعليم العلوم الشرعية، في المعاهد والجامعات التقليدية والحديثة. وبدايتها أنه أشار إلى وجود ظواهر مشتركة بين مختلف الأديان والمذاهب والفلسفات في العالم، قديماً وحديثاً، فلا يعقل أن يتم إسقاطها على الإسلام وحده. وقدم مثالاً على ذلك بمن يتمسكون بظاهر النص، والتفسير الحرفي له، ويقصرون فهمهم على ما تبوح به الألفاظ والعبارات فقط، غير عابئين بتأويل، أو واقع، أو رموز، وإشارات، ويرون فيه أن هذا هو الفهم السلفي الصحيح. فيخبرنا أن هؤلاء الظاهريين لهم مدرسة في الإسلام، وأيضاً تمثلهم مدرسة القرائين لدى اليهود، ومثلهم لدى النصارى: الكاثوليك والبروتستانت ([١١]).

وقد تبلور هذا الوعي لديه من خلال تطور حاسته النقدية، التي بدأت في الظهور خلال دراسته في الأزهر الشريف، وهو يجد تيارات فكرية متصارعة، بجانب تأثره بعلماء آخرين من جيل الشباب المسلم وقتئذ، مثل الشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق. فإذا عاد إلى بغداد كان التزم بمجالس شيخه أمجد الزهاوي، الذي كان له أسلوب جميل في النقد والمراجعات على الآراء والعلماء والفتاوى، أساسه النقد الهادف، والتأدب واحترام العلماء، حيهم وميتهم. ونمت لديه الرغبة في الحصول على بدائل، ووضع أسس للنهضة والتجديد في التعليم الديني، فاختار لهذا قسم السياسة الشرعية، ليواصل دراسته في مرحلة الماجستير([١٢]). ونفس هذه التيارات وجدها خلال إقامته في الرياض، حيث كانت هناك شخصيات كثيرة من الدول العربية، متنوعة الأفكار والاتجاهات، وكان يلتقيها في الندوات، أو البيوت، حيث تدور نقاشات واسعة([١٣])، ساهمت في تشكيل رؤيته للواقع، وأيضاً للمستقبل. وبدأ يتساءل عن أسباب دراسة علم الكلام، وفرق بائدة، الآن، مثل: المعتزلة، والبلاد الإسلامية تموج بتيارات علمانية، مثل: الماركسية، والقومية، والمادية،

[١٠]) ص١٣ ، ١٤
[١١]) ص٩
[١٢]) ص١٧
[١٣]) ص٢٤

والديمقراطية الليبرالية، وغيرها، وصعود تيارات إسلامية أخرى، مثل: الإخوان المسلمين، وحزب التحرير الإسلامي، وحزب الدعوة الشيعي، وكتابات أبي الأعلى المودودي، والحسن الندوي، وغيرهم. وكان العلماء التقليديون يتعاملون بالتكفير والتفسيق مع كل فكر وافد، ويرفضون الحوار، أو بالأدق لا يتخذون الحوار نهجاً في الأساس (١٤). ولكنه على المستوى الشخصي دخل في حوارات ومساجلات كثيرة مع هذه التيارات، وتعرف على دعواتها، ومن ثم تطورت الحاسة النقدية في أعماقه، من أجل تطوير نظام التعليم الديني، وتطعيمه بالعلوم الحديثة، وتطوير طرق تقديمه(١٥).

لذا، فهو يشدد على أهمية تكوين شخصية العالم، وحصوله على المزيد من الخبرات، والعلوم، وإثراء تجاربه، من أجل تطوير العملية التعليمية (١٦).

أبعاد أزمة التعليم الديني:

جاءت نظرة المؤلف للتعليم الديني وفق فهم واع، نابع من التراث، ومن الواقع، بما فيه من سلبيات وآثار. ومن ثم قام ببناء رؤية استشرافية للمستقبل، منطلقة من أهمية وجود أبعاد أخرى لدى العالم والفقيه، ليحكم بينها ، وتكون روافد لرؤيته الشرعية، وفتاويه، ومنها: البعد السياسي، والبعد الاجتماعي، فيما يسميه الإمام أبو حنيفة: الفقه الأكبر، ونسميه نحن اليوم: علم اجتماع المعرفة. كما تعمق فهمه أكثر بفقه المقاصد، الذي أسسه العلامة الشاطبي، في كتابه الموافقات في أصول الفقه، وقد لخّصه الشيخ، ومن ثم درّسه لأطباء ومهندسين، جنباً إلى جنب مع طلابه في الجامعة والدراسات العليا، الذين وعوا أبعاداً عظيمة في هذا الفقه (١٧).

وخلال فترة عمله بمعهد الفكر الإسلامي، انتقل من النظرات الجزئية في العلوم الشرعية، إلى الرؤية الشاملة، فبدأ البحث في الفكر المنهجي القرآني السليم، من أجل الوصول إلى منهجية قرآنية معرفية، مصداقاً لقوله تعالى: {لكلٍ جَعَلْنا مِنْكُم شرعةً ومنْهاجًا}(المائدة، ٤٨)، لتكون قيم (التوحيد، والتزكية، والعمران) هي المقاصد العليا للقرآن والإنسان، ومن ثم النجاح في تحديد معالم المنهج (١٨)، التي هي ستفيد الأمة

---

١٤) ص١٩

١٥) ص٢٣

١٦) ص٣٩

١٧) ص٢٣ ، ٢٤

١٨) ص٣١-٣٥

المسلمة، وستفيد البشرية جمعاء، في تحولاتها؛ من حتمية الحل العلمي، والحل التاريخي، إلى النسبية والاحتمالية، فهي في حاجة لاكتشاف الإسلام، ومنهجيته([19]).

والتعليم الديني بحاجة إلى صياغة على أسس، أهمها: بناء شخصية إسلامية متوازنة نفسياً وعلمياً، ليتحلى بالفاعلية والإيجابية، مدركا أنه صاحب غاية ورسالة، ولم يخلق عبثاً في الحياة. وتخليص العقل المسلم من الثنائيات الفكرية الحادة، وأن الأديان المنزلة واحدة، هدفها صلاح البشر جميعاً، ليتجه الإنسان المستخلف، بكليته وطاقاته، وكذلك الشعوب، نحو تحقيق غاية الحق في الخلق. وأهمية انفتاح النسق المعرفي للمسلم على علوم طبيعية وإنسانية ونفسية واجتماعية، مع وعيه بنقطة الثبات المرجعية، التي تعني الهدف والغاية والاتجاه، وممارسة النقد البناء، والوعي بالمنهجية القرآنية ، ومن ثم بناء برامج تعليمية موحدة([20]).

وكذلك مراعاة : إعادة الارتباط بين العلم والقيم العليا (التوحيد، التزكية، العمران)، ضد الاستبداد والفساد والمصالح الخاصة، وإخراج العلوم الإسلامية الشرعية، من الفكر السكوني التقليدي، لترتبط بالحياة المتجددة المتغيرة، وإخراجها من دوائر القومية والجغرافية، إلى العالمية والكونية، التي صارت مطلباً مهماً من أجل تكوين الأنساق الثقافية والحضارية وتكاملها ، وتأسيس القواعد الحوارية بين الأديان على قيم سامية، أساسها: الحق والعدل وقبول الآخر، وعدم التقوقع في الثقافات المحلية، وبناء عقلية نقدية متفاعلة مع العلوم المعرفية، لا تقبل معرفة إلا بدليل، وترفض الأهواء، وادعاء أحد امتلاكه للحقيقة الكاملة، ليصبح للجميع شرعية الحوار والوجود والتعلم، ليتضاءل التحيز العرقي والقومي واللاهوتي والطائفي ([21]).

برنامج مقترح لتجديد التعليم الديني :

عرض المؤلف برنامجاً تطبيقياً لمقررات إسلامية، لمدة اثني عشر عاماً، في المرحلة العليا الجامعية ([22])، يتخرج بعدها الطالب وقد استكمل المنظومة المعرفية الإسلامية، وقد تم تطبيقها في جامعة العلوم الإسلامية، وجامعة قرطبة في فيرجينيا، وعددها اثنان

---

[19]) ص٣٧

[20]) ص٤٠ ، ٤١

[21]) ص٤١-٤٣

[22]) ربما تأثر المؤلف بمنهج شيخه عبد العزيز السامرائي، الذي طبق برنامجاً للعلوم الشرعية مدته اثنا عشر عاماً أيضاً، وإن كان الشيخ السامرائي قد طبقه في ثلاث فقط .

وعشرون مقرراً، منها ستة مشتركة بين التخصصات المختلفة، وتشمل: علوم القرآن، والفقه، وأصوله. أما باقي المقررات، فهي شاملة للغة والأدب والبلاغة والعلوم الإنسانية، من أجل تكوين عقلية منهجية مسلمة، تحقق الفلسفة المرتجاة من النظام التعليمي الإسلامي الجديد. ومن المهم عرض المقررات المشتركة الأساسية اللازمة لكل طالب في مرحلة الجامعة، أما المقررات الفرعية أو المتخصصة، فهي مبنية في تكوينها وتلقيها وفهمها على الأطر والقواعد والمفاهيم التي تترسخ في الأساسية.

جاء المقرر الأول، متناولاً نظرية المعرفة الإسلامية، ومدى اتساقها مع تطور المسلمات في الإسلام، وصولاً إلى أن التوحيد يقدم نسقاً منفتحاً أمام الأنساق المغلقة، ومن المهم تهيئة العقل لنقد الأنساق الحالية، وتفكيكها ومن ثم إعادة تكوينها وفق المنهجية الإسلامية. وتشمل الدراسة فيه محاور، أبرزها: الله، الإنسان، الوحي، الكون، مصفوفة القيم. كما تناقش أبعاداً قرآنية أربعة: الحرية، الآخر، الموت، الاغتراب([٢٣]).

أما المقرر الثاني، فيتناول مناهج البحث العلمي المتعددة، وأبرز المفاهيم المرتبطة بها، مثل: الاستقراء، والاستنباط، والجديد فيها، مثل: البنيوية، والسيميولوجيا، والتناص، والتفكيك، ودراسة أساليب الخطاب والاتصال.

في حين يتناول المقرر الثالث: الحوار والتفاعل المعرفي، من منظور حضاري إسلامي، ويدرس السياقات المختلفة: التاريخي، الثقافي، الإيديولوجي، والهوية الحضارية، والتركيز على أن الحضارة مهمة في التكامل السياقي مع الحضارات المختلفة، ولا بد من النظر إلى الحضارات بوصفها خطاباً متعدد الأصوات عن رؤيا العالم، وكلها تسعى إلى رفاهية البشر، والنهوض بهم([٢٤]).

وجاء المقرر الرابع عن التاريخ، ومساره بين حركات الإصلاح، وفقه الاجتهاد والتجديد، مؤكداً على الخطوط الفاصلة بين الثوابت والمتغيرات في الرؤية الإسلامية، مركزاً على أولية الاجتهاد بوصفه فريضة إسلامية، وأهمية وجود دافعية الإصلاح وفقه التجديد، والعودة إلى الأصول، وأنه مسؤولية الأمة كافة في مختلف المستويات، وأن حركات الإصلاح الإسلامية المختلفة كانت وفق رؤى اجتهادية، ومن المهم قراءة التاريخ الإسلامي من هذا البعد.

أما المقرر الخامس، فقد تناول العالم الإسلامي في النظام الدولي، وسبل الاستفادة من إمكانياته، وموارده الهائلة، وبناء علاقات متوازنة مع سائر الأمم والشعوب، وحل مشكلات

---

[٢٣]) ص٤٨-٥٠

[٢٤]) ص٥١-٥٤

المسلمين السياسية، مثل: فلسطين، وكشمير، وغيرها، وكل العلوم والمعارف التي تغذي معرفتنا بعالمنا الإسلامي([٢٥]).

أما المقرر السادس، فيتناول علاقة الدين بالحضارة، على اعتبار أن الدين منظومة قيم تؤسس لحضارات كثيرة، مثل: الفرعونية، والمسيحية، واليهودية، وغيرها، وعلينا أن ننظر بهذا البعد إلى الحضارات، لندرك أن الحضارة الإسلامية أساسها قيم عليا عقدية وأخلاقية شاملة للحياة والوجود كله([٢٦]) .

الجزء الثاني من المقررات، شمل علوم القرآن: تعريفاً، وتفسيراً، ومدارس التفسير القديمة والحديثة، ونظرية التأويل، وعلاقة القرآن بالإيمان، وعلم الاجتماع الديني، ومشكلات العالم المعاصر، وقضايا السياسة، ومبادئها، كما تتجلى في القرآن([٢٧]). كذلك دراسة علوم الفقه، وأصوله، فالأصول تقدم طرائق منهجية، والفقه تطبيق لهذه الطرائق، وتاريخ أصول الفقه، وعلاقتها بمؤسسي المذاهب الفقهية الكبرى، وكيف نما العلم، وكيفية الاستفادة منه عصرياً، وكذلك دراسة الفقه المقارن، وأهميته في نزع التعصب المذهبي، وأبرز المذاهب السائدة الآن، وكيف يمكن إشاعة الثقافة التوافقية، من خلال قبول تعدد الفتاوى. كما تطرق إلى القوانين الوضعية، وعلاقتها بالأحكام الشرعية: موازنة ومقارنة معها. وكذلك مقاصد الشريعة، وكذلك أنواع أخرى من الفقه، مثل فقه الواقع، والأولويات، والموازنات، وغيرها([٢٨]).

ويأتي آخر هذه المقررات، وهو: المراجعات، ومناهج التفكير، وفقه الحجاج، ليشمل مهارات التفكير النقدي، وكيف يتقن المسلم فن الحجة والبرهان، والمراجعة العلمية البناءة.

ثم تأتي خاتمة الكتاب مؤكدة على النهج القرآني: انطلاقاً، ومنهجاً، وتفسيراً، ورؤية([٢٩]).

[٢٥]) ص٥٥-٥٨
[٢٦]) ص٥٩-٦٢
[٢٧]) ص٦٦-٧٥
[٢٨]) ص٨٣-٩٥
[٢٩]) ص٩٩-١٠٤

ملاحظات ختامية :

يمكن الجزم بأن المؤلف قدّم رؤية نظرية مصحوبة بنموذج عملي تطبيقي، في أحد معاهد الدراسات العليا في الولايات المتحدة، وأن الرؤية بلا شك رائعة ومكتملة بشكل كبير، ولكن ثمة أمور لا بد أن نضعها في الحسبان في ضوء ما تقدم:

– إنها رؤية تركز على مرحلة الدراسة الجامعية، وما بعدها، أي إلى الطالب في تكوينه بصفته باحثاً شرعياً، ولم تتطرق إلى المراحل السابقة في تعليمه.

– لم تنظر رؤية المؤلف إلى تكوين طالب العلم نفسه، فهل يمكن أن يقوم طالب تكوّن في مدارس وجامعات مدنية / علمانية، أن يلج هذه المنظومة الإسلامية، وهو مفتقد لأسس العلوم الإسلامية: التجويد، السنة المطهرة، تفاصيل التاريخ، ونماذج من التفاسير، ومدارس فقهية ؟

وربما يعود هذا المنظور إلى وجود المعهد في الولايات المتحدة الأمريكية، وعدم توافر مدارس إسلامية في مراحلها المختلفة.

– ارتباطاً بالنقطة السابقة، فإن الرؤية المطروحة تحتاج طالباً تكوّن شرعياً في الأساس، ومن ثم عليه أن يدرس المناهج المقدمة إليه، لأنها منهجية، ومرحلتها تمثل مستوى فكرياً متقدماً لطالب العلم.

– لم تتطرق الرؤية المقدمة إلى الباحثين في تخصصات أخرى، مثل: الطبيعيات، والإنسانيات، والفلسفات، والأفكار، وغيرها، بالرغم من أنها تمتاح من هذه العلوم كثيراً من المفاهيم. فهي تتوجه إلى الباحث الشرعي، وهذا مطلوب قطعاً، ولكن ماذا عن إسلامية المعرفة مع المهندس، والطبيب، والفيزيائي، والكيميائي، والجغرافي ... إلخ .

– عرض المؤلف، في الجزء الأول من كتابه، الكثير عن تكوينه العلمي، وعن سبل التعليم الديني التقليدي، ، ولكنه لم يشر - من قريب أو بعيد – إلى كيفية الاستفادة من طرائق التعليم القديمة، مثل: آليات الحفظ الشفاهي، والضبط اللغوي، وكيف يمكن تطوير نظام الكتاتيب لنشر القرآن، ومكافحة الأمية. وأيضاً الاستفادة منه في مرحلة ما قبل المدرسة، لمكافحة هجر القرآن، وندرة الحفاظ، وفساد اللسان، وفشو اللحن اللغوي.

– كيف يمكن لمثل تلك الرؤية أن تطور مؤسسات التعليم الديني التقليدية في العالم الإسلامي؟ وقد تعلّم وعلّم المؤلف فيها، ثم تركها ليؤسس جديداً. أي إننا نحتاج لرؤية

تطويرية للمؤسسات الحالية، ومناهجها، ومراحلها المختلفة. صحيح أننا يمكن الاستفادة مما تقدم، ولكن نحتاج لبرنامج تفصيلي، يطور الموجود، ويكافح الجمود، وهذا في المراحل الجامعية.

- أخيراً، ماذا عن مراحل التعليم الديني، قبل الجامعة، في معاهدنا ومدارسنا ؟

لا شك أن هذا الكتاب فيه الكثير مما يمكن الاستفادة منه في بحث قضايا التعليم الديني، وأهمها العودة إلى القرآن الكريم، كتابنا المقدس، وجعله مصدراً للدين، والمعرفة، والمنهجية، والرؤية، والطموح، والحضارة، بعيداً عن تفسيرات، تراكمت عبر عصور وقرون، ربما حجبت عنا جوهر القرآني، وجعلتنا نقرؤه من خلالها، ولا نغوص في إعجازه وهديه بعقولنا وأفئدتنا ❐

بصراحة

الوعي الانتخابي

صلاح سعيد أمين

Selah1434@gmail.com

أصبح إجراء الانتخابات النيابية، وانتخابات مجالس المحافظات، بعد سقوط النظام البائد في بغداد عام ٢٠٠٣، سمة بارزة في الخارطة السياسية الجديدة في العراق. ومن المرتقب أن تحمل هذه الخارطة الجديدة، في طياتها، تغييراً جذرياً يؤثر تأثيراً كبيراً على حياة العراقيين، بنحو يوفر أرضية ملائمة لحياة كريمة لائقة بالإنسان العراقي.

أولاً، وقبل كل شيء، لسنا بحاجة لنسأل أنفسنا: هل غيّرت الانتخابات بالفعل حياتنا نحو الأفضل أم لا؟ إن الانتخابات في العراق لم تحقق المرجو في حياتنا قيد أنملة، إن لم نقل إنها أصبحت محطة لتفكيك النسيج الاجتماعي، وتعميق الشرخ الطائفي والمذهبي والقومي بين أبناء المجتمع العراقي.

والسؤال المطروح هنا هو: لماذا لا تحقق الانتخابات أمنيات الناخب؟ لماذا أصبحت الانتخابات فرصة لإثراء القليل، وبقاء الكثيرين في الفقر والعوز؟

السبب بسيط وهو أننا لا نملك الوعي الانتخابي الذي يحقق ما نراه حلماً، ويجسّد ما نراه مستحيلاً. والقصد بالوعي الانتخابي هو أن يمنح الناخب صوته للمنتخب على أساس المشروع، والقابلية لتطبيق ذلك المشروع، والابتعاد عن الرؤية الطائفية والمذهبية والقومية أثناء انتخاب المرشحين. والوعي الانتخابي يدل على أن المرشح، بعد اختياره نائباً، أو عضواً في مجالس المحافظات، لا يستطيع أن ينسى ما وعد به أثناء حملته الانتخابية، ولا يستطيع أن يقر من مسؤولياته تجاه المواطنين الذين اختاروه لكي يكون حامياً لحقوقهم، ويداً أمينة لتحقيق العدالة والرفاهية في البلد.

القصة لم تنته بعد، ونحن الآن على أعتاب دورة انتخابية جديدة، وقد جرّبنا ثلاث دورات أخرى في الماضي، وآن الأوان أن نخرج من تحت عباءة الطائفية والقومية والحزبية، وأن نعاقب من لم يتحمل مسؤولياته في السابق، ولم يكن في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه. وآن الأوان أن نعي ما حدث في الماضي، وأن لا تغرّنا الخطابات الرنانة، والحماسة العمياء، التي تهيمن على الحملات الانتخابية.. آن الأوان أن نسأل أنفسنا: ما الفائدة في الانتخابات، إذا كانت لا تغيّر شيئاً من أحوالنا؟ وما معنى الذهاب إلى صناديق الاقتراع، إذا كانت لا تنقلنا من مرحلة حرجة إلى أخرى واعدة؟

آن الأوان أن نصحو من النوم، وننهض من أجل حياتنا، وحياة الأجيال القادمة، عبر ارتقاء وعينا الانتخابي، والابتعاد عمّا جرى في السنوات الماضية❐

تقارير

- الاتحاد الإسلامي: حقوق شعبنا باتت ضحية لمصالح القوى العظمى	تقرير: الحوار
- انفراج في أزمة العلاقة بين أربيل وبغداد	تقرير: المحرر السياسي
- مؤتمر بأربيل: عن النصوص والتراث	تقرير: الحوار
- ديوان أربيل لـ(الشرق الشبابي) ينظم ورشة	تقرير: الحوار

الاتحاد الإسلامي الكوردستاني:

حقوق وإرادة شعبنا باتت ضحية لمصالح القوى العظمى

تقرير: الحوار

أدان الاتحاد الإسلامي الكوردستاني في بيان أصدره مجلسه السياسي، يوم الإثنين الموافق ٢٠١٨/٣/١٩، عملية اقتحام القوات التركية، وفصائل من تنظيم (الجيش السوري الحر)، مدينة (عفرين) في غرب كوردستان سوريا، والاستيلاء عليها، والتسبب بوقوع ضحايا مدنيين، ونزوح الآلاف من المدينة.

واستهل المجلس السياسي للاتحاد الإسلامي الكوردستاني بيانه بشأن أحداث عفرين قائلاً: "للأسف، مرة أخرى، وفي شهر آذار، يواجه شعبنا بعفرين الآلام والمآسي.. فبعد شهرين من المقاومة والصمود، أدار المجتمع الدولي ظهره، بشكل باتت حقوق وإرادة شعبنا ضحية لمصالح القوى العظمى، وبات كورد عفرين يواجهون النزوح والتشريد والقتل، وتعرض جزء من أرضنا إلى الاحتلال من قبل القوات التركية وبعض مسلحي المعارضة السورية". وأضاف: "إننا في الاتحاد الإسلامي الكوردستاني، إذ نعبر عن حزننا وتعاطفنا مع كورد غرب كوردستان، ندين في الوقت نفسه هذه الكارثة الموجهة لشعبنا وأرضنا، ونطالب المجتمع الدولي بعدم الصمت إزاء هذه السياسة العدائية التي تمارس ضد شعبنا، وأن يضع حداً لهكذا نوع من السياسة، ويعمل على إغاثة شعبنا، وأن يجد حلاً

سياسياً وإنسانياً لهذه المسألة". وجاء فيه أيضاً: "الظلم الصادر من أي أحدٍ كان، وتحت أي مسمى كان، وتجاه أي أحد، مرفوض من الاتحاد الإسلامي الكوردستاني ونقف ضده".

وختم المجلس السياسي للاتحاد الإسلامي بيانه بالتأكيد على: "أن مواجهة هكذا أحداث تتطلب وحدة صف كافة الأطراف الكوردستانية".

وكانت القوات التركية وفصائل من تنظيم (الجيش السوري الحر)، قد أعلنت، يوم الأحد الموافق ٢٠١٨/٣/١٨، سيطرتها الكاملة على مدينة عفرين غرب كوردستان سوريا، بينما أكدت وحدات حماية الشعب الكوردية، أن "المعركة في عفرين دخلت مرحلة جديدة" مشددة على "استمرار المقاومة".

وقال متحدث باسم الجيش السوري الحر إن مقاتلي المعارضة دخلوا عفرين قبل فجر يوم الأحد من ثلاث جبهات.

من جهته قال المرصد السوري لحقوق الإنسان إن جيوباً لمقاتلي وحدات حماية الشعب الكوردية تحدّت أوامر بالانسحاب، لكن القوات التركية سيطرت على المنطقة.

في هذه الأثناء واصل أهالي عفرين نزوحهم وسط استمرار قصف الطائرات والمدفعية تركية، مما أسفر عن وقوع المئات من الضحايا في صفوف المدنيين، إضافة إلى تردي الأحوال الجوية خلال هذا الفصل.

وبدأت تركيا هجومها على منطقة عفرين قبل ثمانية أسابيع، وهدّدت بتوسيع نطاقه ليشمل مناطق كوردية أخرى في غرب كوردستان - شمال وشرق سوريا -، تنتشر فيها قوات أمريكية مع وحدات حماية الشعب الكوردية، في تحالف بينهما ضد داعش❐

انفراج في أزمة العلاقة بين أربيل وبغداد، وموظفو الإقليم يتهمون الحكومة بـ"التحايل"

تقرير: المحرر السياسي

شهدت أزمة العلاقة بين أربيل وبغداد، انفراجاً طفيفاً، بعد عدة لقاءات جمعت مسؤولين من الجانبين، أعقبتها موافقة حكومة الإقليم على شروط الحكومة الاتحادية فيما يتعلق بإدارة المطارات والمنافذ الحدودية ومسائل إدارية أخرى تعتبرها بغداد من الصلاحيات الحصرية للسلطات الاتحادية.

وبموازاة ذلك أرسلت الحكومة الاتحادية، عبر فرع البنك المركزي العراقي في أربيل، مبالغ مالية لدعم ميزانية الإقليم، والمباشرة بتوزيع رواتب موظفي القطاع العام المتأخرة.

جاء ذلك بعد تعهدات لرئيس الوزراء العراقي د. حيدر العبادي في أكثر من مؤتمر صحفي، أكد فيها التزامه بدفع رواتب موظفي الإقليم، وفتح المطارات أمام الرحلات الجوية الدولية.. وهذا ما تحقق بالفعل، حيث جرى رفع الحظر عن مطاري أربيل والسليمانية، وإعلان سريان رفع الحظر، يوم الأربعاء الموافق ١٤ آذار ٢٠١٨، في مؤتمر لوزير الداخلية قاسم الأعرجي، الذي زار كلاً من أربيل والسليمانية.

كما وأطلقت بغداد أكثر من ٣١٧ مليار دينار لحكومة الإقليم تحت مسمى (رواتب وزارتي الصحة والتربية)، إلا أنَّ الأخيرة قامت بتوزيعها على أكثر من وزارة، ما تسبب بموجة استنكار بين صفوف موظفي الوزارتين المذكورتين.

ولاحقاً أصدرت حكومة الإقليم توضيحاً جاء فيه: "إنَّ بغداد أرسلت (٣١٧) ملياراً و(٥٤٠) مليوناً و(٤٦٥) ألف دينار كمستحقات مالية لكافة موظفي إقليم كوردستان، ومن ضمنها رواتب قوات البيشمركة، ولم تشر إلى أنَّ المبلغ مخصص فقط لدفع الرواتب الكاملة لوزارتي التربية والصحة".

توضيح حكومة الاقليم لم يقنع الموظفين والتدريسيين، فهدد غالبيتهم في مدن محافظتي السليمانية وحلبجة، يوم الإثنين ٢٠١٨/٣/١٩، بمقاطعة الدوام احتجاجاً على ما أسموه (تحايل) حكومة الإقليم في مسألة توزيع رواتبهم. وقال ممثلون عن منتسبي وزارة الصحة، وآخرون عن تدريسيين ينتسبون لوزارة التربية، في بيانين منفصلين: إنَّ حكومة الإقليم تحايلت عليهم بخصوص توزيع رواتب الوزارتين من المبالغ المالية المرسلة من بغداد، مشددين على انتهاج كافة السبل المدنية والقانونية للضغط على الحكومة لإرغامها على التراجع عن سياساتها المالية والإدارية.

وأكد ممثلون عن التدريسيين أنهم سيمتنعون عن حضور الدوام وإلقاء الدروس، بينما أكد ممثلون عن منتسبي دوائر الصحة قيامهم باعتصامات وترك دوائرهم ومراكزهم الصحية تنديداً بممارسات الحكومة الإدارية والمالية.

في هذه الاثناء اتهمت أحزاب المعارضة حكومة الاقليم بإخفاء الحقائق والتعمد في الإبقاء على نظام الإدخار الإجباري.

كتلتا الاتحاد الاسلامي في البرلمانين الكوردستاني والعراقي استهجنتا في بيان مشترك، الاتفاق الأخير بين أربيل وبغداد بشأن توزيع رواتب الموظفين في الإقليم، حيث أعلن رئيس كتلة الاتحاد الاسلامي الكوردستاني في مجلس النواب العراقي، الدكتور مثنى أمين، وعضو برلمان كوردستان عن كتلة (يككرتوو)، الدكتور شيركو جودت، في مؤتمر صحفي مشترك، إنه: "في الوقت الذي كان موظفو وزارتي الصحة والتربية بانتظار بشرى توزيع رواتبهم كاملة، دون استقطاع، من المبلغ المالي المرسل من الحكومة الاتحادية، فإذا باتفاق سري مبرم بين أربيل وبغداد جاء بعكس التوقعات وأطاح بجميع الآمال". وأضافا: "نحن في الكتلتين البرلمانيتين نرفض هكذا تعامل مع قوت الموظفين، ونعتبر القرار خطأ فادحاً آخر للسلطة"❐

مؤتمر بأربيل عن:

النصوص والتراث.. قراءات ومراجعات

تقرير: الحوار

تحت عنوان (النصوص والتراث: قراءات ومراجعات) انطلقت صباح يوم الأربعاء الموافق (٢٠١٨/٢/٢١)، فعاليات المؤتمر الدولي الخامس لمركز الزهاوي للدراسات الفكرية، بالاشتراك مع جامعة صلاح الدين/ أربيل. وقد أقيم المؤتمر على مدار يومين في مدينة أربيل عاصمة إقليم كوردستان، وحضره جمع غفير من النخبة الفكرية وأساتذة الجامعات وعلماء الدين وباحثين أكاديميين.

وافتتحت فعاليات المؤتمر بقراءة آيات من الذكر الحكيم، ثم تلتها كلمة رئيس جامعة صلاح الدين، وكلمة رئيس مركز الزهاوي، ورئيس اللجنة التحضيرية، وعميد كلية العلوم الإنسانية.

وفي الجلسة الأولى تم عرض أربعة بحوث، ثم عقدت جلسة نقاشية خاصة بعنوان (المنهج العلمي للتعامل مع النص).

وفي الجلسة المسائية قام الباحثون بعرض أربعة بحوث أخرى، وشارك الحضور بمداخلاتهم وآرائهم بتفاعلٍ كبيرٍ في جلسات اليوم الأول.

وضمن الجلسة المسائية عرض الأساتذة، الدكتور عماد الدين خليل، والدكتور فرست مرعي، والدكتور صباح البرزنجي، والأستاذ عبد الرحمن صديق، رؤاهم في كلماتٍ متتاليةٍ تخللتها مداخلات من الحضور.

وفي اليوم الثاني لأعمال المؤتمر تم عرض عدة أوراقٍ بحثيةٍ أخرى لمجموعة من الباحثين الأكاديميين.

وانتهت مساء يوم الخميس (٢٠١٨/٢/٢٢) - اليوم الثاني - فعاليات المؤتمر بقراءة البيان الختامي بعد يومين من الفعاليات من قراءة بحوث وعرضها ومناقشتها وعقد ندوات وتكريم للباحثين وبعض المشاركين.

وخرج المؤتمر بعدة توصيات قيمة بخصوص إعادة قراءة التراث الإسلامي بما ينسجم مع روح العصر مع الاحتفاظ بالأصالة الإسلامية❐

ديوان أربيل لـ(الشرق الشبابي) ينظم ورشة عن (المصالحة المجتمعية وحقوق الإنسان) في العراق

تقرير: الحوار

✍انطلقت، يوم العاشر من شباط ٢٠١٨، أولى فعاليات ديوان أربيل لـ(شبكة الشرق الشبابي) بحضور ١٣٠ شخص من كافة المكونات في المجتمع العراقي.

وتضمنت الفعالية، التي حضرتها (مجلة الحوار)، ورشة تفاعلية بعنوان (المصالحة المجتمعية وحقوق الإنسان) في العراق. واستهلت الفعالية بكلمة للمشرف على ديوان أربيل لشبكة الشرق الشبابي (محمود وليد النجار) استهلها بتوجيه الشكر للحضور قائلاً: "شكراً على ثقتكم وحرصكم بالقدوم من دهوك وكركوك والموصل إضافة لأربيل"، ومؤكداً: "إن نشاطات الشبكة هي خطوة شبابية جديدة في سبيل إصلاح الواقع العراقي عن طريق مشاريع احترافية، باعتبار أن الشباب هم الطاقة الأهم لبناء الأجيال فكرياً وأخلاقياً".

وتضمنت الورشة التفاعلية تقديم ورقة بحثية مفصلة عن (الدستور العراقي وقوانينه في ظل ملف حقوق الإنسان والحريات)، استعرضها الأكاديمي الدكتور (لقمان عثمان).

وجرى تقديم ورقتين بحثيتين أخريين من قبل الأكاديمي والباحث (فيصل محمد)، والباحثة (شونم خوشناو)، تمحورتا حول آثار العمليات الإرهابية على اللحمة الوطنية،

والعمل على تعزيز النسيج المجتمعي، وعرض تجارب عن الديمقراطية والعدالة الانتقالية.

وتلا الأوراق البحثية، تنظيم حلقة نقاشية مثمرة بين الشباب الحاضرين، مع تقديم عدد من القصائد الشعبية، والأفلام الوثائقية.

بعدها جرى تكريم المتحدثين بدروع تقديراً لدورهم في إنجاح الفعالية التي جمعت تسع مكونات مجتمعية في فعالية موحدة لتقريب وجهات النظر وتبني مشاريع مستقبلية إبداعية.

يشار إلى أن ديوان أربيل لشبكة الشرق الشبابي يتبع (منتدى الشرق) الذي تأسس عام ٢٠١٢، وهو مؤسسة عالمية مستقلة، تهدف إلى ترسيخ قيم التواصل والحوار والديمقراطية بين أبناء الشرق، والمساهمة في بناء مستقبل مستقر سياسياً ومزدهر اقتصادياً، عبر تنمية الوعي السياسي وتبادل الخبرات وتحديد الأولويات وتعزيز الفهم المتبادل بين المنطقة ومحيطها الدولي، بحسب ما يعرف نفسه.

ويسعى المنتدى المسجل رسمياً في جنيف السويسرية كمؤسسة غير ربحية، إلى تحقيق أهدافه من خلال إدارة حوار عميق بين القوى السياسية والقيادات الفكرية والاجتماعية والحركات الشبابية ورجال الأعمال❐

منطقة على فوهة بركان

محمد واني

بين حين وآخر نسمع ونشاهد أحداثاً عابرة - هنا وهناك - تصل إلى حد السخونة، ثم سرعان ما تخبو وتتلاشى وتعود الأمور إلى مسارها الطبيعي. فرغم حدة التوتر العسكري القائم بين كوريا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية، فإن العلاقات بينهما ظلت تتأرجح بين الشد والجذب، ولم تصل إلى حد المواجهة المباشرة. وكذلك الأمر بالنسبة لأحداث ميانمار، وعمليات التطهير العرقي الخطيرة التي تمارسها السلطات البوذية ضد شعب روهينغيا المسلم، فإنها لم تنل النصيب الكافي من الاهتمام الغربي، ووسائل إعلامه، التي كان حضورها متواضعاً ومخجلاً للغاية، ولم تحرك فيه نوازعه الإنسانية التي يتباهى بها دائماً أمام العالم، ولم يدفعه حرصه المزعوم على مبادئ العدل والديمقراطية وحقوق الإنسان إلى تحريك سفنه وأساطيله العسكرية لتأديب أقطاب المجرمين، وتقديمهم إلى المحاكمة، كما حدث مع صدام حسين - مثلاً - ..

ورغم هذه الأحداث المتقطعة، فإن العالم يعيش في سلام وأمان، ويمارس حياته بصورة طبيعية، سوى منطقة الشرق الأوسط، وعلى وجه التحديد المناطق العربية، فإنها على فوهة بركان مشتعل دائماً، لم تهدأ للحظة منذ أن تحررت من ربقة الدولة العثمانية، وشكلت دولها المستقلة وفق تقسيمات سايكس بيكو الإستعمارية، إذ ظلت - وما زالت - تحت إشراف ومراقبة الدول الغربية، لم تغفل عنها، وفرضت وصايتها عليها بصورة أو بأخرى، وإذا اقتضت مصالحها فإنها تتدخل مباشرة، كما حدث في حربي الخليج الأولى والثانية.

لكن السؤال: ماذا تريد الدول الغربية من المنطقة، ولماذا تسلط تركيزها عليها، وتجعلها في حالة توتر دائم؟ هل لأنها تعوم على بحر من النفط والغاز؟ أم لأن فيها دولة حليفة ومهمة مثل إسرائيل؟ أم لأنها منطقة استراتيجية، تعتبر مفترقاً بين قارات ثلاث؟ أم ربما للأسباب الثلاثة؟

ولكي تسيطر عليها، وتخضع شعوبها، اعتمدت استراتيجية (الفوضى الخلاقة) التي تقضي بإنهاك المنطقة، وضرب بعضها ببعض، سواء عرقياً أو مذهبياً، والإطاحة بأنظمتها، وإشاعة فتن عارمة تجعل الحليم حيراناً! وهي لا ترضى بأقل من فوضى تدخل كل بيت، وترفض وتطيح بأي مشروع سياسي لا يتوافق مع استراتيجيتها الجهنمية.. فهي رفضت الإسلام السياسي المعتدل، وأطاحت به، ورفضت الإسلام الراديكالي، بل ورفضت حتى الأحزاب العلمانية الكوردية (الحليفة)، وأطاحت بها بمجرد اختلافها معها، كما حدث في استفتاء الإقليم، وكما يحدث اليوم في عفرين ❐